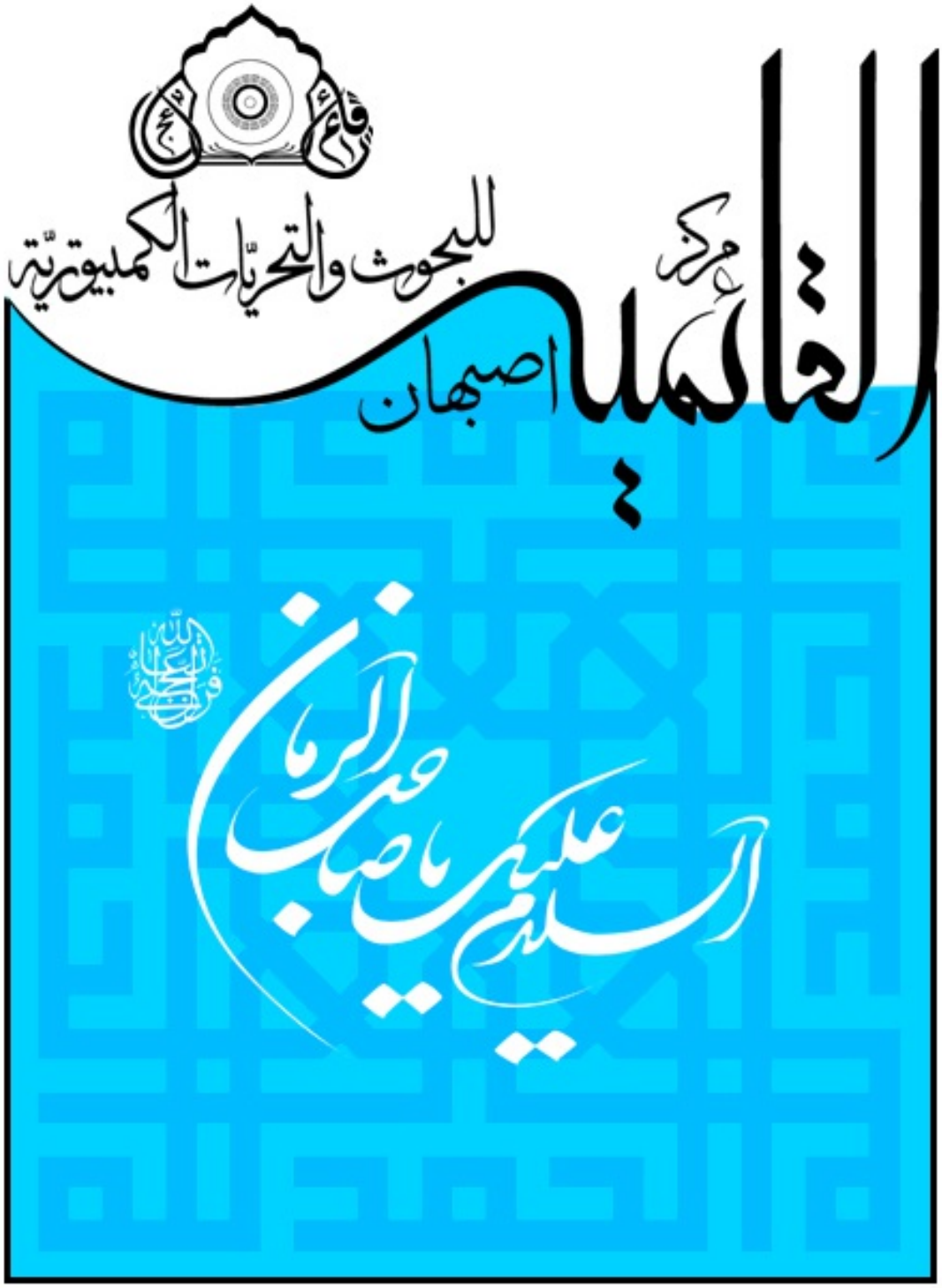

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

ميقات الحج

مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الفكرية
والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

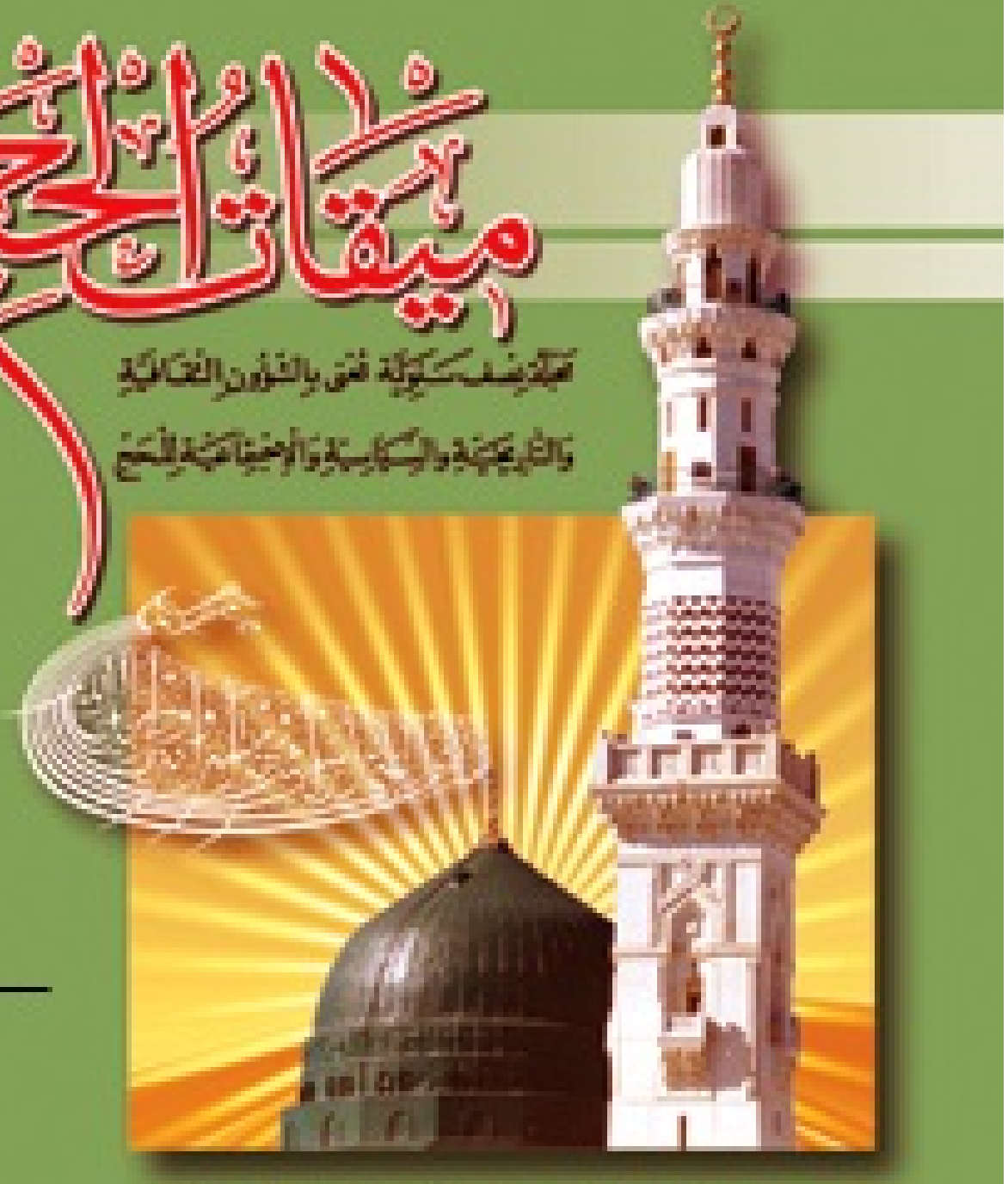

١

* الرسول الرحمة والحج نموذجاً * إيمان أجداد الرسول ﷺ *
* قراءة في حجة الوداع * حجية الفعل النبوي *
* معجزا النبي في كونه قارئاً أو أمياً *
* سيرة المصطفى ﷺ *
* عمرة القضاء *
* مشاهد البعثة النبوية الشريفة من خلال نهج البلاغة *

بسم الله الرحمن الرحيم

دو فصلنامه « میقات الحج »

كاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مركز القائمیة باصفهان للتحریات الكمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
میقات الحج المجلد۱ ----- ۷
اشارة ----- ۷
الحجّ فی احادیث الامام الخمینی- قدّس سره- ----- ۷
الحج فی حدیث الامام الخامنئی- حفظه الله- ----- ۸
الحجُّ عبادة و حرکة و سیاسة ----- ۱۰
الحجّ فی القرآن ----- ۲۰
معبد الانبیاء ----- ۳۱
روءی الامام الخمینی (ره) فی الحج الابراهیمی ----- ۴۸
الحج الابراهیمی والحج الجاهلی ----- ۵۶
وقفة فاحصة عند لفظة "فلا جناح علیه" ----- ۷۳
فقه الحجّ الاستدلالی المقارن وجوب الحج وفوریته فی دراسة استدلالیة مقارنة ----- ۸۰
الحجاز والحَرَمان الشّریفان فی القرن الثّالث عشر ----- ۱۰۶
حدود عرفات. مزدلفة. منی ----- ۱۱۱
یومُ الحجِّ الأکبر ----- ۱۳۰
اسماء مکّة ----- ۱۴۶
هل یحق لغیر المسلم ان یسکن جزیرة العرب؟ ----- ۱۷۳
اسواق مکّة والمدینة ----- ۱۸۲
دعوة إبراهیم و إسماعیل عند رفع القواعد من البیت ----- ۱۹۵
الاهداف الاجتماعیّة للحجّ الابراهیمی ----- ۲۱۸
دور الحجّ فی ترسیخ السّلام فی العلاقات الاجتماعیّة ----- ۲۲۷
نبذة تاریخیّة عن القبلة فی المسجد النّبویّ الشّریف ----- ۲۳۸
خواطر من الحجِّ عند بیت المولی ----- ۲۴۰

انغام الرحیل ----- ۲۴۵

تعریف مرکز ----- ۲۴۹

ميقات الحج المجلدا

اشارة

عنوان و نام پديدآور : ميقات الحج[پايند: مجله]

مشخصات نشر : تهران: منظمة الحج و الزيارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -

فاصله انتشار : شش ماه يكبار

يادداشت : عربی

فهرست‌نويسی براساس سال۳ شماره۵ سال۱۴۱۷ق.

يادداشت : اين نشريه در بيروت نيز منتشر می‌شود

يادداشت : المديرالمسؤول: محمد محمدی‌ری‌شهری

رئيس‌التحرير: علی قاضی‌عسكر

يادداشت : كتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشريات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدير مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسكر، سيدعلی، ۱۳۲۵، - سردبير

شناسه افزوده : سازمان حج و زيارت

رده بندی كنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

الحجّ فی احاديث الامام الخمينی- قدّس سره-

العدد الاول

الحجّ فی أحاديث الإمام الخمينی- قدّس سره-

(۱)

بسم الله الرحمن الرحيم

الی حجاج بيت الله الحرام كافه ايّدهم الله تعالی.

بعد السلام ووافر التحيات.

اليوم، حيث نشِبت براثن الاستعمار الخبيثه- بسبب تهاون و تساهل الشعوب الإسلاميه- فی أعماق الارض المترامية لأُمّة القرآن، لتنهب جميع الثروات الوطنية والخيرات الطائلة، ولتنشر الثقافة الاستعمارية المسمومة فی أعماق قری وقصبات العالم الإسلاميّ، ولتقضی علی ثقافة القرآن، وتجنّد الشباب أفوهجاً فی خدمة الأجانب والمستعمرين، وتطلع علينا كلَّ يوم بنغمة جديدة وبأسماء خادعة تظلّل بها شبابنا. فی مثل هذه الظروف عليكم، يا أبناء الأُمّة الأعزاء المجتمعين لأداء مناسك الحجّ فی أرض الوحی هذه، أن تستثمروا الفرصة

وتفكّروا فى الحلّ، وأن تتبادلوا وجهات النظر وتتفاهموا لحل مسائل المسلمين المستعصية.

واعلموا أنّ هذا الاجتماع الكبير الذى يعقد سنوّياً، بأمر الله تعالى، فى هذه الارض المقدسة، يفرض عليكم- أنتم المسلمين- أن تبذلوا الجهود على طريق االأهداف الإسلاميّة المقدسة، ومقاصد الشريعة المطهرة السامية، وعليطريق تقدم المسلمين وتعاليهم واتحاد المجتمع الإسلامىّ وتلاحمه.

لتشترك أفكاركم وعزائمكم على طريق الاستقلال واقتلاع جذور سرطان الاستعمار.

اسمعوا مشاكل الشعوب المسلمة من لسان أهل كل بلد، ولا تؤلوا جهداً فى اتخاذ أى اجراء لحل مشاكلهم.

على اهالى كل بَلدٍ أن يشرحوا فى هذا الاجتماع المقدس مشاكل شعبهم للمسلمين ...

فكّروا فى أمر الفقراء والمساكين فى العالم الإسلامىّ.

ابحثوا عن سبيل لتحرير أرض فلسطين الإسلاميّة من براثن الصهيونية العدو اللدود للإسلام والإنسانيّة.

لا تغفلوا عن مساعدة الرجال المضحّين الذين يناضلون على طريق تحرير فلسطين وعن التعاون معهم.

على العلماء المشاركين فى هذا الاجتماع، من أى بلد كانوا، أن يصدروا- بعد تبادل وجهات النظر- بياناتصريحة واضحة لا يقاظ المسلمين، وأن يوزعوها فى مهبط الوحى بين أبناء الأُمَّة الإسلاميّة، ثم ينشروها فى بلدانهم بعد عودتهم.

وعلى العلماء أيضاً أن يطالبوا زعماء البلدان الإسلاميّة بوضع الإسلام نصبَ أعينهم، ويتجنّبوا الاختلافات، ويبحثوا عن علاج للتخلص من مخالب الاستعمار.

ولو أن زعماء البلدان الإسلاميّة كفّوا عن الاختلافات الداخلية وتفهموا أهداف الاسلام السامية، واتّجهوا نحوها، لما أصبحوا بهذه الحالة أسرى ذليلين بيد الإستعمار.

ان اختلافاتهم، هى التى خلقت مشكلة فلسطين، وتحول دون حلّها. فلو أنّ سبعمائة مليون مسلم، بأرضهم الغنية المترامية الاطراف، يمتلكون وعياً سياسيّاً، وكانوا متّحدين منتظمين فيصفّ واحد، لما أمكن للدول الاستعمارية الكبرى أنْ تنفذ الى بلدانهم، فما بالك بحفنة من اليهود من عملاء الاستعمار ...

أنا أشدُّ على يد أبناء الأُمَّة الإسلاميّة وأحرار العالم على طريق قطع جذور الاستعمار والمستعمرين، واستقلال البلدان االإسلاميّة وتحطيم قيود الأسر. وأسأل الله تعالى أن يدفع عنا شرّ الأنظمة المتجبّرة وأذناب الاستعمار القذرين، وأسأله أن يتقبل منكم أعمالكم ومناسككم.

الحج فى حديث الامام الخامنئى- حفظه الله-

ص: ۲

الحج فی حدیث الإمام الخامنئی- حفظه الله-

(۱)

بسم الله الرحمن االرحیم

الحمد لله ربّ العالمین. والصلاة والسلام علی سیدنا ونبیّنا محمّد وآله الطیبین الطاهرین.

قال الله الحکیم:

وإذ قال إبراهیم ربّ اجعل هـذا البلدَ آمناً واجنُبنی وبنیّ أن نعبد الأصـنام. ربّ إنهنّ أضـللن کثیراً منن الناس فمن تبعنی فإنّه منّی ومن عصانی فإنّک غفور رحیم.

أطل علینا موسم الحجّ، وملأت نغمة التلبیه المتصاعدة من قلوب المشـتاقین؛ حرم الأمن الإلهی، وهرعت الشـعوب الإسلامیّة من أرجاء المعمورة الی میعـاد الـذکر والاسـتغفار والقیـام والاتحـاد، وتلاقی الأُخوة المتباعـدون ... اتوجّه الی الله العزیز الحکیم شاکراً خاضـعاً، وأحمده حمداً عظیماً عظمَصـفاته الحسـنی، وأثنی علیه سـبحانه ثناءً واسـعاً سـعةَ بحار رحمته، أن وفّق المسـلمین المشتاقین مرّةً أخری لأداء هـذه الفریضة، وأعلا- جلّ شأنه- بذلک رایةَ العزّة والعظمة علی رؤوس المسـلمین فی بیته الآمن، واسـتضاف الحجاج الإیرانیین أیضاً علی مائـدة الرحمة والعظمة. إنّ الإنسان لیعجز عن وصف هذه النعمة الکبری وقدرها وإن أُوتی فصاحة اللسان وقوة البیان. ولعلّ الله سبحانه ینیر قلوبکم المضیئة المشتاقة فتتجلّی فیها تلک الحقیقة المستغنیة عن وسائط القول والکلام.

أیّها االأخوة والأخوات من أی بلـد کنتم والی أی شـعب انتمیتم إنّ ما یهمّنی أن أقوله لکم هو أنّ الحجَّ نعمة إلهیّة مَنَّ بها الله سـبحانه علی الأجیال المسـلمة. وشـکر هذه النعمة ومعرفة قدرها یزیدها، والکفران بها ونکران قدرها یسـلبها من المسلمین وهو العذاب الإلهی الشدید: ولئن کفرتم إنّ عذابی لشدید.

واعلموا أنّ سـلب نعمـة الحـجّ لیس فی عدم توجّه المسـلمین لأداء هذه الفریضة، بل فی حرمان المسـلمین من منافعه التی ال تحصـی، وزیادة هذه النعمة لیس فی زیادة عدد الحجاج کلّ عام، بل فی استثمار منافعه: لیشهدوا منافع لهم.

جدیر بنا أن نفکّر جیداً، هل العالم الإسلامیّ استطاع أن یستثمر منافع الحج؟ وما هی هذه المنافع أساساً؟

الحـج الصـحیح یسـتطیع أن یحـدث تغییراً فی المحتـوی الـداخلی لکـلِّ فرد من أفراد المسـلمین. یسـتطیع أن یغرس فی نفوسـهم روح التوحید والارتباط بالله والاعتماد علیه، وروح الفرض لکلّ الأصنام الداخلیة والخارجیة فی وجود الکائن البشری، هذه االأصنام المتمثلة فی الأهواء والشـهوات الدنیئـة والقوی الطاغیـة المسـیطرة. الحـجُّ یسـتطیع أن یرسّـیخ الإحساس بالقـدرة والاعتمادَ علی النفس والفلاحَ والتضحیة. ومثل هذا التحوّل یستطیع أن یصنع من کلّ إنسان موجوداً لا یعرف الفشل ولا ینثنی أمام التهدید ولا یضعف أمام التطمیع.

والحجّ الصحیح یستطیع أن یصنع من الأشلاء الممزقة لجسد. الأُمة الإسلامیّة کیاناً واحداً فاعلًا مقتدراً، وأن یجعل هذه الإجزاء المتفرقة تتعارف وتتبادل الحدیث عن الآمال والآلام، والتطورات والاحتیاجات المتقابلة، والتجارب المستحصلة.

ولو أنّ الحـجّ وضع ضـمن إطـار برنامـج یتوخّی هـذه الأهـداف والنتائـج وتتضـافر علیه جهود الحکومـات والعلمـاء، وأصـحاب الرأی والکلمـة فی العـالم الإسـلامیّ، لعاد علی الأُمّـة الإسـلامیّة بعطاء ثرّ لا یمکن مقارنته بأی عطاء آخر فی دنیا الإسـلام. کما یمکن القول بکل ثقة: إن هذا التکلیف الإلهی وحده، لو استثمراًصحیحاً کما أرادته الشریعةُ الإسلامیّة، لاستطاع بعد مدة غیر طویلة أن یبلغ بالأُمّة الإسلامیّة ما یلیق بها من عزّة ومنعة.

لابُدَّ من أن نذعن بمرارة الی أن الفاصـلة کبیرة بین الشـکل الحالی لأداء هذه الفریضة الإلهیة والشکل المطلوب. الامام الراحل العظیم بـذل جهوداً فعّالـة فی هـدا السبیل، ووضع نصب أعین الأُمّـة الإسـلامیّة تصویراً واضـحاً عن الحجّ الإبراهیمی، حجّ العظمة والعزة، حجّ الرفض والتحوّل. وکـان طرح هـذا التصوّر بحـد ذاته مبعث برکـات وافرة فی العالم الإسـلامیّ. غیر أنّ نشـر هـذه الفکرة وهـذا المنهج

العملى بين جميع الشعوب المسلمة بحاجة الى جهود مخلصة ينهض بها علماء الدين، ووعى وتعاون يبديه حكام كلِّ البلدان الإسلاميّة، وآمل أن تكون هذه المهمّة الحساسة موضع اهتمامهم و عملهم.

الحجُّ عبادة و حركة و سياسة

ص: ۳

الحجُّ عبادة و حركة و سياسة

تأليف: محمّد حسين فضل الله

لعلّ من أبرز خصائص الإسلام فى تشريعاته العبادية والحياتية، هو هذا الشمول فى النظرة الى الإنسان، فيما يريد أن يحققه من غايات فى تنمية شخصيته، وفى مسيرة حياته انطلاقاً من الكفرة الواقعية التى لا تنظر إلى الإنسان الكائن على أنه ذوبُعد واحد، ليمكن لنا أن نعالج أوضاعه من جهة واحدة، بل هو كائن ذو أبعاد تلتقى فيها الشخصية الفردية بالشخصية الاجتماعية من دون أن تسمح احداهما فى خصائصها الذاتية بالانفصال عن الاخرى، كما يمتزج فى داخلها الجانب الروحى بالجانب المادى، فليس هناك عنصر مادى تختنق فيه النفس فى داخل الأسوار المادية، وليس هناك عنصر روحى تحلّق فيه النفس بعيداً بعيداً عن المادة، فى حالة تجريدية رائعة .. بل هى المادة النابضة بالروح أو الروح المنطلقة فى حركة المادة.

وفى ضوء ذلك أكّد الإسلام على ممارسة الإنسان للحياة بشكل طبيعى واعتبر الانحراف عن ذلك خروجاً عن التوازن والاستقامة فى انطلاقة الإنسان المسلم فى الحياة، فقد جاء فى بعض الكلمات المأثورة ((ليس منا من ترك دنياه لآخرته ومن ترك آخرته لدنياه))، كما جاء فى الحديث الشريف، ((من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم))، وقوله (صلّى الله عليه و آله وسلّم):

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها))

.. مما يعنى أن العزلة عن الحياة لا تمثل قيمة كبيرة من قيم الإسلام فى الحياة، كما أن الفردية المغرقة فى ذاتيتها المختنقة داخل قضاياها الخاصة، تمثل ضدّ القيمة فى السلوك الإنسانى فى نظر الإسلام.

وربما كان من خصائص هذه النظرة الشمولية للإنسان، أنّ الإسلام يريد لأيَّة قضية من قضايا الإنسان، ولأيّة ممارسة من ممارسة، أن تتحرك فى خط القضايا والممارسات الأخرى، بحيث تكمّل نقصاً فيه، أو تسدّ فراغاً فى وجوده .. فإذا تحرّك الإسلام فى خط التربية الفردية لحياة الإنسان، فإنه يريد- من خلال ذلك- أن يختار له من الصفات الكريمة ما يرفع مستوى إنسانيته، ويحقق له الشخصية الخيّرة فى الحلق الاجتماعى، فلا قيمة للعلم مهما بلغت درجةصاحبه فيه، إذا لم يرتفع بالإنسان إلى مستوى العطاء الذى يفتح فيه الإنسان من نفسه مدرسة للآخرين ويحقّق للحياة من فكره خبرةً واسعة تمنحها فرصة النّمو والتقدم والازدهار، ولا قيمة للقوّة إذا لم تستطع أن تتحول إلى عنصر من عناصر القوّة التى تنقذ الآخرين من عوامل الضعف الإنسانى .. وهكذا يجد الإسلام فى الكمال الفردى الإنسانى مفتاحاً للدخول إلى الكمال الإنسانى الاجتماعى .. ويوحى بالفكرة التى تعطى للخصائص الأخلاقية قيمتها الكبيرة، إذا استطاعت أن تحقق للإنسان ذاته فى حركته فى قلب المجتمع، وترفض منح القيمة للّذين يمارسون عمليّة النمو فى العزلة البعيدة عن الحياة.

وقد أراد الإسلام أن يثير هذه النظرة الشمولية فى تشريعه للعبادات .. فقد جاء الإسلام إلى الحياة، والتقى بالنظرة الروحية التى تعتبر العبادة شأناً من شؤون السماء ولا علاقة لها بالأرض فليس من المفروض للعبادة فى قيمتها الروحية أن تحقق هدفاً كبيراً تتحرك- على أساسه- فى شؤونها الاجتماعية واسياسية والاقتصادية، بل كلّ دورها ومهمتها، أنّها ترتفع بالروح الإنسانية إلى الله فى غيبوبة روحية خالصة، يعيش فيه الإنسان روحانية الخشوع والخضوع والعبودية لخالقه، فيحس معها بالسعادة والنشوة والامتداد فى أجواء المطلق والقرب من الله .. وبذلك كانت الرهبانية مظهر السمّو فى الروح والإخلاص فى العبادة لأنها تعزل الإنسان عن كل زخارف الحياة وشهواتها ومشاكلها وقضاياها الصغيرة، وتربطه بالله ...

وبدأ الإسلام تغيير هذه النظرة إلى العبادة من خلال تغييره للنظرة إلى دور الإنسان فى الحياة .. فإذا كان الإنسان خليفة الله فى الأرض، واذا كانت الأرض هى الساحة التى يريد الله لعباده أن يحققوا فيها إنسانيتهم فى خطّ السمّو الذى ترسمه لهم رسالاته ويخططوا فى جوانبها برامجهم فى شؤون النّمو والتقدّم والازدهار على أساس سنن الله فى الأرض .. فإن معنى ذلك أن الدور الإنسانى فى رعاية

حركة الحياة وإدارة شؤونها وتخطيط مراحلها وبرمجة أهدافها ليس بعيداً عن ارادة الله ومحبته ورضاه بل ربّما كان فى القرب من الله، والتأكيد على عمق عبوديته له- فيما تمثله العبادة- باعثاً على تحقيق هذه المعانى فى نفس الإنسان وحياته بطريقةٍ أفضل، وبإخلاص أكمل ..

وقد أعطى الإسلام العبادة- فى هذا الاتجاه- معناها الجديد، وطابعها المميّز ودورها العملى، فلم تعد مجرد حالة وجدانية روحية ذاتيّة يعيش فيها الإنسان معه ربّه، بل تحولت إلى قاعدة من قواعد التربية التى تتنوع فيها الممارسة لتحقق للإنسان أهدافاً عملية، فى حركة شخصيته، وفى مجرى حياته العامّة والخاصة .. فأصبح الإنسان يعيش فيها مع ربّه، ليلتقى- من خلاله- بحياته، فيملأها بكل المعانى والأهداف والقيم الكبيرة التى يحبها الله ويرضاها، ويحب الناس الذين يعيشونها فى عمق الروح، وفى امتداد الحياة كما يوحى بذلك الحدديث المأثور والشريف ((الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)).

فإذا التقينا بالصلاة فى الإسلام فإننا نجدها- فى القرآن الكريم- وسيلةً من وسائل تنمية الشخصية فى خط الخير والصلاح والسمو الإنسانى فيما يمثله خط الابتعاد عن الفحشاء والمنكر فيما ورد من قوله تعالى: وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ... وفيما يوحى به الحديث الشريف ((من لم تنههصلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعداً.. وفيما عبر عنه قوله تعالى: فويلٌ للمصلين الذين هم عنصلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون مما يوحى بأن الصلاة تدخل ففى قيمتها الدينية فى عمق الحياة الفردية والاجتماعية، بقدر ما يتعلق الأمر بالقيم الإيجابية والسلبية التى تحققها الصلاة فى حركة الحياة للإنسان.. سواء فى ذلك ما يمارسه الإنسان فى حقله الفردى أو الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى، انطلاقاً من شمول كلمة الفحشاء والمنكر لكل الأوضاع السلبية، التى يريد الإسلام للإنسان الابتعاد عنها فى جميع هذه الأمور، فلا قيمة لصلاة الطغاة والمتكبرين والظالمين والمتعاونين معهم، والخائنين لأمتهم ولدينهم، كما لا قيمة لصلاة السارقين والكذابين والزناة والمغتابين والنمّامين والآكلين للحرام من مال أو طعام.. لأن الصلاة لم تحقق للإنسان شيئاً عملياً فى خط الاستقامة أو البعد عن الانحراف.. الأمر الذى يجعل الناس لا يُخدعون بصلاة المنحرفين عن الإسلام فى قيمته وشريعته، فيبتعدون بذلك عن السذاجة والبساطة فى تقديرهم للأمور، فى مواجهتهم للواقع، فإذا رأوا إنساناً مسؤولًا يؤديصلاته فى خشوع، فعليهم أن ينتظروه ليخرج من المسجد وينفصل عن أجواء الصلاة، وينتقل إلى مجالات الحكم والسياسة والإدارة ليعرفوا- من خلال ذلك- كيف تمتّد الصلاة داخلَ حياته فى هذه المجالات، أو كيف تبتعد عنها تماماً، ليحدّدوا موقفهم على أساس ذلك كما ورد فى الحديث المأثور عن أئمة اهل البيت، الذى يرفض أن يكون طول الركوع والسجود مقياساً لمعرفة الرجل؛ لأن ذلك ربما يكون جارياً مجرى العادة التى يستوحش الإنسان إذا تركها، واعتبر المقياس- بدلًا من ذلك-صدق الحديث وأداء الأمانة؛ لأنهما يدخلان فى عمق الشخصية الإسلاميّة.. فإذا التقينا بالصوم نجد أن الله جعله فريضة يحقق للإنسان من خلالها شخصيته التقيّة التى تقف عند أبواب الحرام المفتوحة أمامها فلا تدخلها، كما يؤكد فيها الإنسان حسّه الإنسانى ومشاعره الروحية، والاجتماعية.. عندما يجد طعم الجوع والظمإ فى إحساسه بالصوم؛ فيتذكر جوع الجائعين وظمأ الظامئين فيفهم معنى مشكله الجوع والظمأ من موقع المعاناة الذاتية، لا سيما إذا كان غنيّاً لا يعيش الحاجة إلى الأشياء من خلال حياته العادية؛ لأنه إذا أراد شيئاً حصل عليه، وهكذا كان دور الصوم إنسانيّاً اجتماعيّاً إلى جانب الدور الروحى الذى يحقق فيه الإنسان علاقته الروحية بالله.. ومن الممكن للإنسان أن يتعلم من الصوم: الرفض العلمى لكل الأوضاع المنحرفة فى الواقع السياسى والاجتماعى انطلاقاً من إرادته الإسلامية القويّة التى ترفض الحرام فى العمل الفردى؛ لترفضه فى نهاية المطاف فى الواقع الاجتماعى والسياسى العام.

ص: ۴

قيمة الحجّ بين العبادات:

والحج من هذه العبادات الإسلامية التى أرادها الله للناس، لتتحقق لهم من خلالها النظرة الشاملة لقضية الإنسان فى الحياة.. فقد جعله الله فريضة على كل من استطاع إليه سبيلًا، واعتبر تركها خروجاً على عمق الالتزام الإسلامى، حتى جعل التارك لها فى حكم الخارج عن الإسلام.. وقد تعبّد الله به عباده منذ النبى إبراهيم (عليه السلام) وجاء الإسلام فأضاف إليه شروطاً وأحكاماً وحدّد له أهدافاً، ورسم له خطوطاً من أجل أن يحقق للإسلام الدور الكبير فى الحياة، فى فاعلية وامتداد، فلم يقتصر فيه على جانب واحد من جوانب التربية، بل استوعب المعانى التى تنطلق من العبادات الأخرى، فشرّع الإحرام فى كل التزاماته وتروكه؛ ليحقق للإنسان أهداف الصوم، ولكن فى أسلوب متحرّك متنوع لا يخاطب فى الإنسان جوع الجسد وظمأه، ولكنه يخاطب فيه جوانب أخرى، تهذب فيه نزعة القوّة فتوحى له بالسلام، ونزعة التعلق باللّذة فتوحى له بالانضباط والتوازن، ونزعة الترف فتقوده إلى الخشونة، ونزعة الكبرياء فتوجهه إلى التواضع، وتعلّمه كيف يحرّك الفكر والثقافة والمعرفة، فى اتجاه الحق بدلًا من الباطل لتبقى المعرفة سبيله الوحيد فى حركة الكلمة و الفكرة، وشرّع الطواف و جعلهصلاة؛ ليعيش معه الإنسان آفاق الصلاة وروحيتها فيما يمثله من طواف حول البيت، الذى أراده الله رمزاً للوحدة بين الناس، فى معناه الروحى المتصل بالله، لا فى مدلوله المادى المتمثل بالحجارة، وللإيحاء بأن الحياة لا بد من أن تتحول إلى طوافٍ حول إرادة الله، فيما يتمثل فى بيته من مشاعر الطهارة والنقاء والخير والبركة والرحمة والمحبّة. لتكون الحياة حركة فى طريق الأهداف الى يحبّها الله ويرضاها، ويريد لعباده أن ينطلقوا معها فى رساليّة ومسؤوليّة..

وفرض السعى بين الصفا والمروة؛ ليعيش الإنسان معه االشعور الواعى بأن خطواته لا بد من أن تتجه إلى الجالات الخيّرة؛ ليكون سعيه سعياً فى سبيل الخير، وابتعاداً عن طريق الشرّ، فهو يسعى هنا لا لشىء إلا لأنّ الله أراد منه ذلك ليحصل على القرب منه.. مما يوحى بأن السعى هنا إذا كان للحصول على مرضاة الله فيما تعبّدنا به من أمره ونهيه، فينبغى لنا ان نطلق السعى فى مجالات الحياة الأخرى، فى كل آفاقها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فى الاتجاه نفسه لنحصل على رضاه فى كل أمورنا..

أمّا الوقفات التى أرادها الله فى عرفات والمشعر ومنى، فإنها وقفات تأمل وحساب وتدّبر وانطلاق؛ ليستعيد فيها الإنسان مبادئه التى قد تضيع فى غمرات الصراع، التى يخوضها فى سبيل لقمة العيش، أو فى سبيل تحقيق رغباته ومطامعه المشروعة وغير المشروعة، فإنّ الإنسان قد يفقد الكثير من قيمةِ الكبيرة، تحت تأثير النوازع الذاتية من جهة، والتحديات المضادّة التى قد تخلق لديه ردود فعل متوترة،- من جهة أخرى- فينسى فى غمرة ذلك كله الكثير الكثير مما يؤمن به أو يدعو إليه.. الأمر الذى يجعله بحاجة إلى مزيد من التأمل والمحاسبة، التى يرجع فيها إلى فكره وعقيدته وخطه المستقيم فى الحياة.

وجعل الأضحيّة رمزاً حيّاً للتضحية والعطاء فيما يرمز إليه من تاريخ إبراهيم و إسماعيل، عندما أسلما لله الأمر وانتصرا على نوازع الأبوّة فى عاطفتها تجاه النبوة، وعلى حب الذات فى إحساس الإنسان بحياته.. وانتهى الأمر إلى أن فداه الله بذبح عظيم، وفيما يريد أن تثير فى حياة الإنسان فى كل زمان من السير على هدى هذه الروح؛ ليكون ذلك خطاً عملياً، تسير عليه الحياة فى كل مرحلة تحتاجها للتضحية والعطاء.. وكان رجم الشيطان، إيحاءً بما يريد الله للإنسان أن يعيش فى حياته كهمّ يومى يواجه فيه خطوات الشيطان فى فكره وعاطفته وقوله وفعله، وانتماءاته وعلاقاته العامة والخاصة. وربما كان فى هذا التكرير فى الفريضة لرجم الشيطان الرمز إشارة بأن قضية محاربة الإنسان للشيطان ليست قضية حالة واحدة يعيشها الإنسان ويتركها، بل هى قضية متجددة فى كل يوم.. وهكذا يمكن أن يساهم الحج فى إيحاءاته ورموزه وأجوائه الروحيّة، فى تنمية الشخصية الإنسانية من الجانب التأملى والعملى والروحى، فيما إذا عاش الإنسان هذه الفريضة من موقع الوعى المسؤول؛ لذلك لا يبقى مجرّد عبادة يهرب فيها الإنسان من الواقع ليغيب فى مشاعره الذاتية فى جوّ مشبعٍ بالضباب، كما يحاول البعض أن يصوّر العبادة.. وفى هذه الأجواء الروحية الواعية المتحركة فى خط المسؤولية يمكن أن يعود الإنسان الفرد من رحلة الحج إنساناً جديداً فى أهدافه ومنطلقاته وخطواته، من خلال ما عاشه من دروس وعبر ومواقف تأمّلات،

حيث الطهر والخير والمحبّة والحنان، ولعلّ هذا هو ما يريد الإسلام أن يوحيه للحاجّ فيما ورد فى الأحاديث التى توحى بأن الإنسان يخرج من الحج كيوم ولدته أمّه، وأنه يقال له استأنف العمل من جديد.. وذلك فى نطاق المضمون الداخلى للحج، لا من خلال الشكل الخارجى الذى يؤديه الكثيرون بدون روحٍ وبدون معنى ممن يعيشون الحج عادةً وتتقليداً وسياحةً وتجارةً فينطبق عليه ما ورد عن أحد أئمة أهل البيت (عليه السلام) عندما نظر إلى الجموع المحتشدة فى الموقف، أو فى بيت الله فقال: ((ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج))! إذا لا قيمة للعدد إذا لم يكن متحركاً فى عمق القيم الروحية فى الحياة، فرب رقمصغير يحقق للإنسانية معنى كبيراً هو أفضل من رقم كبير لا يحقق شيئاً للحياة إلا زيادةً فى الساحة والحجم عليصعيد الأرض، من هؤلاء الذين يكونون عبئاً على الحياة بدلًا من أن يكونوا قوّة لها.

ص: ۵

.. فى الأبعاد الروحية:

واذا كان الحج من حيث هو عبادة ذات مضمون عملى وروحى، يحقق للإنسان هذا الارتفاع الروحى، فإنه يساعد على تغيير الواقع من خلال تغييره للإنسان إنطلاقاً من الوحى القرآنى فى الإسلام الذى يعتبر الإنسان أساس التغيير كما جاءت به الآية الكريمة: إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم.. وبذلك تدخل العبادة فى عمق حركة الحياة، ولاتبقى حالةً طارئةً طافيةً على السطح.. وهكذا يستطيع العاملون للإسلام- فى أساليبهم التربوية العملية- أن يشجّعوا الناس على ممارسة هذه الفريضة؛ لتحقيق هذا المستوى من التغيير الداخلى فى حياة الإنسان، كوسيلةٍ متقدمة روحية من وسائل التغيير الخارجى لحركة الحياة.. فإن ما يختزنه الفرد من الطاقات الروحية الجديدة فى أجواءالحج، هو أعظم من كثير من الأساليب الخاطبية التى اعتاد الناس ممارستها فى عملية التربية..

وقد رأينا الكثيرين الذين كانوا لا يعيشون المشاعر الروحية فى منطلقاتهم، فى الوقت الذى كانوا يمارسون فيه الالتزام الإسلامى فى بعض مبادئ الإسلام وأحكامه.. قد تغيروا كثيراً بعد قيامهم بهذه الفريضة بطريقة واعية بحيث استطاعت أن تغير مجرى تفكيرهم وشعورهم فيما يعيشون فيه من فكر وشعور.. وتحوّلوا إلى عناصر فاعلة واعية فى حركة الإسلام فى الدعوة والعمل.

ولكن هل هذا كله هو ما تعنيه لنا هذه الفريضة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا هذا التأكيد على وحدة المكان الذى تمارس فيه، وعلى هذا الحشد العظيم من الناس الذى تتنوع أجناسه وألوانه وقومياته ولغاته.. بطبيعة شمول الإسلام كدين لكل هذه الأنواع من الناس..؟ لماذا لم يكن كالصوم وكالصلاة اللذين يمارسهما الإنسان فى نطاق فردى أو جماعى حسب اختياره..؟ هل هناك سرّ يتعدّى الجانب التربوى الفردى إلى الجانب الإجتماعى والسياسى؟ هذا ما نحاول أن نستوحيه فيما نريد أن نثير من حديث.

المنافع العامة:

إنّ أوّل ما نلتقيه من نصوص الحج هو النداء الأوّل الذى وجّهه الله للنبى إبراهيم (عليه السلام) فى دعوة الناس إلى الحج.. وذلك فى قوله تعالى: وأذّن فى الناس بالحجّ يأتوك رجالًا وعلى كل ضامرٍ يأتين من كلّ فجٍ عميقٍ لِيشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيّامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير.

فإننا نجد فى هذا النداء دعوةً إلى أن يشهدوا منافع لهم من دون تحديدٍ لطبيعتها وحجمها، للإيحاء بالانطلاق فى هذا الاتجاه للبحث عن كل المجالات النافعة التى يمكن لهم أن يحققوها من خلال الحج فى حياتهم الفردية والاجتماعية إلى جانب الروح العبادية المتمثلة بذكر الله فى ايّام معدوداتٍ، شكراً لنعمه وتعظيماً لآلائه وتطبيقاً لتعليماته فى توجيه هذه النعمة إلى ما أراده من الإنفاق على الفئات المحرومة البائسة.

وقد يثير القرآن أمام بعض المواضيع حالةً من حالات الإبهام والغموض من أجل أن يدفع الإنسان إلى البحث، فى كل اتجاهٍ يتعلق بالموضوع ليحقق الشمول والامتداد فى آفاقه فلا يتجمّد أمام فرضيّةٍ واحدةٍ، أو وجهٍ معين، أو اتجاهٍ خاص.. وبهذا يكون التشريع حركةً متجدّدة فى خطّ الإبداع والنمو والتقدم..

۲- ورد فى حديث عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) فيما حدّث به هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبدالله ((جعفر الصادق)) فقلت له: ما العلّة التى من أجلها كلّف الله العباد الحج والطواف بالبيت؟ فقال: إنّ الله خلق الخلق.. (إلى أن قال) وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة فى الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من االشرق والغرب ليتعارفوا، ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكارى والجمال ولتعرف آثار رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وتعرّف أخباره، ويذكر ولا ينسى. ولو كان كل قوم إنما يتكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد، وسقطت الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم تقفوا على ذلك، فذلك علّة الحج..

۳- عن الفضل بن شاذان عن الإمام على الرضا (عليه السلام) قال: إنما أُمروا بالحج لعلّة الوفادة إلى الله- عزوجل- وطلب الزيادة

والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً ممّا مضى، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس [الانفس] عن اللذات شاخصاً فى الحرّ والبرد ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلّل مع ما فى ذلك لجميع الخلق من المنافع، لجميع من فى شرق الأرض وغربها، ومن فى البرّ والبحر، ممّن يحج وممّن لم يحج، من بين تاجر وجالب وبائع ومشترٍ وكاسب ومسكين ومكار وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف من المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقُّه ونقل أخبار الأئمة إلى كلصقعٍ وناحية كما قال الله عزّوجل: فلو لا نفر من كلّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقّهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون. وليشهدوا منافع لهم.....

ص: ۶

الحجّ ملتَقى المسلمين:

إننا نستوحى من هذين الحديثين، أن الإسلام أراد للحج أن يكون ملتقىً للمسلمين جميعاً فى شرق الأرض وغربها، من أجل تحقيق التعارف والتواصل بينهم، وتحصيل المنافع الاقتصادية والاجتماعية لمن حجّ ولمن لم يحج، وتبادل التجارب والخبرات المتنوّعة، التى يملكها كل فريق من خلال أوضاعه العامة والخاصة.. وتسهيل حركة الدعوة إلى الله بالانطلاق من موسم الحج للاتصال بكل المناطق الإسلاميّة التى تتمثّلُ بأفرادها، الذين يقصدون بيت الله االحرام؛ لأداء الفريضة فيمما يتعلمونه من ثقافة الإسلام وشريعته، وفيما يتعاونون فيه من مشاريع وأعمالٍ وخططٍ على أساس المصلحة الإسلاميّة العليا.. لينطلق العمل الإسلامى من قاعدة مركزيّةٍ واسعة.. فى أجواء الإسلام التاريخية التى شهدت مولد الدعوة وعاشت حركيتها، وحقّقتْ أهدافها الكبيرة فى جهادها االمرير الصعب، فيكون التحرك فى الخط من موقع الفكرة والجوّ والخبرة المتبادلة والمعاناة الحاضرة.

وهكذا يعيش الناس فيما يقصدونه من مزارات أجواء الإسلام الأولى، التى يعيشون معها الإحساس بالانتماء الروحى والعملى لهذا التاريخ، مما يوحى لهم بأن الإسلام الذى ينتمون إليه يمتدّ إلى تلك الجذور العميقة الطارئة فى أعماق الزمن، وبأن عليهم أن يعطوا هذا التاريخ امتداداً من خلال جهادهم ومعاناتهم. كما استطاع المسلمون أن يحققوا لهم هذا الامتداد الذى يتصل بمسيرتنا الحاضرة.. وبذلك لن تكون الزيارات تقليداً يفقد معناه، وعبادة تتجمد أمام المزار؛ لتنفصل عن معنى التوحيد العميق؛ الذى يخلص العبادة لله دون غيره، ولا يتحرك نحو جهةٍ أوشخصٍ أو عمل إلا من خلال تعاليم الله التى انزلها على رسوله.. الأمر الذى يعطى كل تحرّك معناه الروحى، فيما تعطيه حركة التاريخ من مضمون إنسانىّ إسلامىّ، يغنى التجربة، ويعمّق الإيمان.

سقوط الفوارق:

وعلى ضوء ذلك، نفهم أنّ: اللقاءات التى يخطّط لها الإسلام من خلال هذه الفريضة العباديّة، لا بدّ من أن تعيش الهدف الكبير فى تحقيق لقاء إسلامىّ شامل؛ ليستهدف إلغاء كل الفوارق الطبقية واللونية والعرقية والإقليمية.. من خلال التفاعل الإنسانى الروحى الذى تحققه هذه اللقاءات التى تتمّ فى أجواء روحية خالصة، يستشعر فيها الجميع بالقيمة الإسلاميّة على هدى الممارسة فى وحدة الموقف واللباس والشعار والتحرّك.. فيلغى المشاعر الطارئة المضادّة، التى يمكن أن يتعامل من خلالها الاستعمار الكافر، لتفتيت طاقاتهم وتدمير وحدتهم.. حتى اذا نجح فى بعض خطواته، فيما يستغلّه من بعض الأوضاع السلبية.. كان الحج له بالمرصاد ليبعثر تلك الخطوات الشريرة، ويفوّت عليه عمليّة الاستغلال هذه، بما يثيره من مشاعر طاهرة وأفكارٍ واعية، وخطواتٍ إيمانية متحركة يقظة..

بين الخطّة والواقع:

ذلك هو بعض ما نستوحيه من تشريع الحج فى مدلوله الإجتماعى والسياسى، إلى جانب مدلوله الروحى العبادى التربوى، وذلك هو ما مارسه الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) عندما كانوا يعتبرون الحج قاعدة للحوار مع كل الفئات المنحرفة، كما كانوا يحاولون أن يحقّقوا اللقاء بكل العناصر الطيبة التى يريدون لها أن تسير فى الخطّ الإسلامى المستقيم، فى خطة توجيهية عملية شاملة...

فماذا عن الواقع الذى يعيشه الحج فى هذهِ المرحلة من تاريخ الإسلام؟

إننا نلاحظ حشداً كبيراً من البشر، الذين يفدون إلى بيت الله الحرام من مشارق الأرض ومغاربها، من مختلف القوميات والألوان، ونستمع إلى كثير من الأصوات التى تعجّ بمختلف اللّغات، وإلى الإبتهالات التى ترفع إلى الله من شفاه المؤمنين ومن قلوبهم مستغفرة شاكية باكية، ونشاهد كيف تتقايض الدموع الخاشعة من العيون الحائرة

ص: ۷

القلقة التى تتطلع إلى غفران ذنوبها، وتكفير اثامها والفوز بالجنة والنجاة من النّار.. ونتابع الحجيج فى خطواتهم وأعمالهم، فنلاحظ الإلحاح على تجميد شعائر الحج فى نفوسهم، فى محاولةٍ للحفاظ على الشكل بعيداً عن المضمون.. فإذا دخلت إلى مجتمعاتهم فإنك سترى العلاقات العادية، التى اعتادوها فى بلادهم التى جاءُوا منها، بكل ما تشتمل عليه من سلبيّات، وما تفرزه من نتائج سيّئةٍ تعبث بأجواء الحج أيما عبث، وتسىء إليه إساءة.. وهكذا لا تجد هناك مجتمعاً يترابط أفراده بالهدف الواحد، بل نجد أفراداً يعيشون شكل المجتمع من دون معنى أو روح..

هذا فى المدلول الذاتى للحج إنصح التعبير..

فإذا تطلّعت من جديد إلى الجوّ الداخلى للمسلمين، فماذا تجد؟ إنك ستجد الاختلافات المذهبية بين المسلمين تتحجّر وتتجمّد فيصيغ جامدة لا يملك أصحابها تحريكها أو توجيهها، أو إفساح المجال لها لتتنفس الهواء النقى الذى يجدّد لها أفكارها، ويبعث فيها المرونة والحيوية، التى تدفعها إلى الحركة والحوار حتى كأن الفكر الإسلامى لدى كل فئةٍ وقف فى بعض لحظات التاريخ عند أشخاص معينين، وكفّ عن الحركة فى المراحل الزمنية الأخرى.. ولعل من المفارقات أن الكثيرين ممن يقلّدون المجتهدين لا يدّعون لهم العصمة فى رأى واجتهاد، ولكنهم لا يحاولون أن يناقشوهم فى فتاواهم أو آرائهم، بل يثيرون الغبار فى وجه كل من يحاول ذلك.. وقد لا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه إلى المحاولات المتشنجة التى يقوم بها كل طرف إسلامى ضد الأطراف الأخرى فى أساليب متنوعة فيما تملكه من عناصر الإثارة التى لا تقوم على أساس من الفكر الهادئ المتّزن والأسلوب الإيمانى المنفتح، الذى أرشدنا الإسلام إليه ودعانا إلى ممارسته فيما نختلف فيه من فكر، وفما نتنازع فيه من أمر.. وبذلك يتحول هذا المجتمع الإسلامى إلى مجتمع تتزايد فيه المشاحنات والأحقاد بدلًا من أن يكون مجتمعاً تذوب فيه كل هذه العوامل السلبيّة..

أمّا الجانب السياسى فقد لا تجد فيه أية حركة إيحابية جادة تتناول قضايا المسلمين بالدرس والمناقشة والمعالجة، سواء فيما يتعلق بالأوضاع السياسية التى يعيش فيها المسلمون مشاكل الحرية والعزة والكرامة، بسبب وقوعهم تحت قبضة الاضطهاد الاستعمارى والفكرى والعنصرى، أو فيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية التى تتصل بثرواتهم المعدنية والزراعية، فيما يواجهه المسلمون من محاولات ظالمة فى الضغط المتواصل، من قبل الدول المستعمرة الكافرة، لتعطيل خطط التصنيع والإنتاج فى سياسة الاكتفاء الذاتى التى يطلع إليها العالم الإسلامىّ، وذلك لإبقاء هذه الشعوب سوقاً إستهلاكية لمنتجاتها، الأمر الذى يجعلها تحت رحمة الحروب الصغيرة التى تثيرها الدول الكبرى المستكبرة فيما بينها من أجل أن تشغلها عن خطط التنمية والتطوير، وذلك بفضل عملائها الذين تضمن إخلاصهم لها من خلال ضمانها لمراكزهم التى يتربعون عليها..

إنك لا تشعر بارتفاع الأصوات الهادرة، التى تحاول أن تثير المشاعر الإسلاميّة ضد هذا الواقع السىء كوسيلةٍ من وسائل الإثارة نحو التغيير.. وذلك لأن الأجواء المحيطة بالواقع السياسى هناك تمنع من أىّ حركةٍ فى هذا الاتجاه. لما يحقّقه ذلك من تفجير للطاقات الشعبية فى الخط السليم المضاد لذلك الواقع..

وقد حاولت الثورة الاسلاميّة فى إيران فى السنة الأولى لانطلاقتها، أن تحرّك الجوّ الإسلامىّ هناك، من خلال طرحها للشعارت الإسلاميّة التى تعالج قضايا المسلمين فى العمق والامتداد. وأن تدعوا المسلمين إلى تحويل الحج إلى مؤتمر إسلامىّ عام، تبحث فيه المشاكل الصعبة التى يعانيها العالم الإسلامى وذلك فى محاولةٍ إلى أن يقوموا بالحركة الإسلاميّة العالمية فى الخط الإسلامى السليم الذى يعالج كل أوضاع العالم الإسلامى بصدقٍ إخلاص.. ولكن هذه المحاولة قوبلت بالضغط والتضييق والقهر والتشويه، وذلك نتيجة الخوف من تغيير الأوضاع.

ص: ۸

إننا نواجه الآن الواقع الإسلامى المرتكب المضطرب الضائع بين الاتجاهات غير الإسلاميّة، سواء منها الاتجاهات الماركسية، أو القومية، أو الاشتراكية، أو الإقليمية وبين الاتجاهات الإسلامية المختلفة فى تطلعاتها وخططها وأهدافها.. كما نواجه الواقع السياسى الذى يعيش فيه المسلمون بين واقع خاضع للسيطرة الاستعمارية الكافرة بشكل مباشر، كما فى فلسطين وإريتريا والفيليبين وغيرها من البلاد الخاضعة للاستعمار القديم والجديد، وبين واقع خاضع للحكم الإستعمارى المقنع بقناع وطنى أو إسلامى فيما يمارسه من ظلم واضطهاد وطغيان وتفتيت للثروات والطاقات الإسلامية وتضييعها فى الفراغ، وإفساد للفكر والعمل والواقع فى كل مجالات الحياة.. ويمتد هذا الواقع السيء فيمتثل فى الأوضاع الاقتصادية القلقة التى تضغط على المسلمين فى طريقة الإنتاج والاستهلاك وتوزيع الثروة وإهدار الطاقة وتخطيط الاقتصاد على أساس المصالح الاستعمارية..

أما الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية فإنها تنحدر بشكل عجيب فيما يتنافى مع التخطيط الإسلامىّ للمجتمع وللأخلاق..

... إننا نواجه هذا الواقع الذى يتحدّى وجودنا الإسلامى فى الصميم، ونشعر- معه- بغياب الإرادة الإسلاميّة الواحدة فى مواجهته وتغييره.. بل ربما نجد أمامنا الإرادة المضادة التى تعمل على استمراره وزيادة انحرافه بفضل عملاء الكفر والاستعمار من حكام بلاد المسلمين وقادتهم.. وذلك من خلال أساليب الضغط على الحركات الإسلاميّة الرائدة القائدة، بإعدام قادتها وإغتيالهم، وتفتيت قواعدها، وتخليدهم فى السجون التى يلاقون فيها أبشع ألوان العذاب الوحشى مما لا يخطر على قلب بشر.. والتضييق على الفكر الإسلامى الواعى بمنع الكتب والمجلات الإسلامية الهادفة الملتزمة، وإفساح المجال للفكر المنحرف والخليع من أجل تمييع الإنسان المسلم.. ومنع اللقاءات الإسلاميّة، والاجتماعات الثقافية والسياسية الهادفة.. فى كل بلدٍ يحكمه هؤلاء.. ومحاولة إثارة الخلافات المذهبية وتحويلها إلى عنصر تفجير للواقع الإسلامى فى أوضاع طائفية سياسية حاقدة..

إن هذا الواقع يفرض علينا العمل على تحويل موسم الحج.. إلى موسم إسلامىّ كما أراده الله؛ ليكون مجمعاً للمسلمين يلتقى فيه المفكرون فى حوار فكرى إسلامىّ سليم؛ ليصلوا إلى القناعات المشتركة، أو المتقاربة، أو ليفهموا وجهة نظر كل منهم؛ ليعرفوا ارتكاز الجميع على أسس فكرية إسلاميّة، فيما يتوصل إليه المجتهدون والمفكرون... ويعلموا على أساس الوصول فى نهاية المطاف، بالصبر والفكر، إلى الوحدة فى الفكر والأسلوب والعمل.

وفى هذا الاتجاه، يعمل المخلصون على لقاء الحركات الإسلاميّة من سائر أنحاء العالم الإسلامى، من أجل ان يتبادلوا الأفكار والخبرات ويتعارفوا فيما يحملون من تطلعات وأهداف، وفيما يرتكزون عليه من منطلقات ليكتشفوا من خلال ذلك فى أنفسهم ما يختلفون فيه، ليبحثوا كيف يحولونه إلى قناعات مشتركة، وما يتفقون عليه ليستزيدوا منه فى الجوانب الأخرى ويحولوه إلى خطوات عملية للتعاون من أجل تكامل العمل الإسلامى من جهة، وتوحيد الطاقات الفاعلة فى سبيل حل مشاكل الإسلام والمسلمين من جهة أخرى.. وليبحثوا مشاكل التحرر من الاستعمار والخروج من سيطرة الضغوط السياسية والاقتصادية، ليتحرك الجهاد الإسلامى فى حياة المسلمين من موقع الفكر الإسلامىّ الذى يستهدف عزة المسلمين وكرامتهم فى دولة إسلامية هادفة مظفّرة، على أساس الوسائل الإسلاميّة المشروعة والخطط الواقعية المدروسة.

ص: ۹

وإننا نؤكد على مثل هذه اللقاءات، لأن الاعتماد على المراسلة والقراءة الفكرية لا تستطيع- غالباً- أن تمنح الموقف الإسلامى وضوحاً فى الصورة، بحيث تزيل الشبهات العالقة فى أذهان القائمين على الحركات ضد بعضهم البعض، التى خمدت كثيراً من فرص اللقاء على الأسس الإسلاميّة المشتركة.

وقد تحتاج إلى توجيه العمل إلى لقاء المسلمين ببعضهم البعض فى أجواء إسلاميّة حميمة، يتحادثون فيها فيما بينهم، فى كل ما يهمهم من قضايا؛ وذلك بالزيارات الفردية والجماعيّة لجمعيات الحجاج وأماكن تجمعهم، ليتحسسوا الشعور بالوحدة من خلال اكتشاف الهموم المشتركة ولقضايا الواحدة، والأهداف الكبيرة التى يلتقون فيها على اسم الله.. ليحقّق ذلك رفضا لكل الخطط والمشاعر، التى يعمل الكافرون من خلالها على عزل المسلمين عن بعضهم، من خلال االشعور القومى أو الإقليمى أو غير ذلك.

.. أما قضايا الجهاد الإسلامى فإنها تستفيد من موسم الحج الكثير مما يحققه ممن اجتماع القيادات الواعية التى لا تستطيع أن تجتمع فى مكان آخر يمارس فيه الظالمون الاضطهاد والملاحقة لكل العالمين للإسلام.. فإن مثل هذا الاجتماع يصحح كثيراً من الانحرافات، ويوّحد كثيراً من الجهود وينظم كثيراً من الأعمال المتنوعة المبعثرة، وهناك الكثير الكثير من المنافع والفوائد التى نستطيع أن نحققها فى هذا الموسم الإسلامى الكبير.. مما يجب أن نفكر فيه ونعمل له.. ونصل إليه من أهداف.

ولكن.. هل نحن فى محاولة للتنظير المترف.. وهل يتحقق ذلك كله؟.. فقد يفرض السؤال نفسه علينا من خلال الواقع السلبى المنحرف.. الذى يعيشه موسم الحج الآن.. كيف يتحقّق ذلك كله؟.

الحجّ فى القرآن

ص: ۱۰

الحجّ فی القرآن

تألیف: عبدالله جوادی آملی

یقول تعالی: إنّ اوّل بیتٍ وضع للناس للذی ببکّة مبارکاً وهدی للعالمین* فیه آیات بینات مقام ابراهیم ومَن دخله کان آمناً ولله علی الناس حجّ البیت من استطاع الیه سبیلًا ومن کفر فانَّ الله غنی عن العالمین (۱).

صلة الآیة بما سبقها:

لقد سُبقت الآیة اکریمة الآنفة بقوله تعالی: فاتّبعوا ملّة ابراهیم حنیفاً وما کان من المشرکین (۲)ثم جاء قوله تعالی: انّ اول بیت وُضع للناس... والذی یدلنا علی هذا الترتیب انّ خطاب الآیة ینصرف الی الیهود الذین کانوا یزعمون انهم علی دین إبراهیم الخلیل، فجاء القرآن یحاججهم: لو أنکم علی ملة إبراهیم الخلیل فعلًا وحقاً، إذاً لعظمتم البناء الإبراهیمی، واتخذتموه قبلةً ومطافاً.

شبهة اهل الکتاب:

نستفید من ظاهر الآیة ایضاً انها جاءت ناظرة لشبهة کان یُلقی بها اهل الکتاب علی المسلمین، ومفاد الشبهة:

أولًا: لا مجال للباطل ان ینفذ الی دین ابراهیم الخلیل (علیه السلام). لذلک لا یصح القول بالنسخ الذی یذهب الیه المسلمون واتخذوا بمقتضاه الکعبة قبلة بدلًا من بیت المقدس.

فبیت المقدس لا زال- فی زعم اهل االکتاب- هو قبلة المسلمین التی یجب ان یتولّوها کما کانوا یتولونها فعلًا قبل الهجرة الی المدینة، وإنّ تحوّلهم عنه الی الکعبة بذریعة النسخ لا یعدو أن یکون ضرباً من الوهم والخیال، لان النسخ لا یجوز فی حکم الله!

ثانیاً: لقد اتیتم باطلًا فی قولکم: إنَّ هذا السلوک هو من دین ابراهیم؛ وفی زعمکم انَّ ابراهیم (علیه السلام) کان مسلماً وانکم مُتّبِعوُه. فانتم اذاً اجترحتم الباطل مرتین؛ مرَّة حین قلتم بالنسخ؛ ومرَّة حین نسبتم تصرفکم فی تحویل القبلة إلی ابراهیم وقلتم انکم تبعٌ له فی ذلک!

معالجة شبهة أهل الکتاب:

إنَّ اول ما یمکن ان یقال فی جواب الشبهة: انَّ النسخ جائز ولیس ثمة ما یدل علی استحالة.

ثم انَّ الحکم الاصلی للقبلة کانَ یختص بالکعبة، یقول تعالی: إنَّ أول بیت وضع للناس للذی ببکة... فابراهیم (علیه السلام) کان قد اضطلع بمهمة بناء الکعبة ورفع قواعدها واتخاذها قبلة ومطافاً قبل أن یقوم سلیمان (علیه السلام) ببناء بیت المقدس فی فلسطین.

لذا فانَّ رجوع المسلمین الی الکعبة قبلةً وترک بیت المقدس، إنما هو عودٌ الی السیرة الابراهیمیة ورجوع الی القبلة الأُلی التی تولّاها ابراهیم ومن اقتفی اثره من انبیاء الله.

هذه الحقیقة یحدثنا بها القرآن حین یعرض سبحانه الی سیرة ابراهیم. فابراهیم (علیه السلام) حین ترک ابنه وزوجته فی ارض مکة القفرة دعا ربّه: ربنا إنی اسکنت من ذرّیتی بوادٍ غیر ذی زرع عِندَ بیتک المحرّم... (۳) ثم ابان (علیه السلام) مُراده من ذلک بقوله: ربَّنا لیقیموا الصلاة (۴)فالقصد اذاً هو اقامة الصلاة فی اشرف بقعة من بقاع الارض، أی ان افضل ذریة امرت ان تقیم الصلاة فی اعظم ارض.

۱- ۱ آل عمران: ۹۶- ۹۷.

۲- ۲ آل عمران: ۹۵

۳- ۳إبراهیم: ۳۷.

۴- ۴ إبراهیم: ۳۷.

ص: ۱۱

الموقع الإعرابی لکلمتی ((مبارکاً)) و ((هدی)):

انَّ مبارکاً و هـدیً إما ان تکون منصوبة علی الحال، وهی متعلقة ببکة فیکون المعنی؛ انَّ البیت فی حال البرکة والهدایة. وإمّا ان تکون ((حالًا)) للضمیر ((وضع)) فیکون المعنی: ((وضع مبارکاً وهدی)) أو ((للناس مبارکاً وهدیً)) أو للذی ببکة مبارکاً وهدی.

وما یعنینا التأکید علیه انَّ جمیع هذه الاحتمالات نافذة قابلة للتطبیق، لانَّ الکعبة منار هدایة لجمیع الناس، بحیث یستطیع البشر کافة ان ینالوا قسطاً من هدایة الکعبة وبرکاتها.

مواقع استعمال ((الاولیة)) فی القرآن:

لقد استعمل القرآن الکریم مصطلح ((الاولیة)) فی مواطن کثیرة تدل علی النسبة بید انَّ الاستخدام لهذه اللفظة فی قوله: تعالی: اول بیت وضع للناس هو استعمال نفسیّ.

أما فی قوله تعالی من سورة التوبة لا تقم فیه ابداً (۱) حکایة عن نهی النبی من الاقامة فی مسجد ضرار وحثه فی المقابل للاقامة فی مسجد قبا حیث یصفه سبحانه بقوله: لمسجد أُسّس علی التقوی من اوّل یوم احق ان تقوم فیه (۲) فانَّ استعمال اول یوم فی الآیة یکون نسبیاً لا نفسیاً، والمعنی: أنَّ المسجد أُسس یوم بُنی، علی التقوی.

ولقد ذکر الشیخ الطوسی (رحمه الله) عند تفسیر الآیة: ((أول الشیء ابتداؤه، ویجوز ان یکون المبتدأ لهُ آخر، ویجوز ان لا یکون له آخر، لانّ الواحد أول العدد، ولا نهایة لآخره، ونعیم اهل الجنة لَهُ اول ولا آخر له، فعلی هذا انما کان اول بیت، لانه لم یکن قبله بیت یحج الیه)) (۳).

وقد ذهب مفسرّون آخرون (۴) إلی أنَّ الاول لا یستلزم دائماً وبالضرورة ان یکون لَهُ ثانٍ، فقد یقول المرء: هذا سفری الاول الی بیت الله الحرام، دون ان یستلزم کلامه ضرورة ان یوفق لحج البیت مرةً اخری. وعلی هذا یکون معنی الأولیة هنا، انّه لم یکن قبله شیء. وعلیه؛ حین یقال أول بیت، فلا یستلزم القول ان یکون ثمة بیت ثانٍ وهکذا.

وهذا الکلام لا یتعارض مع وجود بیوت اخری للعبادة، تکون ثانیة وثالثة وهکذا؛ من زاویة: فی بیوت اذن الله ان ترفع ویذکر فیها اسمه (۵) بید أنَّ وجود هذه البیوت لا یکون فی مقابل وجود الکعبة. وکلام الشیخ الطوسی وان کانصحیحاً فی نفسه، الّا ان مصداقه غیرصحیح. فما یقوله من ان تنعم اهل الجنة له اول ولا آخر له لا یصح، رغم انَّ لهذا النعیم أولًا. ووجه عدم الصحة ان هذه النعم بنفسها لا أول لها ولا آخر، فالجنة موجودة الآن- لا أنها تخلق بعد الدنیا- ونعمها دائمة ثابتة دون انقطاع، خصوصاً تلک الجنة التی یقول عنها تعالی: عِندَ ملیک مقتدر (۶).

الأولیة بالذات وبالغیر:

انَّ الاولیة بالذات تختص بالله سبحانه ف- ((هو الأول والآخر)) (۷). وفیوضاته غیر محدودة اذ ((وَکلّ مَنّه قدیم)) وهو ((دائم الفضل)) لا- أوّل لها ولا- آخر، لکنه أول بالعرض لا- بالذات فانَّ بدایته ترتبط ب- ((هو الاول)) ونهایته ب- ((هوالآخر)) وذلک خلافاً لذات الله تعالی التی لا أول ولا آخر لها، وانما هو سبحانه بالذات، الاول والآخر.

الکعبة أول معبد:

انَّ الآیة الکریمة تدل علی انَّ الکعبة هی اول معبد بنی علی سطح الارض. أما ان تکون دلالة الآیة علی أنَّ الکعبة کانت اول بیت بنی للسکن، فهو امر مستعبد، ومثل هذا الاستنباط محفوف بالمشکلات خصوصاً وانَّ الاولیة مقیّده بکون الکعبة بنیت ((مسجداً)).

۱- ۵ التوبة: ۱۰۸.

۲- ۶التوبة: ۱۰۸.

۳- ۷ التبیان ۵۳۵: ۲.

۴- ۸ مجمع البیان ۴۷۷: ۲.

۵- ۹ النور: ۳۶.

۶- ۱۰ القمر: ۵۵.

۷- ۱۱ الحدید: ۳.

ص: ۱۲

بیـد انَّ ذلک لا یمنع من القول: إنَّ مکهٔ هی اول أرض تکوّنت من سـطح الیابست بعد ان انزاح عنها الماء. اما ان تُفید الآیهٔ أن الکعبهٔ کانت اول بیت فالامر ینطوی علی اشکال کما أشرنا.

الّا انَّهُ علینـا ان نـذکر انَّ الآیـهٔ مثلمـا لاـ تثبت فهی لاـ تنفی أیضـاً، ومَرَدُّ ذلک انَّ الجملـهٔ الوصـفیهٔ أو المقیّـدهٔ لا مفهوم لها- بالمعنی الاصولی- وما ال مفهوم له لا اطلاق له ایضاً. والـذی نقصدهُ بانَّ الجملهٔ لا مفهوم لها، انَّ الجملهٔ الوصـفیهٔ واللقبیهٔ لیسَ بمقدورهما ان یقیّدا الـدلیل اذا کانَ مطلقاً، لا انَّه بمقـدورنا ان نقتنص الإطلاق منهما. وبه یتضـح الفرق بین قولنا: إن الجملـهٔ لا مفهوم لها وبین کون الدلیل مطلقاً.

فالجملـهٔ الوصـفیهٔ أو اللقبیهٔ لا مفهوم لها بمعنی لا تثبت ولا تُفید الاطلاق، وانما یکون لها مفهوم فی مقام التحدید وَ حسب لذلک اذا دلَّ دلیـل من الخـارج- من خـارج الآیـهٔ- انَّ الکعبـهٔ هی اول بیت بنی علی سـطح الارض، علی اساس ((دحو الارض)) فانَّ الآیـهٔ لا تخالف ما یدل علیه مثل هذا الدلیل. وانما یصعب استظهار مثل هذا المعنی من الآیهٔ نفسها.

بناء الکعبهٔ:

انَّ المقصود من ((البیت)) هو خصوص الکعبهٔ، حیث یقول تعالی فی سورهٔ المائدهٔ: جعل الله الکعبهٔ البیت الحرام قیاماً للناس (۱).

((قیاماً)) هی مفعول ثان للفعل ((جعل)). انَّ الله جعل الکعبهٔ أو البیت الحرام یتصف بکونه عنصر قیام لجمیع الناس.

وستتضح العلاقهٔ بین هذه الصفهٔ، وبین ما رأیناه فی الآیهٔ مورد البحث، من انَّ البیت ینطوی علی سرّ البرکهٔ والهدایهٔ للناس کافهٔ.

ومـا ینبغی ان نشـیر الیه انَّ البیت کانَ موجوداً قبل ابراهیم (علیه السـلام)، الّا انَّ عوامل کثیرهٔ اثَّرت علیه من قبیل الطوفان، فلم یبق علی هیئته الاولی.

وحین قام ابراهیم (علیه السـلام) بتشـیید البیت ورفع قواعده، أصبحنا منذ تلک اللحظهٔ أمام معالم واضحهٔ لتاریخ البیت ومساره علی مرَّ العصور.

واحدهٔ من هذه المعالم، یحدثنا عنها ما یحکیه سـبحانه علی لسان إبراهیم، فی سورهٔ ابراهیم، حیث یقول علیه السلام: ربنا إنی اسکنت من ذرّیتی بوادٍ غیر ذی زرع عند بیتک المحرَّم (۲) فحین ترک الخلیل زوجته هاجر وولده اسماعیل (علیهما السلام)، فی هذه الارض القفرهٔ وَهمَّ بوادعهما، سألته هاجر: ((الی من تدعنی؟)) فاجاب: الی ربّ هذه البنیهٔ.

لذلک یقول ابراهیم (علیه السـلام): ربنا انی اسکنت... ثم بیَّن ما یقصده بما یحکیه القرآن علی لسانه: ربنا لیقیموا الصلاهٔ فاجعل افئدهٔ من الناس تهوی الیهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم یشـکرون (۳)لانک انت ((مقلب القلوب)). ولقـد قالل ابراهیم افئدهً من الناس وإلّا لو کان الخلیل (علیه السلام) قد قال- کما یذکر الطبری فی تفسیر الآیهٔ-: افئدهٔ الناس لحج جمیع الناس سواء منهم الیهودی والنصرانی واصحاب الملل الاخری.

لم تکن مکـهٔ أرضاً مواتاً یمکن استصـلاحها لتعمر بالنبات والزرع وانما کانت أرضاً جبلیهٔصـخریهٔ تفتقر الی الماء. لـذلک عبَّرت الآیهٔ فی دعاء الخلیل (علیه السـلام) عن وادی مکـهٔ بانَّهُ غیر ذی زرع وَلم تعبّر عنه بانَّهُ ((لم یزرع)) اذ لو کانت الارضـصالحهٔ للزراعـهٔ، بید انها مهملهٔ بانصـراف الجهد الانسانی عنها، لقیل عنها ((لم تزرع)) من باب ((عدم الملَکهٔ)) أما أنّها غیرصالحهٔ للزراعهٔ والاعمار اصـلًا فقد عبر عنها بانهار ((غیر ذی زرع)).

۱- ۱۲ المائدهٔ: ۹۷.

۲- ۱۳ ابراهیم: ۳۷.

۳- ۱۴ابراهیم: ۳۷.

ص: ۱۳

الّا انَّ الخلیل (علیه السلام) العارف بقدرات الله غیر المتناهیة، قال مَع ذلک: ربنا انی اسکنت من ذریتی بوادٍ غیر ذی زرع وقد أوکل الامر الیه- سبحانه- فی ان یفعل ما یشاء.

لقد تضمن هذا المقطع من الدعاء بیان المقاصد التالیة:

۱- انَّ القصد الأساس هو ان یقیموا الصلاة ربنا لیقیموا الصلاة وإن کان ثمة مقاصد اخری فی السیاق.

۲- طلب (علیه السلام) ان یعطف قلوب وعقول شطر من الناس إلیهم.

۳- ثم اراد من ربّه ان یشملهم من الثمرات رزقاً لعلّهم یشکرون ۱۳.

لقد تکرَّرت مضامین هذا الدعاء الابراهیمی فی سورة البقرة، حیث قال (علیه السلام) فیما یحکیه القرآن علی لسانه: ربّ اجعل هذا بلداً آمنا (۱).

فانبثقت بعد فترة عین زمزم ببرکة هذا الدعاء وباستغاثة هاجر (علیها السلام) وبصرخات اسماعیل (علیه السلام) وبکائه. وهو طفلصغیر.

ولما انبثق الماء حلت الطیور حوله، واخذت القوافل تحط رحالها عنده، فتحولت مکة الی ((بلد)) واجیبت الدعوة.

حینما جاء ابراهیم الخلیل (علیه السلام) ورأی الوادی قد تحوَّل الی بلد، اعادَ (علیه السلام) دعاءه مع تغییر السیاق: واذ قال ابراهیم ربّ اجعل هذا البلد آمناً (۲) فقد دخلت هنا (الالف واللام) علی کلمة بلد بینما بقی طلب الأمن ثابتاً لکلا الحالتین.

لقد حقق سبحانه لابراهیم دعوته وحلَّ الامن فی مکة، حتی تمیَّزت عما حولها من البلاد، اذ یقول تعالی: أو لم یروا انا جعلنا حرماً آمناً ویتخطّف الناس من حولهم افبالباطل یؤمنون وبنعمة الله یکفرون (۳).

انَّ استعمال یتخطّف ینطوی علی دلالة عمیقة فی رسوخ الامن، فالخطفة تعنی انقضاض الصقر علی فریسته فی حال غفلتها، ومکة فی امان من ذلک.

لقد استجیبت دعوة ابراهیم واضحی لحرم آمناً، حتی علیصعید الحکم الفقهی، ذلک انَّومن دخله کان آمنا (۴).

انَّ جملة عند بیتک المحرّم تدل دلالة واضحة علی انَّ للبیت وجوداً قبل ابراهیم (علیه السلام). وانما غایة ما هناک انه تعرض لحوادث طبیعیة وغیر طبیعیة، جعلت البیت عرضة للهدام والخراب. حصل ذلک قبل ابراهیم وبعده أیضاً، حیث تهدمت الکعبة اثر السیول، وفی عصر الاسلام قام الحَجاج برمیها بالمنجنیق من علی جبل ابی قبیس.

لذا فانّ الصخور السوداء التی تعلو جدران الکعبة الآن، هی لیست نفس الصخور التی کانت علیها قبل عدة قرون.

والذی یظهر انَّ الکعبة کانت فیصدر البعثة النبویة، لا یتجاوز ارتفاعها ضعف طول الانسان المتوسط. نستفید ذلک من واقعة ارتقاء الامام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب (علیه السلام) علی کتفی رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم)، حیث رمی الاصنام وقذف بها نحو الارض اثناء فتح مکة.

اما الجانب المعنوی فی هذه الواقعة فله حسابه الآخر، حیث عبَّر الامام علی (علیه السلام): انَّهُ حین کان علی کتف رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم) لو رام ان ینال الثُریا لنالها.

ما نستفیده من هذا العرض انَّ الکعبة کانت عرضة للهدام والتخریب اکثر من مرَّة. وفی هذا السیاق جاء الخطاب الی ابراهیم الخلیل: واذ بوَّأنا لابراهیم مکان البیت حیث تکفل سبحانه بیان المکان ووضع التصمیم الهندسی

۱- ۱۵ البقرة: ۱۲۶.

۲- ۱۶ ابراهیم: ۳۵.

۳- ۱۷ العنکبوت: ۶۷.

۴- ۱۸ آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۴

والمعمارى للكعبة، ثم كان على ابراهيم ان يضطلع بمهمة التنفيذ والبناء، حيث جاء فى تتمة الخطاب الالهى: ألّا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين واالقائمين والرّكع السجود (۱).

بين الكعبة وبيت المقدس:

انَّ لبيت المقدس قدسيته ومكانته، إلّا اننا لا نجد فى القرآن انَّ الله- سبحانه- ينسبه الى نفسه فى الكيفية، التى نتلمسها فى الكعبة والتى تختص بها دون غيرها، كما فى قوله تعالى: بيتى وبيت الله.

بعد ان اقام ابراهيم البيت، جاءه الخطاب الالهى: وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالًا (۲) انَّ جملة يأتوك هى جواب الامر، بمعنى سيأتون فى المستقبل. وَ هؤلاء سيأتون باى كيفية ممكنة، فمنهم المشاة، ومنهم من يأتى وعلى كل ضامر أى الهزيل من النوق وغيرها.

وبه يتضح انَّ الملبين للنداء الإبراهيمى، منهم من يأتى مشياً، ومنهم من يأتى راكباً على كل ضامر. أما اولئك الذين لهم القدرة ان يركبوا على غير الهزيل الضامر، فان حظّهم فى الاستجابة للنداء أقل من غيرهم.

وفى كل الاحوال، فانَّ الملبين للنداء سينطلقون من كل مكان يقصدون البيت. يأتين من كلّ فجٍ عميق (۳).

يتضح من سياق الآيات انَّ ابراهيم (عليه السلام) طوى مراحل متعدّدة بامر الله تعالى. فبادئ الأمر تعرف على ارض مكة، ثم ترك فيها زوجته وولده، وطلب من ربه ان تكون لهما بلدة آمنة.

وحين عاد اليها مجدداً رآها وقد آلت الى ان تكون ((بلدة)) فكرّر دعوته فى ان يجعلها أمناً وأماناً. ثم جاءه الخطاب بتشييد قواعد البيت، وفى الاثناء توجه الى ربّه بدعائه: تقبّل منّا انَّك انت السميع العليم (۴).

وحين بُنيت الكعبة وصفها تعالى بقوله: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس (۵) ولم يقتصر الامر على الكعبة وحدها فى ان تكون حراماً، وعنصر قيام للناس، وانما اتسع المكان ليشمل الحرام، وامتد الزمان ليستوعب الشهر الذى يتم فيه الحج، فكل ذلك، وما يتخذ الناس من الهدى والقلائد اصبح شعاراً وقياماً للناس. والشهر الحرام والهدى والقلائد (۶)لقد ذكر الطبرى فى تفسيره للآية، أ نّ البيت كان قواماً للناس فى الجاهلية، حتى وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، فشدَّد الله ذلك بالاسلام. ثم اضاف: ((كان الرجل لو جرّ كل جريرة، ثم لجأ الى الحرم لم يتناول ولم يُقرب. وكان الرجل لو لقى قاتل ابيه فى الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه)).

بل زاد الامر على ذلك بعدم التعرض للحيوان اذا قُلِّد بقلادة، اذ يصبح فى امان حتى وهو يأكل من علف غيرصاحبه.

وبشكل عام، كانت معالم الامن ظواهر واضحة، يمكن تلمسها والاحساس بها لزوّار البيت الحرام.

القبلة الى البيت المقدس:

ليس ثمة شك، أن بيت المقدس اضحى قبلة من عصر سليمان (عليه السلام) فما بعد، فسليمان هو الذى وضع تصميم بيت المقدس وقام ببنائه.

لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم)، حين كان فى مكة، يتوجه على خطٍ واحد الى الكعبة وبيت المقدس، حيث كان يقف فى كيفية تجمع بين القبلتين.

ومثل هذا الجمع كان سهلًا فى مكة؛ لأنَّ بيت المقدس يقع فى شمال غربى الكعبة، ورسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يقف فى جنوب الكعبة فيكون بمقدوره ان يجمع القبلتين على خطٍ واحد.

اما فى المدينة فقد اختلف الامر تماماً، لذلك كان يقصد بيت المقدس قبلة حين الصلاة بعد ان تعذّر الجمع بينه وبين الكعبة، بل كانت الكعبة تقع الى وراء ظهره.

۱- ۱۹ الحج: ۲۶.

۲- ۲۰الحج: ۲۷.

۳- ۲۱الحج: ۲۷.

۴- ۲۲ البقرة: ۱۲۷.

۵- المائدة: ۹۷.

۶- المائدة: ۹۷.

ص: ۱۵

بيـد انَّ الحـال لم يـدم، حيث تم تحويـل القبلـة الى الكعبـة ورسول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) واقف يصـلى فى مسـجد القبلتين، فاستدار وهو فى الصلاة نحو الكعبة.

المسجد الحرام والمسجد الاقصى:

جمعت الآية الكريمة من سورة الاسراء بين المسجد الحرام والمسجد الاقصى، حيث يقول تعالى: سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله (۱).

إن عوامل الارض والمناخ والماء ساهمت جميعاً فى إعطاء مزايا لأطراف المسجد الاقصى، كانت سبباً فى كثرة النعم والخيرات. ومع ذلك فقد قُدّر لمكة أن تنعم بكل هذه الثمرات والخيرات أو اكثر، رغم أرضها ومائها ومناخها. والسر فى وفور الخيرات والثمرات دائماً فى مكة هى دعوة الخليل المستجابة وارزقهم من الثمرات.

الفوارق بين الكعبة والمسجد الاقصى:

لقد اضطلع بمسؤولية بناء الكعبة ابراهيم الخليل وهو (عليه السلام) من أولى العزم. بينما اضطلع سليمان (عليه السلام) ببناء بيت المقدس، وهو ليس من اولى العزم، وانما من الحفّاظ الشرائع اولى العزم.

بيد انّ هذا الفارق ليس هو الوحيد بين الكعبة والمسجد الاقصى، وانما ثمة فارق آخر يتمثل بالوعد الإلهى، بحماية الكعبة وحراستها من الأعداء؛ هذا الوعد الإلَهى تحوّل الى سيرة عملية، فى حين لا نجد ما يناظر هذا الوعد بالنسبة لبيت المقدس.

فلو أراد أحد ان يتعرض للكعبة لعرّض للاستئصال، كما حماها سبحانه بطيرٍ ابابيل وصانها بمعجزات اخرى. أما عملياً فلا نجد مثل هذا الوعد بالنسبة لبيت المقدس، اذ استطاع ((بخت نصر)) ان يهدم بيت المقدس تماماً، إلّا انَّهُ لم يتعرض لما تعرض اليه ابرهة الحبشى.

بناء الكعبة لمنفعة الناس:

ما نستفيده من ظاهر الآية الشريفة- مدار البحث- انَّ اول بيت وضع لعبادة الناس كان فى مكة، وقد وضع لينتفع منه الناس، حيث يقول تعالى: وضع للناس وان كان التعبير فى مورد التكليف بالحج جاء قريناً بحرف الجر ((على)) حيث يقول تعالى: لله عليالناس الّا اننا سنوضح انَّ العبادة والتكليف لا يمكن أن يكونا ضدَّ الناس ابداً، بل هما لصالحهم دائماً.

لذلك تجد اهل السلوك يعبرون عن التكليف بالتشريف. فالرجل حين يبلغ السادسة عشرة من عمره والمرأة حين تبلغ العاشرة يعبِّرون عنهما انهما قد بلغا سنَّ التشريف (ويعنون به التكليف) واصبحا اهلًا للخطاب الالهى، فى حين لم يكونا قبل ذلك اهلًا لتلقى ما ينطوى عليه الخطاب من أحكام نظير قوله تعالى: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة (۲).

وعن الاحكام الإلهية عموماً بما تنطوى عليه من تكليف يقول تعالى: ذلكم خير لكم (۳). وانطلاقاً من هذه الزاوية بالذات عُبِّرعن العبادة ب- ((اللام)).

معبد الانبياء

۱- ۲۵ الاسراء: ۱.

۲- ۲۶ البقرة: ۴۳.

۳- ۲۷ البقرة: ۵۴، ۱۸۴، ۲۷۱.

ص:۱۶

معهد الانبياء:

ظاهر ما عليه الآية من الاطلاق انَّ البيت الحرام والكعبة المشرّفة كانا اول معبد فى تاريخ البشر، بحيث لم يكن لنبى قبلة غير الكعبة.

هذا الاستنتاج نستطيع ان نؤيده من آيات فى سورة ((مريم)). ففى هذه السورة نقرأ عن المسيح: وجعلنى مباركاً اينما كُنت واوصانى بالصلوة والزكوة ما دمت حيّاً (۱). وذلك علاوة على ما فى سورة من وصايا لانبياء آخرين، حيث يقول- تعالى- بعد ان ذكر عدداً من الأنبياء: أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممّن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجداً وبكيا (۲).

فمسار الانبياء (عليهم السلام) من آدم حتى نوح، ومن نوح حتى ابراهيم، وما بين هؤلاء الأنبياء ومن ذراريهم يمدحهم الله بقوله: إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً ومن الواضح أنَّ السجود يستلزم وجود الجهة، سواء أكان المعنى السجود بنفسه أو السجود فى اطار الصلاة، حيث تقام الصلاة لقبلة بعينها.

على انَّ الراجح هو قيامهم بالصلاة، كما تؤيد ذلك الآية التى تليها، حيث يقول تعالى: فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا (۳)

يتضح مما تقدم انَّ الانبياء كانوا من اهل الصلاة، وانَّ الصلاة والسجود يستلزمان جهةً وقبلة.

وفى مسألة القبلة إما أن نستند إلى قوله- تعالى- فنقول: فأينما تُولّوا فثمَّ وجهُ الله (۴)وهو قول بعيد. وإمّا ان نقول بجهةٍ خاصة كانت قبلة لهم.

وما نستفيده من ظاهر الآية فى اطلاقها، انَّ الكعبة كانت قبلة الصلاة والسجود لجميع انبياء الله من آدم حتى النبى الخاتم (عليهم السلام). أما احتمال غير الكعبة قبلة لهم، فهو مما لا يتسق مع ما عليه الآية من اطلاق.

لماذا سميت مكة ببكة؟

قال تعالى: للذى ببكة وقد قيل: إنَّ المقصود ب- ((بكة)) هو مكة، اذ تبديل الميم الى الباء يحدث احياناً نظير ((لازب ولازم)). بيدَ أنَّ تعليل ذلك لا يكون بالتبديل، وانما: ((لانَّ الناس يَبُكَّ بعضهم بعضاً)) (۵)اثر الازدحام والكثرة عند اجتماع الناس فيها.

و ((بك)) تأتى بمعنى التحطيم، فهى بكة لانها تبك اعناق الجبابرة والبغاة اذا بغوا فيها، فتدفعهم.

معنى مباركاً:

يقول تعالى فى وصف بيته الذى بمكة: مباركاً وهدىً للعالمين. والمعنى انَّ البيت منشأ الوفير من البركات، وهو وسيلة هداية للناس.

وتطلق ((البركة)) على المال والشىء الثابت، فما له ثبات ودوام فهو مبارك.

من هنا اطلق على تجمعات الماء فى الصحراء انها ((بِرْكة)) لما تتسم به من ثبات، ولا نها تحفظ الماء من الهدر فيدوم.

وبتعبير الشيخ الطوسى فانَّ الصدر يسمى ((برك))؛ لانَّه المكان الذى تحفظ فيه العلوم والاسرار والافكار وتثبت. وكذا يقال ((بَرَك)) لوَبَر البعير من جهةصدره.

وذات الله مباركة لجهة ثبات خيرها ودوامها.

۱- ۲۸ مريم: ۳۱.

۲- ۲۹ مريم: ۵۸.

۳- ۳۰ مريم: ۵۹.

۴- ۳۱ البقرة: ۱۱۵.

۵- ۳۲ نور الثقلين ۳۶۷: ۱.

ص: ۱۷

اما بالنسبة للبيت فلانه ينعم بالخير والثبات اكثر من الاماكن الاخرى فهو يكون ((مباركاً))؛ أى وفير الخيرات دائمها. اماكون الكعبة وسيلة هداية للناس كافة، فمرد ذلك إلى انَّ جميع العباد والسالكين يقصدونها؛ ومنهاصدعت دعوة الحق الى البشرية جمعاء؛ اذ مِنها انطلق نداء نبينا (صلّى الله عليه وآله وسلّم): ((لا اله الّا الله)) الى ارجاء الدنيا، ومنها سيبلغ نداء خاتم الاوصياء المهدى (عليه السلام) اسماع البشرية فى اليوم الموعود.

فهى اذاً محضن الحق، تتوفّر على وسائل كثيرة اخرى لهداية الناس.

وفى مكة آيات لله لا تحصى. فى آيات بينات.

مقام ابراهيم:

يقول تعالى: مقام ابراهيم لقد ذهب البعض للقول: انَّ ابراهيم (عليه السلام) كما ((كان امة واحدة)) فانَّ مقامه ايضاً بمنزلة ((آيات بينات))؛ أى انَّ المقام فى آثار اقدام الخليل (عليه السلام) وفير بالمعجزات، حتى اضحى المقام بمنزلة ((امة واحدة)) فى باب الاعجاز، كما هو شأن الخليل نفسه.

والسؤال: كيف اضحى ((مقام ابراهيم)) آيات بينات بصيغة الجمع، فى حين ان السياق يقتضى التعبير بالمفرد، فيقال: آية بينة؟

ثمة فى الجواب عدّة احتمالات، نشير للاول منها من خلال ما يلى:

أوّلًا: لقد تحوَّل الصخر الصلد الى عجين لين، وذلك فى حدِّ ذاته آية ومعجزة.

ثانياً: ثمة مكان محدَّد من الصخرة هو الذى لانَ دون البقية.

ثالثاً: انَّ لين الصخرة حصل لعمق وبشكل معين ثم عادت الصخرة- فيما عدا ذاك- لصلادتها.

رابعاً: لقد بذل الاعداء جهوداً محمومة لمحو هذا الاثر، بيدَ انَّه بقى يتطاول على الزمان محفوظاً من عبث الطغاة.

خامساً: ثمة قوى مولعة بخطف ما يقع بيديها من آثار قديمة فى بلاد المسلمين تتسم بطابع فنى، أو تحمل خصائص مقدَّسة، ومع ذلك بقى هذا الاثر دون ان تفلح هذه القوى بنقله إلى خارج العالم الاسلامى.

كيف تشكّل الاثر فى مقام ابراهيم؟

هل تشكّل الاثر فى مقام ابراهيم حين وقف (عليه السلام) على المكان- الصخرة- اثناء بناء الكعبة؟ أو انَّ الآية حصلت حين عادَ ابراهيم للمرة الثانية فطلبت منه زوجة ولده اسماعيل ان ينزل لتغسل له (رأسه أو رجله) الّا انَّه لم ينزل وانما وضعَ قدمه على الصخرة فتركت هذا الاثر؟ أو الاثر انطبع على الصخر حين اعتلاه الخليل ليؤذّن فى الحج امتثالًا لامر الله تعالى: واذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالًا (۱)

يمكن ان يكون الاثر قد حصل فى جميع هذه الحالات، أو فى احداها.

فجميع هذه الوجوه محتمل الوقوع. بيد انَّ ما يهمنا التأكيد عليه هو أنَّ الخليل (عليه السلام) وضع قدميه على الصخرة فانطبعت آثارهما، وبقيت الآثار حتى اللحظة. أما فى أى حالة من الحالات آنفة الذكر تمَّ ذلك، فالامر مُناط للروايات الخاصة التى تتكفل اضاءة المسألة وبيانها.

انَّ هذه الخصيصة التى حصلت لإبراهيم (عليه السلام)، حيث يحدثنا (سبحانه) فى سورة سبإ، بقوله تعالى: وَ لقد آتينا داود منّا فَضلًا يا جبال أوّبى معه والطّير وأَلَنَّا لَهُ ٱلحدِيدَ (۲). ليس هذا وحده، وانما عُلِّمَ داودصناعة الدروع، حيث يقول تعالى: وَعلّمناهصنعة لبوس (۳) لقد كان الحديد البارد الصلد يلين بين يدى داود (عليه السلام).

وما ينبغى الانتباه اليه انَّ القرآن استعمل ألنَّا فى مسألة الحديد، فى حين استعمل علمناه فيصناعة الدروع. والسر انَّصناعة الدروع هى جزء من العلوم الحرفية الصناعية التيى يمكن تعلّمها واكتساب المهارة فيها، وبالتالى

۱- ۳۳ الحج: ۲۷.

۲- ۳۴ سبأ: ۱۰.

۳- ۳۵ الانبياء: ۸۰.

ص: ۱۸

يمكن انتقالها الى الآخرين. أما إلانـة الحديـد فهى ليست مسألـة مهنيـة تـدخل فى اطار العلم والتعلّم، وَ بالتالى لا يمكن ان تنتقل الى الآخرين، ولذلك لم يعبّر عنها ب- ((وعلمناه إلانة الحديد)).

قـد يقال: إنَّ من الممكن إلانة الحديد عبر تذويبه فيصـهاريج الفولاذ، الّا انَّ الآية لا تتحدث عن هذا النمط من الإلانة والتذويب الذى يقع فى مجال العلم، وانما تتحـدث عن فعل اعجازى، حيث كانَ داود (عليه السـلام) يمسك الحديد الصـلب بين يديه وَيشـكّله كيفما شاء، تماماً كما يمسك الانسان العادى الشمع بين يديه ويعيد تشكيله بما يشاء.

ومقام ابراهيم (عليه السـلام) هو من هـذا القبيل، مع فارق بين الاثنين حيث لانَ الحديـد لـداود، والصـخر لابراهيم، والتقدير ((والنا له الحجر)).

لقـد اضـحى الصـخر ليناً ناعماً بين قـدمى الخليل، حتى ترك اثرهما عليه، مُضافاً لذلك انَّ الصـخر أضـحى بمثابة ((المحفظة)) لقدم الخليل (عليه السلام) كما الحديد بالنسبة لداود (عليه السلام).

والآـن عودة الى بـدء. فقـد انطلقنـا من السؤال التـالى: كيف يكون مقـام ابراهيم لوحـده- بصـيغة المفرد- دالـة على آيات بينات وهى بصيغة الجمع؟

ذكرنـا حتى الآـن احـد احتمـالين- حيث لاـ حظنـا انه هنـاك عـدد من الآيـات المعجزة فى المقـام يشـكل مجموعهـا: آيـات بينـات- والاحتمال الاول هذا ذهب اليه الزمخشرى.

أما الاحتمال الثانى ففحواه انَّ آيات بينات تنطوى على عـددٍ كبير- من الآيات والمعجزات- احـداها مقام ابراهيم، وثانيتها: وَ مَن دخله كانَ آمناً.

الأمنان التكوينى والتشريعى لبيت الله الحرام:

انَّ للكعبـة امنـاً تكوينـاً، اذ دأب الكثير من الطغـاة على التعرض للبيت فى محاولـة للقضـاء عليه، ولاـ لحاق الاذى بأهل مكـة، الّا انَّ الله سبحـانه حفـظ البيت وجعله فى أمـان. يقـول تعـالى: الـذى اطعمهم من جـوع وآمنهم من خَوف (۱). ويـوم لم يكن ثمـة اثر للتشـريع والاحكـام، كـان اهـل مكه وهم مشـركون يتمتعون بأمن خاص. ثم هناك الامن التشـريعى، ومؤدّاه: من دخله كان آمناً بل انَّ الطبرى نقل فى تفسيره للآية (۹۷) من سورة آل عمران، انَّ المجرم الجانى كان فى الجاهلية اذا لجأ الى الكعبة لا يتعرض له احد بسوء.

وهنا لا نحتاج للتكلّف فنحضـر آيات بينات فى خصوص ((مقام ابراهيم)) أو خصوص ما للبيت من أمن إلهى مجعول. فبئر ((زمزم)) و ((حجر اسماعيل)) و ((الحجر الاسود)) هى ايضاً آيات بينات.

بل انَّ البيت بنفسه هو معجزة وآية بينة، بدليل ما حلَّ باصحاب الفيل الذين همّوا بهدم الكعبة، فواجههم (سبحانه) بجيووش الهيّة، كما تحكى لنا ذلك سورة الفيل: الم تر كيف فعل ربك باصـحاب الفيل...؛ فجعلهم كعصفٍ مأكول. اذاً، ليس ثمـة ما يدعونا للقول: انَّ ((مقام ابراهيم)) هو وحده بيان لآيات بينات، وانما خُص بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام.

يقول تعالى فى سورة البقرة: واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصـلّى وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل ان طهّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود (۲). لقـد ذُكر فى بحث مفصَّل انَّ ((البيت)) مرجع للناس كافة وَملاذ لهم، وهو محاط بأمن تكوينى وامن تشريعى. فاذا أراد احد التعرّض للبيت بهدف الهدم والافناء فانَّ الله (سبحانه) يكون بالمرصاد.

۱- ۳۶ قريش ۴.

۲- ۳۷ البقرة: ۱۲۵.

ص: ۱۹

أما الامن التشريعى فمن مصاديقه، انَّ الانسان اذا كان عليه حد ولجأ الى الحرم، أمن اقامة الحدود عليه طالما مكث بالحرم؛ الّا أن لا يراعى حرمة البيت، فحينئذٍ يشمله القصاص. يقول تعالى: والحرمات قصاص (۱). بمعنى انَّ الانسان اذا تعرض لحرمة الكعبة والمسجد الحرام وعموم الحرم والشهر الحرام، فسينزع عن نفسه الامان، ويكون عرضة للقصاص والحد.

فاذا اجترح الانسان جناية فى الحرم اقيم عليه الحد حتى وهو داخله. اما اذا ارتكب الجناية خارج الحرم ولجأ اليه أمن الحد وامهل حتى يخرج منه. ولكن يضغط عليه حتى يلجأ إلى خارجه؛ فلا يبتاع منه ولا يُطعم ولا يُحسن اليه.

ثمة غير الآية التى نتحدَّث عنها، آية اخرى تشير الى ما يتحلى به الحرم من أمن، حيث يقول- تعالى- فى سورة العنكبوت: أو لم يروا انّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطّف الناس من حولهم، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (۲).

والسر انَّ ما من احد يتعرض الى البيت بقصد االإفناء، ولاهله بقصد الاستئصال، الّا وكان الله له بالمرصاد، فيذيقه العقاب بلا امهال: ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذابٍ أليم (۳).

ثمة رواية ينقلها المرحوم ابن بابويه فى كتاب ((من لا يحضره الفقيه)) مؤدّاها: اذا كان البيت يتحلى بحرمة خاصة، واذا كان (سبحانه) قد أرسل طيراً ابابيل على جيش ابرهة حين قصد الكعبة؛ فلماذا لم تشمل الحماية الالهيّة ابن الزبير حين تحصَّن داخل الكعبة، حيث قام الحجاج بن يوسف برمى الكعبة بالمنجنيق من على جبل ابى قبيس- بأمر من عبدالملك- فهدّمت الكعبة وأعتقل ثم قتل؟

ذكر ((الصدوق)) فى الجواب: ان حرمة الكعبة انما تكون لحرمة الدين وحفظه وصيانته. وحافظ الدين وحارسه فى زمان حضور الامام المعصوم، هو الإمام نفسه، وفى زمن غيبته يضطلع بالمهمة نوابه.

ثم نقل عن الامام (الذى يبدو هو الامام السجاد عليه السلام) انَّ الزبير لم ينصر امام زمانه سيّد الشهداء الحسين (عليه السلام) حتى استشهد مظلوماً، وحينما آلت الامامة الى الامام الذى يليه (الامام السجاد عليه السلام) لم ينصره ولم يدع اليه. لذلك لم ينصره الله ولم يدفع عنه حتى وهو يلوذ بالكعبة ويلجأ الى داخل البيت، كما حصل فى جيش ابرهة حيث ارسل (سبحانه) طيراً ابابيل فى حين لم يحصل الشيء نفسه حين رمى الحجاج الكعبة بالمنجنيق.

لذلك انتهى الامر باعتقال الامويين لابن الزبير- وهو رجل فاسد- فقتلوه ثم اعادوا بناء الكعبة دون مشكلة تُذكر. أما بالنسبة لابرهة فالامر يختلف تماماً، اذ كان هدفه افناء الكعبة وتحويل قبلة الناس الى جهة اخرى، لذلك لم يمهله سبحانه.

بمعنى آخر، ان تصرّف الحجاج بن يوسف لم يشكل نقصاً للآية من يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ولا يتعارض معها. ولا زال الامر يشكل حالة مطّردة، فلو افترضنا انَّ هذه الديار تتحوّل الى ديار ظلم، فالله (سبحانه) لا يتدخل لقمع الظالم واستئصال الظلم ان لم يكن أهل الديار على الصراط المستقيم؛ وانما يمكن ان نفسِّر امثال هذه الوقائع على اساس: نُولّى بعض الظالمين بعضا (۴)- أى انَّ الوقائع تتحرك على مسار قانونٍ آخر-.

انَّ الفكرة المحورية التى ينبغى ان ننتبه اليها، هى انَّ على المسلمين ان ينهضوا بتكليفهم، ويضطلعوا بواجباتهم، ثم ينتظروا الوعيد الالهى: من يرد فيه بالحاد بظلمٍ نذقه من عذاب اليم.

نسبة ((البيت)) الى الله والناس.

ثمة فى مطلع الآية- مورد البحث- ما يؤكد الفكرة التى نبحثها، ويدل عليها، حيث يقول تعالى: انَّ اوّل بيتٍ وضع للناس....

لقد نسب الله (سبحانه) البيت الى ذاته المقدّسة كما نسبه الى الناس، ولكن مع فارقين احدهما أدبى والآخر معنوى. أما الأدبى فيتجلى فى نسبة البيت اليه (سبحانه) من دون ((لام)) حيث قال: أن طهّرا بيتى أما حين النسبة الى الناس فقد دخلت ((اللام)) حيث قال سبحانه: .... وضع للناس. والمعنى المراد: أنَّ الكعبة هى بيت الله، وليست بيتاً للناس، بيد انها وضعت للناس ومن أجلهم.

أما الفارق المعنوى فهو يتجلى فى انَّ اضافة البيت الياالله (سبحانه) هى التى منحته الشرف والرفعة. وذلك على عكس الحالة الثانية، اذ

اكتسب الناس الشرف والرفعة باضافتهم الى البيت.

فشرافة ((البيت)) من نسبته لله تعالى؛ وشرافة الناس من نسبتهم الى البيت.

قوله تعالى: وضع للناس الوضع هنا تشـريعى، والمقصود: انَّ البيت معبد وقبلة ومطاف للناس؛ جميع الناس دون ان يكون من اختصاص فئة دون اخرى. والطريف الذى يلاحظ انَّ التعبير جاء بصيغة ((وضع للناس)) لا بصيغة ((بنى)) للناس.

۱- ۳۸ البقرة: ۱۹۴.

۲- ۳۹ العنكبوت: ۶۷.

۳- ۴۰ الحج: ۲۵.

۴- ۴۱ الانعام: ۱۲۹

ص: ۲۰

الكعبة هى القبلة لوحدها:

لنفترض انَّ الآيـة الكريمـة أشارت الى الارض التى تحيط الكعبـة، فمع هذا الافتراض، تكون الاشارة من باب انَّ هذه المساحة تشـكل منطقة الحرم. أما ما هو مهم، فهو البناء الخاص؛ أى الكعبة.

ومـا يقـال- على سبيـل التقرير- من انَّ الكعبـة قبلـة، فـذلك فى مقابـل مَن ذهب للقول: انَّ الكعبـة قبلـة للقريب؛ ولاـ هل مكـة يكون المسجد الحرام قبلة، أما البعيد فقبلته الحرم المكى برمته (۱).

فهذا الرأى خطأ؛ والصواب انَّ الكعبة هى قبلة الجميع سواء منهم القريب والبعيد. والفارق الذى يقال انما يصدق على جهة الاستقبال.

لقـد حث الاسـلام النبى والآـخرين، على ان يقولوا فى كـلِّ الحالاـت: ((والكعبـة قبلتى)) (۲) حتى اضـحت هـذه الجملة ذكراً يردّده الجميع.

انَّ لجميع الاموات والاحياء شأناً مع الكعبة، فالمحتضـر يسـتقبلها، والميت يدفن باتجاهها. بيد انَّه ليس لاحدٍ من هؤلاء شأن مع مسـجد الحرام أو الحرم بنفسـهما. اما قوله تعالى: شطر المسجد الحرام (۳) فهو من جهة: فلنولينك قبلة ترضبها (۴)فالقبلة المتمثلة بالكعبة هى المقصد.

ثم إنَّ الـذى يولى وجهه شـطر المسـجد الحرام حتى يكون قد اتجه إلى الكعبة؛ فالاختلاف اذاً فى جهة الاسـتقبال لا فى القبلة نفسـها. فالقريب يتوجه نحو البيت ويستقبل بوجهه ((جرم الكعبة)). أما البعيد فهو يُولى نحو الحرم، الّا انه يتوجه الى الكعبة.

وبالنسـبة لقوله تعـالى: وحيث ما كُنتم فولوا وجوهكم شـطره (۵) فانَّ المقصود هو اسـتقبال المسـجد الحرام، لا اتخاذه قبلة. فالمسـجد الحرام ليس قبلـة بنفسه، ولا الحرم المكى، وانما تقتصـر القبلـة على الكعبـة نفسـها كما اثبت ذلك المضـطلعون بالدراسات الاسـلامية (الفهية).

ومن طريف ما يمكن ان يشـير اليه هنا، ما ذهب اليه بعض الأكابر من العلماء من انَّ الكعبـة بنفسـها ليست قبلة ايضاً؛ بل القبلة ماثلة فى حيّز الفضاء الخاص الـذى تشـغله. ورحم الله استاذنا المحقق الـداماد الـذى كان يكرّر هـذه الجملة بدأب: ليست الكعبة هى القبلة، اذ يمكن لهذه ((البُنية)) ان تنهدم أو تنهار فى يوم من الايام اثر سيل أو غيره؛ فهل يبقى المسلمون يومئذٍ دون قبلة!

لذلك قالوا: إنَّ القبلة هى ليست هذه البناية والجدران المضلعة، بل هى الفضاء الخاص الممتد ((من تخوم الأرض الى عنان السماء)) (۶). واسـتدلوا على ذلك بأن المصـلى اذاصـلى فى مكان منخفض أو مرتفع عن مسـتوى سطح الكعبة وبنائها، فهو يتوجه فى الحالتين الى الفضاء الممتد من تخوم الارض الى عنان السماء، وكون هذا الفضاء قبلة لا يطرأ عليه أى تغيير أو تبديل.

ومن الطريف ان نختم هـذه الفقرة بكلمـات للفخر الرازى فى فضـل الكعبـة وشـرفها انتقلت من بعـده الى كتب الآـخرين؛ حيث قال: ((ليس فى العالم بناء أشـرف من الكعبة، فالآمر هو الملك الجليل؛ والمهندس هو جبريل؛ والبانى هو الخليل؛ والتلميذ اسـماعيل (عليهم السلام) (۷) وكفى بذلك فضلًا وشرفاً)).

بيد انّ مثل هذا الشرف والفضيلة لم يثبتا لبيت المقدس.

۱- جواهر الكلام ۳۲۰: ۷

۲- شرائع الاحكام: ۱

۳- البقرة: ۱۴۴

۴- البقرة: ۱۴۴

۵- البقرة: ۱۴۴

۶- الوسائل ۲۴۷: ۳

۷- التفسير الكبير ۱۴۵: ۸

ص: ۲۱

مصاديق ((آيات بينات)):

ثمـة آيات بينات فى هذه الديار المقدسة، هى بمجموعها دلالة واضـحة على الغيب. انَّ الآية معناها العلامة، وهى بالاصـطلاح القرآنى علامةصدق الانبياء، فيما يدعون اليه من ربوبية الخالق وعبودية المخلوق.

لقد توفّر الفخر الرازى فى تفسيره على ذكر علامات (آيات) كثيرة تدل على خصوصية الكعبة وكيفية بنائها (۱)، وهى تتحرك اجمالًا فى نطاق هذا المحور، وفيما يلى نستعرض بعض هذه الآيات- العلامات-:

۱- انبثاق زمزم ودوام فوران مائها:

ثمة الكثير من الآيات البينات فى خصوص بئر زمزم، فماؤها شـفاء، وهو لا يفسد حتى لو طالت عليه المدة. ثم انَّ بئراً يبقى ماؤها يفور منـذ آلاف السـنين، فى ارض تفتقر الى الأمطار الغزيرة ولا تكاد تسـقط فيها الثلوج الّا نُزراً، هو بحـدّ ذاته معجزة وآية معجزة وآية من الآيات الالهيّة البينة.

أما لو كانت هذه البئر فى ارض تغزر فيها الامطار ويتكاثر سـقوط الثلوج، لأمكن تفسـير دوام انبثاق مائها على اساس: فسلكه ينابيع فى الأرض (۲).

ثم انَّ فى مائها بركة خاصة، كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يطلبه هدية من القادمين من مكة.

وبئر هـذا منبثقهـا؛ وهـذا دوام فوران مائهـا، وفى مائهـا البركـة والشـفاء، بحيث لاـ يفسـد ماؤهـا ولاـ يُصـاب بالعَفَن، لهى حقاً محفوفة بالمعجزات، بل إنَّ ماءها وحده هو تجلى ل- ((آيات بينات)).

۲- المشعر الحرام.

فى أطراف مكة (المشـعر الحرام، عرفات، ومنى) علامات تتجلى فيها آيات بينات. فرغم انَّ تلك المنطقة بعيدة عن مدار السيل، إلّا انَّه يكثر فيها الحصى واجزاء الصخر المفَتَّت الى قطعصغيرة، كتلك التى تتركها السيول حين تدهم منطقةصخرية جبلية.

فالحصـى هنـاك كثير، ويكفى ان نتصوّر كثرته بمـا يحمله كـل حـاج بمفرده، اذ يحتاج كحـدٍ وسط أو أدنى الى سـبعين حصاة؛ ومع ذلك لا زال الحصـى وفيراً لم ينفذ، وفى ذلك وحده معجزة. يقول الفخر الرازى فى تفسيره الكبير: ((وقد يبلغ من يرمى فى كل سنة ستمئة ألف إنسـان- كل واحـد منهم- سـبعين حصاة، ثم لا يرى هناك الّا ما لو اجتمع فى سـنة واحـدة لكان غير كثير (۳). وقد يقال الآـن: انَّ المسؤولين فى الحجـاز هم الـذين يتولون عمليه رفع الحصـى المجتمع وتسـطيح الارض مجـدداً، ولكن ماذا بالنسـبه لـذلك الزمان؟.

۳- رعاية الحيوان لحرمة الكعبة:

تسـعى الطيور ان لا تحط فى أعلى الكعبـة كى لا يتلوث المكان بفضـلاتها؛ واذا كانت فيى حالـة انحدار من الأعلى نحو الارض، فانها تبتعد عن الكعبة بزاوية معينة. وفى ذلك وحده علامة على آية بينة.

وَ ما ينبغى ان نشـير اليه، انَّ عـدم تلويث الطيور للمشاهد المشـرفة والعتبات المقدسة، هو ظاهرة مشـهودة أيضاً، وان كان الأمر يختلف بالنسبة الى الكعبة فى تلك الزاوية التى ينحدر بها الطير بعيداً عن الكعبة.

لقد تحدّثوا بمثل هذه الكرامة لحرم الامام امير المؤمنين (عليه السلام) فقالوا: انَّ الطير تراعى هذا الأدب من باب: ((ينحدر عنّى السيل وَلا يرقى الىّ الطير)) (۴)

وقالوا عن الحرم المكى أيضاً: انَّ الوحوش لا تعتدى على بعضها البعض وهى فى الحرم، ولا تلحق الاذى بالحيوانات الأليفة.

وما نخلص إليه: ان ثمـة الكثير من الشواهـد الظنيـة التى تُفيـد ان هـذه المنطقـة ليست عاديـة، فالحيوان فيها آمن، والانسان يتحلى بأمن نسبى ملحـوظ الـذى اطعمهم من جـوع وآمنهم من خوف (۵) فى حين كـان من حـولهم ... ويتخطّف النـاس من حولهم، أفبالبـاطل

يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (۶).

۱- التفسير الكبير ۱۴۵: ۸

۲- الزمر: ۲۱

۳- التفسير الكبير ۱۴۵: ۸

۴- نهج البلاغة خطبة: ۳

۵- قريش: ۴

۶- العنكبوت: ۶۷

ص: ۲۲

۴- مقام ابراهيم:

يحتل مقام ابراهيم (عليه السلام) موقعاً خاصاً فيصلاة الحاج وطوافه، كما ينص على ذلك القرآن. وللمقام حرمة خاصة كونه مصداقاً للآيات البينات.

يقول تعالى: واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركّع السجود (۱). هل تجب الصلاة خلف المقام مُباشرة أم أنها تكفى عندَ المقام؟ ثمة اقوال انتهى اليها البحث الفقهى وُفق اختلاف المدرك (الرواية)، اذ احتاط بعضهم فذهب الى وجوب الصلاة خلف المقام مُباشرة؛ فيما عدّ البعض الآخر الصلاة عندَ المقام كافية.

لقد تحدثنا فى فقرات البحث السابقة، عن كيفية كون مقام ابراهيم معجزة، واشرنا الى ما يتصل بذلك من حديث، فلا نُعيد.

تقابل ((اللام)) و ((على)):

يقول تعالى: ولله على الناس حجّ البيت من استطاع اليه سبيلًا انَّ على الناس فى الآية هى فى حقيقتها للناس أى: لنفع الناس وفائدتهم، لا لضررهم وعليهم. كما انَّ ((اللام)) فى لله لا تفيد معنى النفع والاستفادة، وانما معناها: انَّ هذا الامر هو من قبل الله ومن جهته الى الناس.

فالتكليف الإلهى يقترن دائماً بالخير، نظير قوله تعالى: كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم (۲)وإذا كان الشىء خيراً فلا يكون بضرر أحد.

لذلك نخلص إلى أنَّ ((اللام)) و ((على)) حين يكونان فى مقابل بعضهما البعض، فانَّ التقابل علامة على انَّ الامر أو الشىء يكون حكماً من أحد الطرفين، وجعلًا وواجباً على الطرف الثانى، ولا يمكن ان يدل (التقابل) على الضرر.

فضيلة الحج على سائر العبادات:

لا يبدو من ظاهر آيات القرآن الكريم، انَّ ثمة عبادة غير الحج جاءت فيصيغة لله على الناس اذ لم نجد نظير هذا الاسلوب فى عبادة مثل الصلاة والزكاة، وبالتالى لا يقال ((لله على الناس اقامة الصلاة)) أو ((لله على الناس إيتاء الزكاة)).

وهذا التمييز يُعدّ فى حدّ ذاته علامة على خصوصية فريضة الحج وما تنطوى عليه من عظمة من بين سائر العبادات.

فعن الصلاة جاءنا الخطاب القرآنى بصيغة وأقيموا الصلوة (۳)أما الحج فتميَّز وانفرد بصيغة: لله على الناس....

((الحج)) لغة.

الحج مصدر، وقد ذهب البعض الى انّهُ اسم مصدر، ومعناه قصد بيت الله الحرام.

انَّ ((حج البيت)) هو عبادة مألوفة منذ عصور قديمة؛ وبالذات منذصر الخليل ابراهيم (عليه السلام). وقد اعتادوا أن يعدّوا السنين بالحج، وفى ذلك يقول نبيُّ الله شعيب لموسى الكليم (عليهما السلام): قال إنى أريد أن أُنكحك إحدى ابنتىَّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج (۴).

ويقال فى لغة الشهور ((ذو الحجة)) لوقوع ((حج البيت)) فى هذا الشهر، ويعبر أربع حجج بدلًا من أربع سنوات وهكذا.

هناك فى الآية: لله على الناس حج البيت... الكثير مما ينبغى التأكيد عليه؛ من نظير:

۱- يتضح من ظاهر آيات القرآن أنَّ الحج هو العبادة الوحيدة، التى عُبّر عنها بصيغة لله على الناس.

۲- لقد قُدّم ((لله)) على المبتدإ المؤخّر، لكى يفيد السياق معنى الحصر، ويدل على انَّ العبادة (الحج) لله وحده.

۳- لقد بينت الآية الامر بصيغة البدل، والإبدال يفيد التكرار كما يقال، اذ لم يقل سبحانه: ((لله على المستطيع...)) وانما قال: لله على الناس حج البيت من استطاع.

۱- البقرة: ۱۲۵

۲- البقرة: ۲۱۶.

۳- البقرة: ۴۳.

۴- القصص: ۲۷.

ص: ۲۳

۴- انصرفت الآية وهی فی معرض بیان من یشمله التکلیف من ((الناس)) للتعبیر بصیغة بیان ((البعض من الکل)) فقالت: من استطاع الیه سبیلًا وهذا الاسلوب بمثابة التفصیل بعد الاجمال والتبیین بعد الإبهام؛ وهو یفید التکرار والتأکید.

ولو جاءت الآیة بصیغة ((لله حج البیت علی المستطیع)) أو ((لله علی المستطیع)) أو ((علی من استطاع الیه سبیلًا حج البیت)) لما أفهمت المعنی آنف الذکر.

المقصود من ((البیت)) هو أول بیت وُضع للناس والاستطاعة تنقسم الی استطاعة عقلیة واستطاعة شرعیة، وکلا هما تتصمنهما الآیة.

فمن الناحیة العقلیة یستطیع کل انسان ((مستطیع)) ان یتشرف بالحج ((ولو متسکعاً)) وان کان الحج مستحباً بالنسبة الیه، لیس بواجب؛ وان لم یکن مستحباً فیحمل علی معنی الزیارة ویدخل فی المعنی العام لقوله تعالی: مبارکاً وهدیً للعالمین فهو مصدر هدایة وبرکة للجمیع المستطیع وغیر المستطیع، وحاجاً کان أو معتمراً؛ واجباً أدّاه أو ندباً.

إلّا انَّ الحج الواجب لا یجب الّا علی المستطیع. وفی البحث الفقهی ثمة آراء؛ فهل تلزم الاستطاعة ((الیه)) فقط؛ أم انَّ الاستطاعة ((الیه)) و ((عنه)) کلتیهما لازمتان (۱)؟.

۱- ۵۹جواهر الکلام ۲۷۳: ۱۷.

ص: ۲۴

ص: ۲۵

روءى الامام الخمينى (ره) فى الحج الابراهيمى

ص: ۲۶

روءى الإمام الخمينى (ره) فى الحج الإبراهيمى

تأليف: محمّد محمدى رى شهرى

وَ اذْ قالَ إبْراهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا البلدَ آمناً وَاجْنُبْنى وَبَنِىَّ انْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (۱).

قد جرى الحديث مراراً عن الحج الإبراهيمى فى الخطب التى تلقى والمقابلات التى تجرى بخصوص الحج، ولكن قلما وضع تحديد دقيق لهذا الحج، وأُجيب على السؤال التالى:

ما هو الحجُّ الإبراهيمى؟

وما اختلافه عن الحجِّ غير الإبراهيمى؟

إذاً، فما أنسب أن يكون هذا الموضوع المهم محور حديثنا فى ندوة الحج هذه التى تقعد فى جوار مزار إمامنا العزيز، فكل مالدى الشعب وكل ما حققته له الثورة الإسلاميّة هو من بركات هذا الوجود الطاهر.

وبالطبع فاننى لا اعتقد بأنّ هذا البحث الواسع سأتممه فى هذه الكلمة، لكننى أرجوا أن أتحدّث عنه بشكل مستفيض فى مناسبات أُخرى.

ما هو الحجُّ الإبراهيمى؟

الحج الإبراهيمى: هو الحج الذى شرّعه الله تبارك وتعالى، وأمر بأن يوءَذن به إبراهيم الخليل (عليه السلام) وَ اذّن فى الناسِ بالحجّ....

وقد جدّد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فى عصره روح الحياة فى هذا الحج، غير أنه لم تمر مدة قصيرة على وفاته (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حتى طواه النسيان- وللأسف-، ولم يستطع مسلمو الصدر الأوّل أن يواصلوه فى المجتمع الإسلامى، حتى جدّده بعد مضى أربعة عشر قرناً فى مجتمعنا الإيرانى رجل من السلالة الطيبة لإبراهيم (عليه السلام) ومحمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وإننا نسأل الله تعالى أن يوفقنا لأداء الحج بالشكل الذى رسم لنا معالمه الإمامُ العزيز.

عبّر الامام عن الحجِّ الحقيقى بالحجِّ الإبراهيمى تارة وبالحج الإبراهيمى- المحمدى تارةً أُخرى، فى قابل الحج غير الإبراهيمى.

وانسب ما يمكن أن نصف به هذا النوع الثانى من الحج فى هذه البرهة من تاريخ الإسلام هو الحج الأمريكى، ذلك أنّ أنصار الإسلام الأمريكى هم الذين يحثّون عليه، إذ لا يتضمن إلّا شكلًا ظاهرياً للمناسك، دون أن ينطوى على محتوى مفيد، بل إنه يضر الإسلام والمجتمع الاسلامى لانه يوجّه فى خدمة أهداف أعداء الإسلام وأعداء الحج الإبراهيمى.

يعتقد الإمام الراحل أن الحجَّ الابراهيمى يختلف جذرياً عن الحج الامريكى، من الناحية الفلسفية ومن ناحية المحتوى، ومن ناحية الحجاج والقائمين على أُمور الحج أيضاً.

فما هى فلسفة الحج عند الإمام؟ وماذا يجب أن يكون عليه محتوى الحج؟ وكيف يجب أن يكون عليه تفكير القائمين على شؤون الحج وسلوكهم العملى؟ وكيف يجب أن يعمل الحجاج ببيت الله الحرام لو أرادوا أداء الحج بصورته الحقيقية الإبراهيمية؟

۱- ۱ ابراهيم: ۳۵.

ص: ۲۷

استخلصتُ رؤية الإمام فى هذه المواضيع من نداءاته وخطبه وبياناته التى كان يصدرها فى هذه المناسبة، سأبينها لحضراتكم، وأوصى جميع الحجاج، ولا سيما الاخوة علماء الدين بمطالعة نداءات الإمام وبياناته بهذا الخصوص والتى طبعت فى مجلدين.

فلسفة الحج الامريكى:

تتلخص فلسفة الحج الامريكى فى كونه زيارة ترفيهية سياحية ليس الّا، وعلى حدّ تعبير الإمام فان الحج الامريكى لا يخرج عن كونه سفراً ترفيهياً لمشاهدة القبلة والمدينة وتكرار سلسلة من الألفاظ المفرغة من معناها، وأداء سلسلة من الحركات الخالية من المضمون، والحاج لا يعلم لِمَ يطوف حول الكعبة، ولِمَ يسعى بين الصفا والمروة؟

لا يعى لِمَ يُحرمُ؟ وما هى فلسفة رمى الجمرات وتقديم الأُضحية؟

وليست هناك أية علاقة بين الحج الأمريكى وبين البحث عن جواب للأسئلة: ((كيف تكون الحياة، وما هى طريقة الجهاد، وكيف يمكن الوقوف بوجه العالم الرأسمالى؟)) (۱).

ولا علاقة- فى منظار الحج الأمريكى- بين الحج وبين كيفية استيفاء مسلمى العالم ومحرومية لحقوقهم وسحبها من الظالمين والقراصنة (۲).

ولا علاقة بين الحج وبين وجوب أن يُطرح المسلمون فى العالم كقوة عظيمة (۳).

ولا علاقة بين الحج وبين طريقة تعامل المسلمين مع الأنظمة العملية (۴).

هذا هو تفسير الإمام للحج الأمريكى.

كما انّه لا علاقة بين الحج الامريكى وبين أن يتابع الحاج معاناة المسلمين الفلسطينين على يد الكيان الغاصب للقدس.

ولا علاقة بين الحج الامريكى وبين أهم قضية يشهدها العالم الإسلامى حاضراً فى التحركات المشبوهة لقادة الدول الإسلاميّة الرامية إلى إقامة العلاقات مع الكيان المحتل للقدس وتسويغ ما تسمى بمؤتمرات السلام.

حيث يتعرض المسلمون الفلسطينيون واللبنانيون هذه الأيام لأشدّ الضغوط.

وأيضاً لا علاقة بين الحج وبين ما يعانيه المسلمون والمحرومون فى أفريقيا وأفغانستان.. هذا هو الحج الامريكى.

فلسفة الحج الإبراهيمى:

بيّن الإمام العزيز فلسفة الحج الابراهيمى بشكل جميل جذاب، وهذه مقتبسات من عبارات هذا الرجل الجليل فى تبيين فلسفة الحج الابراهيمى: فالحج من وجهة نظر الإمام ((تَجَلّ وتكرار لجميع مشاهد إبداع الحب فى حياة الإنسان والمجتمع المتكامل فى الدنيا)) (۵). وهذه أجمع جملة وأفضل تعبير يمكن أن نوضح فيه فلسفة الحج الإبراهيمى، ذلك أن الحج هو تجلّ لكل مشهد من مشاهد هذا الإبداع، تجلّ للجهاد والايثار والتضحية والشجاعة والشهامة والوحدة والذكر والارتباط بالله ولقاءالله و...

والهدف من الحج بنظر الإمام هو اقتراب الانسان منصاحب البيت والاتصال به، وليس الحج مجرد حركات وأعمال وألفاظ... وليس مجرد النظر إلى بعض الاحجار ومشاهدة البيت. دققوا فى عبارات الإمام حينما يقول: ((إنّ فلسفة الحج هى رؤيةصاحب البيت، ولابُدّ من أن توجّه الحركات والأعمال التى تؤدى هناك فى هذا السبيل)).

۱- ۲ بيام استقامت نداء الاستقامة: ۷.

۲- ۳ ما للحج ولأخذ حقوق المسلمين والمحرومين من الظالمين. بيام استقامت: ۷.

۳- ۴ ما للحج واستعراض المسلمين لانفسهم كقوة عظمى تمثل القوة الثالثة فى العالم. بيام استقامت: ۷.

۴- ۵ ما للحج وثورة المسلمين ضد الانظمة العميلة. بيام استقامت: ۷.

۵- ۶ بيام استقامت: ۸.

ص: ۲۸

((إنّ مناسك الحج هى مناسك الحياة، وعلى الأُمّة الإسلاميّة بمختلف قومياتها أن تصبح إبراهيمية لتلتحق بركب أُمة محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وتكون واحدة ويداً واحدة)) (۱).

فالحجّ تنظيم وتمرين وبلورة للحياة التوحيدية.

يرى الإمام أن ((الحج يمثل مركز المعارف والإلهية الذى ينبغى أن يؤخذ منه محتوى السياسة الإسلاميّة فى جميع الأبعاد الحياتية)).

لهذا يمكن أن تُستخرج سياسة الإسلام بجميع أبعادها من الحج كما يقول الامام.

ولقائد الثورة العزيز الذى يواصل بحق نهج الإمام قولًا مماثلًا فى حُكمه لى إذ يقول: ((إنّ فريضة حج بيت الله هى من جملة الفرائض النادرة التى ادرجت فيها أبعاد متعددة ومتنوعة ترتبط بالحياة الفردية والسلوك الجمعى بشكل عظيم وذات تأثير عميق فى الجسم والنفس الفكر وفى السلوك الآدمى، وتهبه، لو أدّاها بالشكل الصحيح، توفيقات كبيرة فى جميع الميادين المادية والمعنوية)).

ومن مهمّات فلسفة الحج أيضاً فى روءى الإمام بُعده السياسى، حيث يقول: ((البعد السياسى للحج لا يقل أهمية عن بعده العبادى، ففى البعد السياسى عبادة فضلًا عن الجانب السياسى)) (۲).

إنّ من فلسفة الحج أن يلبيصرخات الظلامة المنطقة من فلسطين وأفريقيا وأفغانستان، بل يستجيب لكل المظلومين والمستضعفين فى العالم، لأن الحج ((قيام)): جَعَلَ اللهُ الكَعبةَ البيتَ الحَرامَ قياماً لِلنّاس... (۳).

ف- ((البيت الذى أُسس للقيام. وهذا القيام للناس لا بُدّ من الاجتماع فيه لهذا الهدف الكبير، وتعيين منافع الناس فى تلك المواقف الشريفة)) (۴). هذا هو تقييم الإمام ونظرته إلى الحج، وليست منافع الناس أن يذهبوا هناك ويجلبوا البضائع، ويبتاعوا السلع الامريكية التى حرّمها الإمام، وفى توضيحه للآية الكريمة: ليشهدوا منافع لهم التى يبين فيها القرآن فلسفة الحج، يقول الإمام:

((أى نفع أعلى وأسمى من أن تقطع أيدى جبابرة العالم والجائرين من التسلط على البلدان المظلومة، وتصبح ثرواتها العظيمة بأيدى أبنائها)) (۵).

أجل، هذا هو النفع الأكبر، وعلى حجاج بيت الله أن يأخذوا العبر من هذه الآية فى معرفة فلسفة الحج.

ويقول الإمام عن الآية: وَ طَهِّرْبَيْتِى للطّائِفينَ والقائِمينَ (۶): ليس المقصود التطهير من النجاسات الظاهرية وحسب، فبيت الله يجب أن يطهر ليس فقط من النجاسات الظاهرية، وإنما من الأرجاس المعنوية أيضاً التى يفوق ضررها وخطرها على المجتمع ضرر وخطر أى شىء آخر. الحج الابراهيمى هو ذلك الحج الذى يقام لتطهير بيت الله من النجاسات الظاهرية والباطنية، يقول الامام: ((المراد التطهير من جميع الأرجاس، وعلى رأسها الشرك، الأمر الذى بيّنهصدر الآية الكريمة)) (۷). وَاذْ بَوَّأْنا لإبراهيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أنْ لا تُشْرِكْ بى شَيْئاً وَطَهّر بَيْتِىَ....

ويرى الإمام أنّ من أهداف الحج ((إيجاد التفاهم وتعزيز أواصر الوحدة الاسلامية)): ((من مهمات فلسفة الحج إيجاد التفاهم، وتعزيز الاخوّة بين المسلمين، وعلى العلماء والخطباء طرح المسائل الأساسية والسياسية والاجتماعية مع إخوتهم فى الدين وتهيئة مشاريع لحلها، ليطرحوها بدورهم على العلماء وأصحاب الرأى لدى عودتهم إلى بلدانهم)).

۱- ۷ نفس المصدر.

۲- ۸صحيفه نور ۶۷: ۱۸.

۳- ۹ المائدة: ۹۷.

۴- ۱۰صحيفه نور: ۴۳: ۱۹.

۵- ۱۱صحيفه نور: ۴۳: ۱۹.

۶- ۱۲ الحج: ۲۶.

۷- ۱۳صحيفه نور: ۸۷: ۱۸.

ص: ۲۹

وأخيراً فان الحج بنظر الإمام ((بمستوى القرآن يستفيد منه الجميع، لكنّ المفكرين والخائضين غمراته والمتحسسين لآلام الأُمّة الإسلاميّة لو خاضوا لحج معارفه ولم يخشوا الاقتراب منه والغوص فى أحكامه وسياساته الاجتماعية لاصطادوا منصدف هذا البحر كمية أعظم، من جواهر الهداية والرشد والحكمة والانعتاق، ولارتووا وإلى الأبد من زلال حكمته ومعرفته)) (۱).صلى الله على روحك وبدنك يا إمام، فهل هناك أجمل واشمل وأدق من هذه العبارات عن فلسفة الحج؟

يضيف الإمام: ((ولكن ما العمل؟ وإلامَ تشكو هذا الغم الكبير؟ فقد أصبح الحج كما القرآن مهجوراً)).

((ليس حجاً هو الحج الخالى من الروح والحركة والقيام والبراءة والوحدة، والحج العاجز عن هدمصروح الكفر والشرك)).

أيها الأعزاء، يمكنكم أن تزيلوا هذا الغم عن روح الإمام الطاهرة،صحيح انّه رحل عنّا، بيد أن رسالته تُثقل كواهلنا فرداً فرداً.

وقد لخّص الإمام الباقر (عليه السلام) جدّ إمامنا هذا الكلام فى عبارة واحدة وقال: فى تلك الأيام العصيبة التى كلكل فيها ظلّ السلطة الجائرة على العالم الإسلامىّ: ((إنما امر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم)) (۲).

يُريد الإمام الباقر (عليه السلام) أن يبين لنا من خلال استعماله لتعبير الأحجار أنّ الحج المجرد من الفلسفة الإبراهيمية للحج لا يعدو كونه طوافاً بالأحجار.

يقول الإمام الخمينى: ((التكليف الإلهى للحجاج فى هذه البرهة الزمنية أن ينكروا كلّ موضوع يُشم منه رائحة الاختلاف والوقيعة بينصفوف المسلمين. ويعتبروا البراءة من الكفار وقادتهم واجباً من واجباتهم فى المواقف الكريمة، ليكون حجّهم حجّاً ابراهيمياً وحجّاً محمدياً، وإلّا سيصدق عليهم القول المعروف: ما اكثر الضجيج، وأقل الحجيج!)) (۳).

كان هذا جانباً من رؤى إمام الامة وهو يتناول القضايا التى تخص فلسفة الحج وأُسس الحج الإبراهيمى، وعلى قاعدة هذه الفلسفة والأُسس يختلف محتوى الحج بدوره، كما يختلف الحجاج والقائمون على شؤون الحج.

وقبل أن أختم هذا الحديث، أتطرق باختصار إلى محتوى الحج الذى يختلف فى الحج الابراهيمى عن غير الإبراهيمى فى كلّ مناسكه من التلبية إلى الرمى، إذ يرى الامام أنّ كلّ أعمال الحج وحركاته وسكناته تنطوى على محتوى حيوى تربوى محرك خاص، وحينما يقول الحاج: ((لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...)) لا يكون قولهصادقاً وحقيقياً إلّا حينما يصغى من أعماقه لنداء الحق ويستجيب لدعوة الله تعالى.

فالمسألة هنا مسألة الحضور فى المحضر، ولا يستطيع أن يقول لبيك إلّا من يحس بهذا الحضور، فإنكم وأنتم فى غرفة مغلقة الأبواب لا يوجد فيها غيركم لا تقولون ((نعم))، إنّما تتفوّهون بهذه الكلمة حينما يوجد من يناديكم، فتشهدون وتسمعونصوته ودعوته، فالمسألة هى مسألة الحضور فى المحضر ومشاهدة جمال المحبوب، وكأن الملبى فى هذا المحضر قد خرج عن حالته الطبيعية. وتخلى عن ذاته.

إلهى، هل لنا أن ندرك ولو للحظة واحدة المعنى الحقيقى للحج والمعنى الحقيقى للإحرام ومفهوم التلبية؟

۱- ۱۴ بيام استقامت: ۸.

۲- ۱۵ بحار الأنوار ۳۷۴: ۹۹ ط. بيروت.

۳- ۱۶صحيفه نور: ۴۶: ۱۹.

ص: ۳۰

يصور الإمام العزيز هـذه الحالـة بشـكل يبـدو أن الملبى فى محضـر الله يخرج عن وضـعه الطبيعى ويكرر التلبية ثمّ ينزهه عن الشـريك بـالمعنى المطلق، أى: اللهمّ إنى لا أُشـرك بك مطلقاً، وأبرأ من كل الطواغيت الكبار والصـغار، ولا اسـتجيب الا لك، كما قال الامام الصادق عليه السلام فى الحديث المروى عنه:

((وأحرم عن كلّ شىء يمنعك من ذكر الله، ويحجبك عن طاعته. كلّ ما اشَغَلَك عَنِ اللهِ هوَ صَنَمُك)).

أحرِم عن كـل مـا يبعـدك عن محضـر الله، ويجعلك غافلًا عن ذكره، ويحجبك عن طاعته، وحرّمه على نفسك، وحينما تلبى ((لبِّ (۱)تلبيةً صادقـة، خالصـة، زاكيـة لله- عزّ وجـلّ- فى دعوتك متمسـكاً بالعروة الوثقى)). وحينما تتمسك بالعروة الولايـة الوثقى- وهى الوجهة السياسية الأساسية للحج. قل ((لبيك)) بإخلاص وصدق، وقل: اللّهم أتيت لأقول لك ((لبيك)) ولغيرك ((لا)).

اللهم أفِدْنا من الحج كما يفهمه أولياؤك وينتفعون منه.

اللهم وفّقنا لأداء الحج كما جسّده لنا الامام العزيز الذى نقف الآن فى محضره وتشهدنا وتحيطنا روحه الطاهرة.

اللهمصِلْ ثورتنا بثورة الإمام المهدى (عجل الله تعالى فرجه) العالمية، وسدّد قائد الثورة آية الله الخامنئى واكتب له النصر المبين.

الحج الابراهيمى والحج الجاهلى

۱- ۱۷ بمعنى أجِبْ.

ص: ۳۱

الحج الإبراهيمى والحج الجاهلى

تأليف:صادق آئينه وند

لآلِ رَسُولِ الله بِالخَيْفِ مِنْ مِنى وَبِالرُّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالْجَمَراتِ

دِيارُ عليّ والحُسَيْنِ وَ جَعْفَرٍ وَحَمْزَةَ وَالسَّجاد ذى الثّفناتِ

وَسِبْطَيْ رَسُولِ اللهِ وَابْنَى وَصِيّهِ وَوَارِثِ عِلْمِ اللهِ وَالْحَسَناتِ " دعبل بن على الخزاعى"

المقدمة:

إنّ أُصول الحج الإبراهيمى: هى تلك التى شرّعها الدين المبين، ومن الصعب الوصول عبر النصوص والوثائق الباقية- باستثناء القرآن الكريم- إلى شيءٍ يمكنه رسم حقيقة تلك الأصول. ولكن فى ضوء تعدد التفاسير، التى تقدمها المذاهب الاسلامية حول أداء الحجّ وفق نهج إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وكما يدعو إليه الدين المبين، وبالتحديد ما يتعلّق بالنواحى السياسية والاجتماعية والتولّى والتبرّى، نجد من المناسب البحث فيما وصل إلينا عن شعائر الحج الابراهيمى ومناسكه، خصوصاً وان هذه التفاسير لم تكن بمنأى عن التأثر بتقادم الأزمنة وهيمنة الأمويين والعباسيين، والأجواء السياسية والاجتماعية التى ترتبت على سلطة كلّ منهما، علاوة على انحياز بعض العلماء والفقهاء الذين عدوّا أنفسهم مرتبطين بجهاز الحكم إبّان العهدين الاموى والعباسى.

إنّ ما يمكنه تفصيل الحجّ الابراهيمى، ونفخ الروح والمحتوى فيه، هو المضامين والمناسك، التى يجب دائماً التمسك بها واللجوء إليها، وبالحضور الدينى بالحج تحقيقصدور رؤية إبراهيم الخليل (عليه السلام) ومحمّد الحبيب (صلّى الله عليه وآله وسلّم). وإلّا فانّ التمسك الظاهرى فى إقامة المراسم والمواسم يذكّر بالحجّ السهل الذى ادّاه أبوسفيان أيضاً. لأنّ الحجّ بالمعنى العامّ لا يختصّ به الاسلام، إنّ ما أمر به الاسلام وأصرّ عليه، هو الحجّ الابراهيمى من بين الحجّ الجاهلى والحجّ الحنيفى والحجّ الصابئى.

حجّ إبراهيم (عليه السلام):

"والشائع فى الأخبار والروايات والعربية القديمة أن الحجّ، على زمن إبراهيم عليه السلام، كان يعنى قَصْدَ كعبة مكّة والطَّوافَ بالبيت والتلبيةَ وقضاءَ بقية المناسك، ثم جاءت الوثنية بأصنامها وبيوتها وعباداتها فصار الحجُّ يشملها أيضاً (۱).

وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكْ بى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتى لِلطَّآئِفينَ وَالْقَآئِمينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَأَذِّنْ فى النّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلى كُلّ ضَامِرٍ يأْتِينَ مِنْ كُلّ فَجّ عَمِيقٍ (۲).

"أنّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) هما اللّذان بنيا الكعبة بيت عبادة لله، وأنّ حرمة الكعبة ومنطقة مكّة وتقاليد الحجّ وطقوسه المتنوعة فى هذه المنطقة من سنن إبراهيم "(۳).

وقد إخذ الإقوام الآخرون- الذين عاشوا بألف سنة قبل ميلاد المسيح (عليه السلام)- بهذه السُّنة؛ فكانوا يراعون حرمة مكة والحرم.

يخمّن خبراء الكتاب المقدّس (العهد القديم والجديد) والمتخصّصون فى الأديان، أنّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) عاشا نحو ألفى عام قبل الميلاد، وبذلك يكون قد مضى نحو ۴۰ قرناً على الظهور الحديث للكعبة بالبناء الإبراهيمى.

۱- ۱ الوثنية فى الأدبَ الجاهل، الدكتور عبد الغنى زيتونى: ۲۷۳.

۲- ۲ الحج: ۲۶- ۲۷.

۳- ۳ تاريخ العرب قبل العروبة الصّريحة فى جزيرة العرب، محمّد عزة دروزة: ۱۱۵- ۱۱۶.

ص: ۳۲

وعندما تحدّث ديو دورس سيسيلى yliciS fO surodoiD الـذى عـاش فى القرن الأول قبل الميلاد، عن الأنْبَاط، أشار إلى الكعبة بقوله ":إنّه مكان مقدّس له حرمة وشهرة بين جميع العرب، هو مكّة "(۱).

يعتقـد بعض الباحثين، أنّ مفردة "مَكُورابا (("abarocaM والتى تلفظ فى اليونانيـة "مقوروبا "ثالتى أراد بها اليونانيون اسم مدينة، وتعنى مكان التقرّب لله، تعنى مكة. معلوم أنّ كلمة "مَكْرُب "هى مفردة دينية قديمة استعملت قبل ألف عام من تأسيس حكومة السبأ.

وقد أشار بَطْلَميوس ((ymelotp الفلكى والجغرافى الذى عاش فى القرن الثانى للميلاد إلى هذه المفردة (۲).

على هـذا الأساس يمكن القول: إنّ مفردة "مكـة "تمثّلصـفةً ونعتاً لبيت الله ولا تعنى اسـماً خاصاً. لكنّها أثر الاسـتعمال والشـهرة حلّت مكان الاسم، مثل القدس إذ حلّت الصـفة محلّ اسم العلم. وكلمة "بكّة "تعادل "مكّة، "فحسب رأى الدكتور جواد على أنّ الكلمتين تملثان تسميةً واحدةً، ففى لهجات القبائل تأتى الباء بدل الميم بالقلب والابدال، وبخاصّة فى لهجات جنوب الجزيرة العربية (۳).

يرى بعض المحققين أنّ مفردة "بكّة "تعنى الوادى.

إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكّة مباركاً وهُدى للعالمين.

جاء فى القاموس ":بكّةُ "تقال لمكّة، أو لما بين جبليها؛ نرى أنّ مفردة "بَكْ "سامية قديمة، وكلمة "بُقعاه "عبرية وتعنى الوادى، وقد أُطلقت على الوادى الواقع بين لبنان الساحلى ولبنان الشرقى والذى أسماه الروم سورية المنخفضة.

"وإنّ مدينـة بعلبـك مشـهورة، وهى من الكلمـات المركبـة تركيباً مزجياً من "بعل ["إله قـديم] و "بك ["الوادى] ومعنى بعلبك إله الوادى "(۴): وهو نفس الاسم الـذى أُطلق على هـذه المدينـة تيمّناً بآلهـة الساميين المعروفـة ويُطلق اليوم على هذا الوادى اسم البقاع، والذى يمرّ نهر الليطانى عبره.

أطلق القرآن الكريم على مكّة اسم "امّ القرى "(۵)و "قرية "(۶)، قارنها بالطائف: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم (۷).

وقد ذكر أغلب المفسرين أنّ المراد من القريتين هما مكّة والطائف (۸).

وقال المسعودى فى مروج الذهب ":وقد كان إبراهيم قدم إلى مكّة ولإسماعيل ثلاثون سنة حين أمره ببناء البيت "(۹).

إنّ ما يسترعى الاهتمام من الناحية التاريخية، هو ما نقله مينغانا ((anagniM عن راهب سُريانى يدعى نَرْسَىْ ((iasraN بشأن نزاع أولاد هاجر فى (بيت عربايه) فى الحدود الشاميه، وهذا الخبر يمثل أوّل نقل عن شـخص من أهل الكتاب (تُوفّى فى سنة ۴۸۵ للميلاد) أفاد فيه بوجود قريش فى شـمال الجزيرة، وهو يتطابق مع ما أورده النّسابون والْأَخباريون العرب، فى إرجاع نسب قريش إلى إسـماعيل (عليه السلام) (۱۰).

جاء فى الآيات (۱۴۰- ۱۵۰) من سورة البقرة المباركة والتى استنكرت دسائس اليهود بين المسلمين بشأن تغيير القبلة من القدس إلى الكعبة، قوله تعالى: وان الذين أُتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم وما الله بغافل عمّا يعملون (۱۱).

وفيه إشارة قبل كلّ شـىء إلى علم اليهود بأفضـلية الكعبـة وأقـدميتها، كقبلـة. ممّا يعنى أنّهم كانوا يقرون قبل ظهور الاسـلام بفضائلها وسوابقها واتصالها بابراهيم (عليه السلام) وقد حدّثوا العرب بذلك.

لم يسجّل التاريخ ما يقود إلى اليقين فى الحجّ الابراهيمى الصحيح غير ما علّمه القرآن الكريم.

والحجّ الحنيفى الذى يدّعى محاكاة حجّ ابراهيم (عليه السلام) فعلاوة على أنّه جُعل ليقابل حجّ المشركين وعُمل به فى أجواء الشرك الجاهلى، فهو غير واضح، كما أنّ شبهة الشرك تكتنفه فى بعض الحالات.

۱- ۴ ۱۰۵ .htooB, eht lacirotsih eht yrarbil fo surodoid eht nailicis P

۲- ۵ تاریخ العرب فی الاسلام: ۴۵- ۴۷.

۳- ۶ نفس المصدر: ۴۷- ۴۸.

۴- ۷ تاریخ الجاهلیة، الدکتور عمر فرّوخ: ۱۰۹.

۵- ۸ الشوری: ۷.

۶- ۹ محمّد: ۱۳.

۷- ۱۰ الزخرف: ۳۱.

۸- ۱۱ ۵۱۱ .cycnE. aideapol fo noigiler dna ,scihte yb gnitsaH loV .۸, P

۹- ۱۲ مروج الذهب ۱۶۴: ۲.

۱۰- ۱۳ تاریخ العرب فی الاسلام: ۴۸- ۴۹.

۱۱- ۱۴ القبرة: ۱۴۴.

ص: ۳۳

فى عقيدتنا أنّ الحجّ الابراهيمى هو حجّ الاسلام، إلّا أنّ قيمة هذا الحجّ ومكانته تُدرَك عندما نتعرّف على الحجّ الجاهلى وحجّ المشركين، ونجرى مقارنة بينهما، كى لا- تتحرك- والعياذ بالله- تلك الرواسب الباقية فى أذهان المسلمين، وتطرح مقابل الحجّ الابراهيمى الذى أمر به القائد الكبير للثورة ومؤسّس الجمهورية الاسلامية فى إيران سماحة الامام الخمينى- قدّسنا الله بسره العزيز- وأُقيم للمرة الْأُلى فى هذا العصر.

لم يتّفق المؤرّخون السابقون على رأى واحد بشأن دخول الشرك وانتشاره فى الجزيرة العربية، فبعضهم مثل هشام الكلبى رأى فى كتاب "الأصنام ":"أنّ إسماعيل بن إبراهيم (صلّى اللهُ عليهما) لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرٌ حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهُم بعضاً، فتفسَّحوا فى البلاد لالتماس المعاش.

وكان الذى سَلَخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنّه كان لا يظعنُ من مكة ظاعنٌ إلّا احتمل معه حَجَراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابةً لمكّة "(۱).

وقد أدّى هذا العمل على المدى الطويل إلى نشوءصناعة الأصنام، وعبادتها وبالتالى ساد الشرك الجزيرة.

وكانوا فى ديار الغربة يدورون حول هذه الأصنام، ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة. إلّا أنّ هشام يضيف قائلًا ":وهم بعدُ يعظمون الكعبة ومكّة، ويحجّون ويعتمرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام ")(۲).

وفى الأسباب الكامنة وراء الميل نحو الشرك وتغلّبه على دين إبراهيم، رأى هشام أنّها تتمثّل فى توغّلهم واهتمامهم الشديد بالأصنام، موضّحاً أنّه رغم كلّ ذلك كانت ثمّة بقايا مناسك من عهد إبراهيم و إسماعيل (عليهما السلام) قام أهل الجاهلية بأدائها بعد أن مزجوها بتقاليد الشرك، فبدأ الحجّ الجاهلى بمعناه الدقيق من ذلك الحين:

"وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) يتنسّكون بها: من تعظيم البيت، والطواف به، والحجّ، والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن، والإهلال بالحجّ والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه "(۳).

مناسك الحجّ فى الجاهلية:

كان الحجّ فى الجاهلية يبدأ من اليوم التاسع من شهر ذى الحجّة، عندما تشارف الشمس على الغروب، وقبله يجتمع الناس لأغراض التجارة فى سوق عكاظ خلال شهر ذى القعده لمدة عشرين يوماً، يتوجّهون بعد انقضائها إلى سوق المَجنّة حيث يمكثون فيه حتى نهاية الشهر وهم يمارسون معاملاتهم التجارية، وإذ هلّ هلال ذى الحجّه انطلقوا إلى ذى المجاز ليواصلوا فيه البيع والشراء على مدى ثمانية أيام، وفى اليوم التاسع ينادى المنادى فيهم ":تروّوا بالماءِ لأنّه لا ماءَ بعرفة ولا بمزدلفة."

وبهذه المناسبة سُمى هذا اليوم بيوم التروية، وهو اليوم الذى ينتهى فيه موسم أسواق الحجّ الجاهلى (۴).

فى اليوم التاسع من ذى الحجّة يصل الحجاج إلى عرفة، ويرتدون اللباس الخاصّ بالحج كما أورد الجاحظ ":كانت سيماء أهل الحَرَم إذا خرجوا إلى الحِلّ فى غير الأشهر الحرم، أن يتقلّدوا القلائد ويُعلّقوا عليهم العلائق، فإذا أَوْ ذَمَ أحدهم الحجّ، تزيّا بزىّ الحاج "(۵).

۱- ۱۵ كتاب الاصنام، ابو منذر هشام بن محمّد الكلبى: ۶.

۲- ۱۶ نفس المصدر.

۳- ۱۷ نفس المصدر.

۴- ۱۸ الوثنية فى الادب الجاهلى: ۲۸۲- ۲۸۴ واسواق العرب فى الجاهلية والاسلام، سعيد الافغانى: ۲۴۹- ۲۵۰.

۵- ۱۹ البيان والتبيين، الجاحظ ۹۵: ۳.

ص: ۳۴

ويقومون بالتلبيد قبل ذهابهم إلى المواقف. والتلبيد عبارة عن وضع الحاجّ مزيجاً من الخطمى والآس والسدر ومادةصمغية على شعر رأسه وذلك للحيلولة دون تسريحه ودون قتل القمل، وقد وصف امية بن أبى الصلت الحجاج الذين لتبدوا بقوله:

شاحِينَ آباطَهُم لَمْ يَنْزِعوا تَفَثاً ولَم يَسُلُّوا لَهُم قُمْلًا وصِنْباناً (۱) المواقف:

الموقف الأوّل، هو عرفة كما ذكرنا إذ يصلونه فى اليوم التاسع من ذى الحجة.

وقد ذكروا وجوهاً مختلفة بشأن اسم "عرفة "منها.

أنّ جبرئيل كان يطوّف إبراهيم فى المشاعر، ويعلّمه المواضع وهو يقول: عَرَفتُ، ومنها أنّ آدم وحواء بعد الهبوط عرف أحدهما الآخر فى هذا المكان، ومنها أنّ الناس يتعارفون فى هذا الموضع (۲).

قال ياقوت ":وقيل: بل سمّى بالصّبر على ما يكابدون فى الوصول إليها، لأن العرف الصبر؛ ويقال: إنّ الناس يعترفون بذنوبهم فى ذلك الموقف "(۳).

"ويقارن هوتسما ((amsetuoH الوقوف بعرفات بوقوف اليهود على جبل سيناء، حيث كان يتجلّى معبودهم بالبرق والرَّعد، وان كنّا لا ندرى شيئاًعن إله عرفات، ولربّما كان نفسه إله المزدلفة "قُزح ["إله البرق والعواصف والرّعد والغيث] الذى عبده الأدوميون من قبل ولم يبق من ظواهر عبادته بين الجاهلين إلا إشعال نيرانه بمزدلفة ".(۴).

وكان لكلّ قبيلة موقف خاص بها فى عرفة، ولم يبق الآن إلّا أسماء بعضها، لأنّ وحدةصفوف الحجاج فى الاسلام دون تمايز، أدّت الى اندثار أسماء تلك المواقف.

من المواقف الخاصّة التى ما زالت باقية موقف نَفْعَة الخاصّ بقبيلة ربيعة والذى ورد فى شعر لعمرو بن قَمِيئَةٌ:

و منزلةٍ بالحجّ أُخرى عَرَفْتُها لها نَفْعَةٌ لا يُستطاع بروحُها (۵) كانت قريش وكذلك أهل مكّة يرون أنفسهم أفضل من غيرهم من العرب، فيختارون موقفهم بالقرب من مكان الأضاحى فى مزدلفة فى موضع اسمه نَمِرة.

وكانوا يعظمون جبل "إلال "فى عرفة ويقسمون به، وقد ذكر فى شعر النابغة فى عدّة أماكن، كذلك أورده طُفيل الغنوى فى شعره بقوله:

يَزُرْنَ إلالًا لا يُنَصِّبْنَ غيره بكلِّ ملَبٍ أشعثِ الرأس مُحرمِ (۶) وكانوا يطلقون على الانتقال السريع من عرفة إلى مزدلفة تسمية الإفاضة أو الإجازة، وكان هناك أشخاص يتقدّمونهم ليهدوهم السبيل.

وروى ابن هشام فى سيرته "كان الغوث بن مُرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر يلى الإجازة للنّاس بالحجّ من عرفة، وولده من بعده؛ وكان يقال له ولدهصُوفَة "(۷).

وفى وجه التسمية قالوا: إنّ أُمّة عندما ربطه بالكعبة وضعت عليه قطعة من الصوف.

وممّا رُوى عن ابن عباس فى الحجّ الإبراهيمى، أنّ النبى (صلّى الله عليه وآله وسلّم) منع من الحركة السريعة وأمر بالسكينة إذ قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم "):أيها الناسُ، عليكم بالسكينة، فإنّ البرّ ليس بالإيضاع "(۸).

۱- ۲۰ ديوان امية بن أبى الصلت: الدكتور عبد الحفيظ السطلى: ۵۱۸.

۲- ۲۱ فى طريق الميثولوجيا عند العرب، محمّد سليم الحوت: ۱۵۰.

۳- ۲۲ معجم البلدان ۱۱۷: ۴.

۴- ۲۳ ۳۲. P. ۳, lov malsi fo aideapol cycnE

۵- ۲۴ الوثنیة فی الادب العربی: ۲۸۷.

۶- ۲۵ نفس المصدر: ۲۸۹.

۷- ۲۶ السیرة النبویة لابن هشام ۱۱۹: ۱.

۸- ۲۷صحیح البخاری ۲۰۱: ۴.

ص: ۳۵

وكما نقل الأزرقى، فان أول من أسعل النار فوق جبل قُزَح كان قصى ابن كلاب، حيث استمر هذا الأمر حتّى ظهور الاسلام، ولعلّ الهدف من اضرام النيران هناك هو إرشاد الحجاج، إذ كان من الممكن أن يحلّ الظلام قبل أن يصلوا إلى المزدلفة (۱).

وكان الجميع يجتمعون فى المزدلفة الواقعة بين عرفات ومنى، حتى قريش والمكّيون كانوا ينضمّون إلى المجتمعين، وكانوا يمضون الليل بالدعاء والتلبية بانتظار طلوع الشمس، وكان البعض لجعلته يخاطب جبل ثبير الذى تشرق الشمس من خلفه بقوله ":أشْرِقْ ثبير، كيما نُغير."

وتكون الافاضة فى الحجّ الابراهيمى من عرفة بعد الغروب، ومن مزدلفة قبل طلوع الشمس، خلافاً الحجّ المشركين.

وقد أشار أبو ذُؤيب الهُذلى إلى مبيت المشركين فى مزدلفة، وانتقالهم منها إلى منى فى شعرٍ له وصف به حاجّاً مشركاً أدّى أعماله متعجّلًا ليشترى العسل، إذ قال:

فَباتَ بجمعٍ ثم تمّ إلى منىً فأصبح رادّاً يبتغى المزج بالسِّحل (۲) إنّ التاريخ لا يحدّثنا بشىء عن سبب الاسراع فى العبور من مزدلفة إلى محلّ الهدى بمنى، لكنّ بالإمكان الحدس بأنّه كان للحصول على مكان مناسب، أو للتعجيل فى الهدى.

وفى المزدلفة أيضاً كان الصُوفة يقومون بالإضافة، التى كانت تتكفّلها أُسر أُخرى من القبائل أيضاً.

موقف منى:

بعد وصولهم منى ينحر المشركون الهدى، ويستمر ذلك من الصباح حتى الغروب. وكانوا يرمون الحجارة فى مكانين خاصّين هما المُحصَّب والجمار كى لا يمكن لأهل مكة أن يزرعوا شيئاً فيهما، ومعلوم أنّ هذه الأحجار يجب أن تكون كبيرة لتجعل الأرض غيرصالحة للزراعة تماماً، فهى تتفاوت مع الأحجار الصغيرة التى تستعمل فى الحجّ الابراهيمى لرمى الجَمَرات.

يبدو أنّ اهل الجاهلية يخرجون من الإحرام بعد النحر والرمى فى منى، وهذا المفهوم يُستفاد من شعر نقله الجاحظ فى كتاب الحيوان لعبدالله بن العَجْلان.

بعد النحر يتوجّه المشركون إلى الرمى، إلّا أنّ هذا العمل منوط بإجازة الصوفة الذين يتكفّلون أمر الافاضة من عرفة ومزدلفة، وأُولئك لا يرمون حتّى تتقرب الشمس من الغروب (۳).

ثمّة بيت فى كتاب المفَضّليّات عن الشنفرى الشاعر الجاهلى الصعلوك، وردت فيه كلمة الجمار:

قتلنا قتيلًا مُهْدِياً بِمُلَبِّدٍ جمار منىً وسط الحجيج المُصَوِّت (۴) بعد الفراغ من الرمى، يحبسون الحجاج فى العقبة، ولا يسمح لأحد بالحركة حتّى يعبر الصُوفة، الذين بعبورهم يتحرّك الحجاج بعدهم.

وقد بيّن مُرَّة بن خُليف الفهمى، شوق الحجاج للحركة ومنع الصوفة لهم فى هذا البيت من الشعر:

إذا ما أجازتصُوفةُ النَّقبَ مِنْ مِنى ولاحَ قتارٌ فوقَه سَفَعُ الدَّم (۵) تبدأ مراسم الحج، قبل الغروب من اليوم التاسع من ذى الحجة، وبعد عرفة ومزدلفة وإشعال النار فوق جبل قزح، ونحر الهدى ورمى الجمرات، تنتهى عند الغروب، أى إنّهم يكونون قد فرغوا من مراسم الحجّ فى ليل العاشر من ذى الحجّة، يبقى دخول مكة والطواف ثم يعود كلّ فرد إلى وطنه بعد أدائهما.

۱- ۲۸ اخبار مكة ۱۵۴: ۲.

۲- ۲۹ الوثنية فى الادب الجاهلى: ۲۹۳.

۳- ۳۰ السيرة النبوية لابن هشام ۱۲۰: ۱.

۴- ۳۱ المفضليات، الضّبى: ۱۱۱.

۵- ۳۲ معجم الشعراء، المرزبانى: ۲۹۴.

ص: ۳۶

وكانت مراسم الحلق والتقصير تتمّ بعد التلبيد، وحسبما أوردصاحب تاج العروس، فقد كان اليمنيون يضعون على شعرهم الملبد الطحين أو مسحوق الحمص والسُّكر، ثمّ يلحقون، فيتساقط الطحين أو مسحوق الحمص فينتفع به الفقراء (۱).

ولا بُدّ من معرفة أنّ الحلق والتقصير لا يكونان فى منى وحسب، بل وكما قال هشام الكلبى ":كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها يحجّون، فيقفون مع الناس المواقف كلّها، ولا يحلقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوه [مَناة]. فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا ولا يرون لحجّهم، تماماً إلّا بذلك "(۲).

الفوارق والامتيازات:

إذا تمعّنا فى مراسم الحجّ الجاهلى من خلال التاريخ والأدب المدوّنين، وجدنا ثمّة فوارق ناشئة عن شعور بعض القبائل بالفضل على سواها. وتتمثّل هذه الفوارق قبل كلّ شىء فى طريقة أداء حجّ المشركين، الذى فقد طابعه الدينى ووحدته، بسبب تأثير النزعة الاستعلائية للقبائل القوية.

وكان الحجاج فى الجاهلية على ثلاثة أقسام: ۱- الحُمْس. ۲- الحِلّة. ۳- الطُّلْس.

۱- الحُمْس: كان القرشيون يرون لأنفسهم الأفضلية على سائر العرب، ولمجاورتهم مكّة كانوا يقولون ":نحن أهل الحرم، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نعظّم غيرها كما نعظّمها، نحن الحُمْس "(۳).

يتبيّن من هذا المقطع أن امتياز الحُمْس كان مختصّاً بسكّان الحرم من قريش، فقد جاء فى كتاب المحَبَّر أنّ الحُمْس يطلق على " قريش كلّها، وخزاعة لنزولها مكّة، ومجاورتها قريشاً "(۴).

وقد ذُكر وجهان فى المعنى اللغوى لكلمة الحُمْس، إذ ورد أنّ ":الحُمْس جَمع أحْمَس وحَمِسٍ، مِن حَمِسَ: أى، اشتد وصَلُبَ فى الدين والقتال، وقيل: إنّهم لقبوا بذلك لالتجائهم بالحَمْسَاء، وهى الكعبة، لأنّ حَجَرَها أبيض إلى السواد "(۵).

وما أوجده الحُمْس فى الحجّ هو ترك الوقوف فى عرفة والإفاضة منها إلى المزدلفة، فهم فى الوقت الذى يقرّون فيه بهذه المناسك، يقولون: نحن أهل الحرم لا ينبغى لنا الخروج من الحرم وتعظيم غيره؛ وعندما يقف الحجاج فى عرفة، يقفون هم عند أطراف الحرم ثمّ يذهبون ليلًا إلى المزدلفة.

وقد ظلّ هذا الأمر حتّى ظهور الاسلام، إذ ألغته الآية ثم أَفيضُوا من حَيْثُ أفاضَ النّاسُ... (۶).

ومن جملة الأعمال التى كان على قريش القيام بها رعاية للحُمْس هو أنهم ":لم يطبخوا إقطاً، ولم يدّخروا لبناً، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه، ولم يحركوا شعرا ولا ظفرا، ولا يبتنون فى حجّهم شعراً ولا براً ولاصوفاً ولا قطناً، ولا يأكلون لحماً، ولا يمسّون دُهناً، ولا يلبسون إلا جديداً، ولا يطوفون بالبيت إلّا فى حذائهم وثيابهم، ولا يمسّون المسجد بأقدامهم تعظيماً لبقعته، ولا يدخلون البيوت من أبوابها ".(۷).

وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر، ونهى عنه فى الآية وليس البر بأن تأتُوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى، واتوا البيوت من أبوابها.. (۸).

ومن تقاليد الحُمْس الأُخرى قولهم، إنّه لا يليق بغير أهل الحرم أن يتناولوا طعام غير الحرم فى الحرم، بل عليهم إذا جاءوا للحج أو العمرة أن يأكلوا من طعام أهل الحرم إمّا من خلال الضيافة أو الشراء (۹).

۱- ۳۳ تاريخ العروس ۴۸۶: ۳.

۲- ۳۴ کتاب الاصنام: ۱۴.

۳- ۳۵ السیرة النبویة لابن هشام ۱۹۹: ۱.

۴- ۳۶ المحبّر، ابن حبیب: ۱۷۸.

۵- ۳۷ القاموس المحیط، مادة حمس.

۶- ۳۸ البقرة: ۱۹۹.

۷- ۳۹ المحبّر: ۱۸۰ والسیرة النبویة لابن هشام ۲۰۲: ۱.

۸- ۴۰ البقرة: ۱۸۹.

۹- ۴۱ الوثنیة فی الأدب الجاهلی: ۳۰۴- ۳۰۵.

ص: ۳۷

كـذلك كان من الواجب على كلّ من أراد الطواف للمرة الأُولى، أن يطوف بلباس أهل الحرم، أى الحُمْس، وإن لم يجد ذلك طاف عريان (۱).

كـذلك إذا تزوّج رجـل من نسـائهم فإنّ أولاده يكونون من الحُمْس، ولهـذا الأمر بواعث سياسـية واقتصاديـة أيضاً، وقـد تفاخر بعض شعراء الجاهلية بذلك.

۲- الحلّة: وهم قبائـل سـكنوا خـارج الحرم، أى فى الحـلّ، وعرفوا بالحلـة، وكـان الفرق بين أهل الحل وأهل الحرم فى أن أهل الحل كانوا فى ايام الحج يذيبون السمن، ويأكلون الإقط واللحم، ويضعون الزيت على أجسامهم، ويلبسون من الصوف والشعر، ويقيمون فى الخيام، ويؤدّون المناسك بثيابهم، وبعـد الفراغ وعندما يدخلون الكعبة يتصدّقون بنعلهم وثيابهم، ويسـتأجرون للطواف الثياب من أهل الحُمْس (۲).

۳- الطُلْس: قيـل إنّهم اليمنيون من أهـل حضـرموت وعـكّ وعجيب وإيـاد بن نزار، والوجه فى تسـميتهم هو مجيئهم من مناطق بعيـدة وبالتالى طوافهم بالبيت وقد غطاهم الغبار (۳). وكان هؤلاء يماثلون الحلة فى الإحرام، والحُمْس فى ارتداء الثياب ودخول البيت (۴).

العُمْرة:

يأتى أهل الجاهليـة من الحُمْس والحلـة والطُلْس إلى الكعبـة لغير الحجّ أيضاً وذلك لأداء العمرة، وكانوا يمتنعون عن التلبيد ويحلقون سلفاً خلافاً لما كانوا يفعلونه فى الحجّ، ويعدون أداء العمرة فى أشهر الحجّ، ذى القعدة وذى الحجة ومحرم، من الذنوب التى لا تغتفر، فهم يقولون:

"إذا برأ الدبُر وعفا الوَبَر، ودَخَلصفر، حلَّت العمرة لمن اعتمر "(۵).

ولا فرق بين العمرة والحج من حيث الاحرام والطواف، بيد أنها لا تتضمّن الوقوف فى عرفة والمزدلفة ومنى، ورمى الجمرات.

السقاية والرفادة:

لوقوع مكـة فى وادٍ غير ذى زرع، ولشـحّة المياه فيها، فإن سـعى القرشـيين الرئيس فى أيام الحج كان منصـباً على توفير الماء للحجيج، وقد سمى هذا العمل بالسقاية. وقيل إنّ أول من سقى الحجيج هو قصى.

والمشكلة الثانية فى هذه الايام بعد إيصال الماء هى الإطعام، وقد سمى هذا العمل بالرفادة. وقيل إنّ أول من قام به هو قصى أيضاً (۶).

وقـد بقى هـذا العمـل لأولاـد قصـى، إذ تكفّل به من بعـده هاشم بن عبـد مناف، ثمّ ابنه عبـدالمطلب، ثمّ أبوطالب الـذى عصـر ظهور الاسلام.

وقد شارك فى هذا العمل أشـخاص آخرون من غير هذه الاسـرة، مثل عدى بن نوفل الذى عاصـر عبدالمطلب، وكان يسـقى الحجيج فى الصفا والمروة لبناً وعسلًا (۷).

الطواف والتلبية:

إن ما يسترعى الاهتمام وتتّضـح فيه هوية الحجّ الجاهلى الحقيقية، هو محتوى التلبيات وارتباطها بالاصـنام، إذ لم يكن من حجهم بكل مظاهره غير حركات عابثة وأفعال لا معنى لها.

۱- ۴۲ السيرة النبوية لابن هشام ۲۰۲: ۱.

۲- ۴۳ المحبّر: ۱۸۰.

۳- ۴۴ الوثنية فى الأدب الجاهلى: ۳۰۸.

۴- ۴۵ المحبّر: ۱۸۱.

۵- ۴۶صحيح البخارى ۱۷۰: ۲- ۱۷۵.

۶- ۴۷ الوثنية فى الادب الجاهلى: ۳۱۳، نقلًا عن اخبار مكة.

۷- ۴۸ نفس المصدر: ۳۱۵.

ص: ۳۸

فأعمال الحج فى واقعها رموز إلهية بروح توحيدية جاءت من الخليل محطم الأصنام، وأدت الغفلة عنها، والغربة عن أسرارها ورموزها، وعدم فراغ القلب من سوى المطلوب، والدوران دون حضور القلب، إلى الخسران.

والأهم من كل ذلك هو الربط بين تلك الرموز والشعائر، فى تلك المواقف والمناسك، وبين العالم الخارجى الذى سيواجهه الحاج فى الحج الابراهيمى، العالم الذى يحب أن يحياه ديناً وقلباً ودنياً وفق نهج إبراهيم (عليه السلام) ومحمّد (صلى الله عليه وآله وسلّم) أى وفق الاسلام، وبالجمع بين هذه الثلاثة يكون قد سلك النهج الذى أطلقه الخليل (عليه السلام) والحبيب (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

كان حج المشركين حجاً جاهلياً، إذ كانوا يتوجهون بعد وصولهم مكة إلى الأصنام يظهرون لها خضوعهم، وفى عرفة والمزدلفة ومنى كانوا دائماً بذكرها أو بجوارها، ففى منى وضعت سبعة أصنام بالقرب من الجمرات الثلاث ليعظمها الحجيج بعدها، وكان مكان الأضاحى (الهدى) فى منى مليئاً بالانصاب إذ كان المشركون يمسحونها بدماء الأضاحى.

جاء فى سيرة ابن هشام نقلًا عن معاوية بن زهير:

فأُقسم بالذى قد كان رَبِّى وأنصاب لدى الجمرات مُغرِ (۱) وبعد انتهاء الحج كانوا ينشرون لباس الاحرام حول الأصنام.

إنّ ما يتحصّل من الأشعار والآثار الجاهلية والباقية، هو أن أداء المناسك كان يترافق مع التلبية بصوت عال، وتجدر الاشارة إلى أنّه لم يكن ثمّة وجود للتلبية المختصة بحج إبراهيم (عليه السلام) والتى مفادها: لبيك اللّهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك..، بل إنّهم غيروا التلبية لتتوافق مع عقيدة الشرك لديهم، إذ كانت كالآتى:

لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك! إلّا شريكٌ هو لك! تملكُهُ وما مَلَكْ (۲)!

ويظهر فى هذه التلبية الاعتقاد بالشريك، وقد كشف القرآن الكريم عن عقيدتهم المشركة فى قوله تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ اكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (۳).

وقد اعتبر ابن الكلبى أنّ هذه التلبية مختصة بنزار، بينما رأى ابن اسحاق وابن حبيب أنّها مختصة بقريش، وقال الأزرقى: إنّها متعلقة بكلّ المشركين، وممّا لا شكّ فيه أنّ التلبية التى يؤديها أهل الحرم يمكن أداؤها من قبل أهل الحل.

ونقل اليعقوبى والازرقى، أنّ كل قبيلة كانت أثناء الحج تهلل حولصنمها حتى تصل مكّة "،ذلك أنّ عبّاد كلّصنم كانوا إذا أرادوا الحج، انطلقوا إليه، واهّلوا عنده، ورفعوا أصواتهم "(۴)، وكذلك ":إذا أرادت حجّ البيت وقفت كلّ قبيلة عندصنمها، وصلّوا عنده" (۵).

وكان لعبّاد كلصنم من القبائل المختلفة تلبيات خاصة، ومن بين هذه الأصنام كان لكل من اللات والعُزّى ومناة وهُبَل وذو خَلَصَة وذو كفين وجهار وذُرَيح وذولبّا وسعيدة وشَمُس ومُحرِّق ومَرْحِب ونَسْر ويعوق ووَدّ ويغوث تلبية خاصة به، وهى مذكورة فى المصادر التاريخية، وقد أحجمنا عن إيرادها مراعاة للاختصار.

وعدا هذه الأصنام، كان لقبائل كنانة وثقيف وهُذيل وبجيلة وجُذام وعكّ وأشعر وربيعة وقيس وعيلان وبنى أسد وتميم ومذحج وهَمْدان وبكر بن وائل وبنى معدّ وبنى نَمر أصنامهم، ولها تلبيات خاصة أيضاً.

وكانوا يصفقون ويصفّرون لدى ترديدهم التلبية.

يمكن القول: إنّ الحج الجاهلى كان مزيجاً من الشرك والتفاخر القبلى، والأغراض التجارية والأهداف السياسية والقومية، لذلك سعت كلّ قبيلة أثناء الطواف لاستعراض مظاهر هذا المزيج غير المتجانس من خلال رفع الأصوات.

وقد عبر القرآن الكريم عن حركة المشركين هذه لدى الطواف بقوله تعالى:

وَمَا كَانَصَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إلّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً (۶).

وبعد منى كان المشركون يتوجّهون إلى مكة إذ يبقون فيها ثلاثة أيام، تسمى بأيام التشريق، وقد ذكروا أقوالًا فى وجه تسميتها: منها طبخ لحم الأضاحى بأشعة الشمس، ومنها نحر الأضاحى عند طلوع الشمس، وكانوا يهتمون بهذه الأيام لكنها لم تكن من أركان الحج الاساسية.

كان على غير أهل الحُمْس، أثناء الطواف إما أن يرتدوا ثياباً استعاروها أو استأجروها، وإما أن يطوفوا عراة، وهذا يتعلق بمن يأتى إلى الحج للمرة الأولى.

وكان أهل الحل يتركون ثيابهم بعد الطواف فى محل قرب مكة، ولا يحق لهم ارتداؤها مرة أُخرى، وتسمى هذه الثياب لَقّى (۷)، إذ لا يمكن الاستفادة منها بسبب تعرضها لأشعة الشمس وتغيرات الجو ورثاثتها.

كان الطواف حول البيت، دون ثياب أمراً دارجاً وكان يطال حتّى النساء.

فقد نقل أن امرأة جميلة لم تجد ثياباً فاضطرت إلى الطواف عارية، ممّا دفع جمعاً كثيراً إلى الاحتشاد لمشاهدتها.

ونقل أيضاً أن بعض المشركين كانوا ينتهزون هذه الأيام، فيتحلقون حول الكعبة لرؤية هكذا مشاهد، وكان خُفاف بن نُدبة يسعى لرؤية عشيقته، وكما قال فانه استطاع ان يراها عارية فى هذه الأيام، إذ جاء عنه:

وأبدى شهور الحج منها محاسناً ووجها متى يحلل له الطبيب يُشرق (۸) ويجب البحث عن جذور هذا الطواف فى مصالح الحُمْس الذين سعوا عبر إيجار الثياب ولمرة واحدة، أن يضمنوا لأنفسهم مصدراً مالياً، وكان أهل الحل فى بعض الأحيان لا يستجيبون لهذا الأمر، إذ كانوا فقراء معدمين من جهة، وكانوا يرفضون الخضوع لامتياز قريش وقراراتها الاستعلائية من جهة ثانية، ولمّا كان الغرض من الحج ترسيخ التقاليد القبلية والجاهلية، فقد كانوا مستعدين لأن تطوف حتى نساؤهم عاريات.

وحسبما نقل ابن كثير فان الآية نزلت للحيلولة دون هذا العمل يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجدٍ... (۹).

ووضعوا إساف ونائلة قرب الكعبة، الأولى بجوارها، والْأُخرى عند زمزم، وعلى الحاج أن يبدأ طوافه أوّلًا من إساف وبعد أن يستلم الحجر الأسود ويختم طوافه، يستلم الحجر الأسود مرة ثانية، وبعد ذلك ينتهى طوافه باستلام نائلة.

وحسب تقاليد المشركين لم يكن طواف الحج والعمرة تعبدياً دائماً، إنّما كان أحياناً للتعبير عن الغضب والشر وإشهاد البيت على ظلم الأعداء.

"نقل أنّ أبا جُندب بن مُرّة القِرْدىّ كان له جار من خُزاعة اسمه خاطم، فقتله زهير اللحيانى وقتلوا امرأته، فلمّا برأ ابو جندب من مرضه خرج من أهله حتّى قدم مكّة، فاستلم الركن وكشف عن إسته وطاف، فعرف النّاس أنّه يريد شرّاً "(۱۰).

كان السعى بين الصفا والمروة جزءاً من الطواف عند الحُمْس وربما عند غيرهم، ولكن لم يؤده جميع المشركين.

وكان السعى بين الصفا والمروة من شعائر الخليل (عليه السلام) إلّا أنّه ترك ومسخ، وبعد ظهور الاسلام وفتح مكة أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بادائه إذ قال تعالى:

إنّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَوَّفَ بهمَا... (۱۱).

المصادر

أخبار مكّة، الأزرقى (مكّة مكرّمة، الماجدية، ۱۳۵۲).

أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغانى (دمشق، ۱۹۲۷).

البيان والتّبيين، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السّلام محمد هارون (بيروت، دار الفكر، ۱۴۱۰).

تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن مرتضى الزّبيدى (بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ).

تاريخ الجاهليّة، الدكتور عمر فرّوخ (بيروت، دار العلم للملايين، ۱۹۸۴).

تاريخ العرب فى الإسلام، الدكتور جواد علىّ (بيروت، دار الحداثة، ۱۹۸۴).

تاريخ العرب قبل العروبة الصّريحة فى جزيرة العرب، محمّد عَزّة دَرْوَزَة (صيدا، المكتبة العصرية للطّباعة والنّشر، ۱۳۷۶).
تاريخ اليعقوبى، ابن واضح اليعقوبى (بيروت، دار العراق، ۱۹۰۰) ..
خزانة الأدب ولُبّ لُباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادى، تحقيق وشرح، عبدالسّلام محمد هارون (القاهرة، مكتبة الخانجى، ۱۴۰۹).
ديوان أمية بن أبى الصلّت، جمع وتحقيق ودراسة، الدكتور عبد الحفيظ السطلى (دمشق، مكتبة أطلس، ۱۹۷۷).
السّيرة النّبوية، لإبن هشام، تحيق، مصطفى السقا، ابراهيم الأبيارى، عبد الحفيظ شلبى (القاهرة، البابى الحلبى، ۱۹۵۵).
صحيح البخارى، محمّد بن إسماعيل (القاهرة، مطابع دار الشعب، ۱۳۷۸).
فى طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم الحوت (بيروت، دار النّهار للنشر، ۱۹۸۳).
القاموس المحيط، الفيروز آبادى (بيروت، مؤسسة الرسالة، ۱۴۰۶).
كتاب الأصنام، أبو منذر هشام بن محمّد الكلبى، تحقيق، أحمد زكى باشا (القاهرة، دار الكتب المصرية، ۱۹۲۴)
المُحَبَّر، أبو جعفر محمّد بن حبيب، تصحيح، الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر (بيروت، دار الآفاق الجديدة، بدون تاريخ)
مُروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودى، تحقيق وتصحيح، شارل پلّا (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ۱۹۶۵)
معجم البلدان، ياقوت الحَموى، تحقيق فريد عبد العزيز الجُندى (بيروت دار الكتب العلمية، ۱۴۱۰).
معجم الشّعراء، المرزبانى، أبو عبيدالله محمّد بن عمران، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج (دمشق، مكتبة النورى، بدون تاريخ).
المفضّليّات، المفضّل الضّبّى، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون (القاهرة، دار المعارف، ۱۹۷۶).
الوثنية فى الأدب العربى، الدكتور عبد الغنى زيتونى (دمشق، وزارة الثقافة ۱۹۸۷).
(llirB .j .E ,nedieL)malsI fo aideapolcycnE, ۱۹۸۶
(kraIc .T .T ,hgrubnidE)gnitsaH semaJ yb scihte dna noigilen fo ,aideapolcycnE, ۱۹۸۰
(natsikaP detimiL noitacilbuP cimalsI)iuQiddiS dimaHludbA ,dammahuM fo efil ehT, ۱۹۸۱).

وقفة فاحصة عند لفظة "فلا جناح عليه"

۱- ۴۹ نفس المصدر: ۳۱۹ و ۳۱. p IHGIDDIS. H. A, dammahum fo efil eht
۲- ۵۰ كتاب الاصنام: ۷.
۳- ۵۱ يوسف: ۱۰۶.
۴- ۵۲ اخبار مكة، الازرقى ۷۵: ۱.
۵- ۵۳ تاريخ اليعقوبى ۲۹۶: ۱.
۶- ۵۴ الانفال: ۳۵.
۷- ۵۵ السيرة النبوية لابن هشام ۲۰۲: ۱.
۸- ۵۶ الوثنية فى الادب العربى ۲۳۹- ۲۴۰.
۹- ۵۷ الاعراف: ۳۰.

۱۰- ۵۸ خزانة الأدب، البغدادى ۲۹۲: ۱.

۱۱- ۵۹ البقرة: ۱۵۸.

ص: ۳۹

وقفة فاحصة عند لفظة "فلا جناح عليه"

من آية السعى (البقرة: ۱۵۸)

تأليف: محمّد هادى معرفة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمّد وآله الطاهرين.

قال تعالى: إنّ الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطّوّف بهما. ومن تطوّع خيراً فإنّ الله شاكر عليم.

لا شكّ أن السعى بين الصفا والمروة، فريضة واجبة، وشرطٌ حتمٌ أى ركن فى الحج وكذا فى العمرة، سواء أكانت مفردةً أم متمتعاً بها الى الحج.

ولفظة فلا جُناح تعنى عدم البأس، وهذا يعنى الترخيص فى الفعل فحسب دون اللزوم، فما وجه هذا التعبير الموهم خلافَ المقصود؟

الجناح: الأثم ومنها لا جناح عليك.

وقد حاول المفسرون ومن ورائهم الفقهاء، محاولاتٍ شتى فى حلّ هذا المُشكل وتوجيه هذا المعضل.

قال الامام الرازى: ظاهر قوله تعالى: فلا جناحَ عليه انه لا إثم عليه. والذى يصدق انه لا إثم فى فعله، يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح، ثم يمتاز كل واحد من هذه الثلاثة عن الأخر بقيد زائد.

فإذاً ظاهر هذه الآية لا يدل على أن السعى بين الصفا والمروة واجب أو ليس بواجب، لأن اللفظ الدال على القدر المشترك بين الأقسام لا دلالة فيه ألبتة على خصوصيّة، فلا بُدّ فى فهم الخصوصية من الرجوع الى دليل آخر.. (۱).

وأخرج الطبرى؛ بإسناده عن عروة بن الزبير، قال: سألت عائشة: أرأيت قول الله: فلا جناح عليه أن يطوّف بهما.. والله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة! فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختى. إن هذه الآية لو كانت كما أوّلتها، كانت لا جناح عليه أن لا يطوّف بهما... قالت: نزلت الآية فى الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة... وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة.. فسألوا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن ذلك، فنزلت الآية.

قالت: وقد سنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الطواف بينهما، فليس لأحد ان يترك الطواف بينهما.. (۲).

فقد أقرّت ان الآية بذاتها لا تدل على الوجوب، غير أن عمل الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسنته فى الالتزام كان دليلًا على وجوب الإتيان به.

وأخرج الترمذى بإسناده عن سفيان قال: سمعت الزُهْرى يحدّث عن عروة، قال: قلت لعائشة: ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئاً، وما أبالى أن لا أطوف بينهما. فقالت: بئس ما قلت يا ابن أختى. طاف رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وطاف المسلمون- وساق الحديث الى قولها- ولو كانت كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما..

۱- ۱ التفسير الكبير ۱۵۹: ۴.

۲- ۲ تفسير الطبرى ۲۹: ۲.

ص: ۴۰

قال الزُهْرى: فـذكرت ذلك لأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فأعجبه ذلك، وقال: إنّ هذا لَعِمٌ. ولقد سـمعتُ رجالًا من أهل العلم يقولون: إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب، يقولون: إن طوافنا بين هذين الحَجَرين من أمر الجاهليّة. وقال آخرون من الأنصار: إنا امرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصـفا والمروة.. فأنزل الله الآيـة.. قال أبوبكر بن عبد الرحمن فأراها نزلت فى هؤلاء وهؤلاء..

قال الترمذى: هذا حديث حسنصحيح (۱).

وأورد القرطبى الحـديث فى تفسيره، ثم قـال: وأخرجه البخارى بمعنـاه، وفيه: أن أبـابكر بن عبـد الرحمن قـال: إنّ هـذا لَعِلْمٌ ما كنتُ سمعته.. (۲).

ثم نقـل القرطبى تحقيقـاً لابـن العربى حول تأويل عائشـة لهـذه الآيـة، قال: وتحقيق القول فيه ان قول القائل: لا جناح عليك أن تفعل، إباحـة الفعل. وقوله: لا جناح عليك أن لا تفعل، إباحـة لترك الفعل. فلما سـمع عروة الآيـة: فلا جناح عليه ان يطوّف... زعم ان ترك الطواف جـائز. ثم لمـا رأى الشـريعة مطبقـة على أن لا ـ رخصـة فى ترك الطواف رأى تعارضاً، فطلب الجمع بين هـذين المتعارضـين. فنبّهته عائشـة على أن الآيـة لا تـدل على جواز ترك الطوف، وإنما كانت تـدل على ذلك إذا كانت ":لا جناح عليه أن لا يطوف."... فلم يأت هذا اللفظ لا باحة ترك الطواف، ولا فيه دليل عليه. وإنما جاء لا فادة إباحة الطواف لمن كان يتحرّج منه.. (۳).

غير أن جماعة من أهل الجمود فى النظر،صـمدوا على إرادة جواز التركّ، ومن ثم نسـبوا الى بعض كبار الصـحابة والتابعين أيضاً أنهم قرءوا ":فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما."

فقـد أخرج الطبرى بإسـناده عن أبى عاصم قال: حـدثنا ابن جُرَيـج قال: قال عطاء: لو أن حاجّاً أفاض بعـد ما رمى جمرة العقبة، فطاف بالبيت ولم يسع، فأصاب امرأته، لم يكن عليه شـىء، لا فى حج ولا فى عمرة. من أجل قول الله- كما فى مصحف ابن مسعود "-:فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما."

قال: فعاودتُه بعد ذلك، فقلت: إنه قد ترك سـنّة النبى (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم): قال: ألا تسمعه يقول ":فمن تطوّع خيراً، "فأبى أن يجعل عليه شيئاً.. فقد أخذ التطوع بمعنى التبرّع.

وأيضاً أخرج عن سفيان عن عاصم الأحول قال: سمعت أنساً يقول: الطواف بينهما تطوع.. أى تبرّع ومندوب اليه.

وروى نحوه عن مجاهد، قال: لم يُحرَّج من لم يطف بهما.. أى لم يأت اثماً، لأنه غير واجب.

وروى عن عطاء عن عبدالله بن الزبير، قال: هما تطوع.. (۴). أى الطواف بينهما..

وذكر القرطبى أنه فى مصحف أبىّ كذلك أى: أن لا يطوف بهما.. كما نسب الى ابن عباس أيضاً أنه قرأ كذلك (۵).

قـال القرطبى: اختلف العلمـاء فى وجوب السـعى بين الصـفا والمروة، فقـال الشـافعى وابن حنبـل: هو ركن. وهو المشـهور من مـذهب مالك... وقال أبو حنيفـة وأصـحابه والثورى والشـعبى: ليس بواجب، فان تركه أحـد من الحاج حتى يرجع الى بلاده، جبره بالدّم. لأنه سنة من سنن الحج. وهو قول مالك فى "العُتبيّة ("كتاب فى مذهب الامام مالك- كتبه محمد بن أحمد العتبى القرطبى).. (۶).

۱- ۳ جامع الترمذى ۵:، كتاب التفسير ۲۰۸: ۴۸- ۲۰۹/ ۲۹۶۵.

۲- ۴ تفسير القرطبى ۱۷۸: ۲.

۳- ۵ تفسير القرطبى ۱۸۲: ۲.

۴- ۶ تفسير القرطبى ۳۰: ۲.

۵- ۷ القرطبى ۱۸۲: ۲.

۶- ۸ تفسير القرطبى ۱۸۳: ۲.

ص: ۴۱

وذكر البيضاوى- فى التفسير- الاجماع على أنه مشروع فى الحج والعمرة، وإنما الخلاف فى وجوبه، فعن احمد أنه سنة، وبه قال أنس وابن عباس. لقوله تعالى: فلا جناح عليه... فانه يفهم منه التخيير. قال: وهو ضعيف، لان نفى الجناح يدل على الجواز، الداخل فى معنى الوجوب، فلا يدفعه. وعن أبى حنيفة أنه واجب، يجبر بالدّم. وعن مالك والشافعى أنه ركن.. (۱).

وذكر ابن قدامة عن أحمد روايتين، احداهما: إنه ركن لا يتمّ الحج إلّا به. والثانية: أنه سنة لا يجب بتركه دم. ثم رجح مذهب أبى حنيفة، أنه يجبر بدم، قال: وقول عائشة فى ذلك- بكونه ركناً- معارض بقول من خالفها من الصحابة.. (۲).

قال الرازى: احتج أبو حنيفة لعدم الركنيّة بوجهين، أحدهما هذه الآية فلا جناح، قال: وهذا لا يقال فى الواجبات. وقد أكدّه تعالى بقوله: ومن تطوّع خيراً... فبيّن أنه تطوّع وليس بواجب. وثانيهما قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم "):الحجُّ عرفة، "ومن أدرك عرفة فقد تم حجّه."..

ثم أخذ فى الرّد على الوجهين، ودعم مذهب غيره (۳).

قال الشيخ أبو جعفر الطوسى فى كتاب الخلاف:

السعى بين الصفا والمروة ركن لا يتمّ الحج إلّا به. فان تركه أو ترك بعضه ولو خطوةً واحدةً، لم تحلّ له النساء، حتى يأتى به..

قال: وعلى ذلك إجماع فقهاء الاماميّة. وقد فعله النبيُّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأَمَرنا بالاقتداء به ":خُذُوا عنى مناسككم. "وقال": إن الله كتب عليكم السعى "..ومعناه: فَرَض.. (۴)

قلت: لا شك أنّ السعى بين الصفا والمروة، ركن من اركان الحج والعمرة. وعلى ذلك دلّت الآثار، وعليه استمرت سيرة المسلمين المتلقاة من فعل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وآله الأطهار وصحابته الأخيار.

أمّا الآية الكريمة-صدراً وذيلًا- فلاصلة لها بمسألة وجوب السعى أو ندبه أو اباحته ونحو ذلك من الأحكام التكليفية أو الوضعية. وإنما هى: دفع لتوهّم الخطر- على ما اصطلح عليه علم الأصول.

وذلك أن الآية نزلت فى عمرة القضاء (۵)، كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد شرط على المشركين- ضمن شروط عقد عليهاصلحُ الحديبيّة سنة ستّ من الهجرة-: أنه فى العام القابل يأتى هو وأصحابه لأداء العمرة، على أن يرفعوا الأصنام التى كان المشركون وضعوها حول البيت، وعلى جبلى الصفا والمروة، لمدة ثلاثة أيام، ليقوم المسلمون بأداء مناسكهم خلالها.

وكان المشركون قد وضعوا على جبل الصفاصنماً يقال له: أساف. وعلى المروة: نائلة. كانوا إذا سعوا التمسوا أعتابهما....

ثم لما قدم النبى (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأصحابه لأداء العمرة سنة سبع من الهجرة، ورفع المشركون أصنامهم من البيت والمسعى، أحرم هو وأصحابه وطاف بالبيت وسعى، تخلّف بعض أصحابه بسبب تشاغلهم ببعض شؤونهم الخاصة، فلم يتمكنوا من السعى خلال الأيام الثلاثة، فأعاد المشركون أصنامهم، ومن ثمّ تحرج هؤلاء المختلفون عن أداء السعى، ظناً منهم أنّ وجود الأصنام يتنافى وأداء عبادة السعى لله خالصةً.. فنزلت الآية دفعاً لتوهم الخطر ورفعاً لظنّ المنافاة... كما ورد فى الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) فقد روى أبو النضر محمد بن مسعود العيّاشى السمرقندى بإسنادٍ رفعه إلى الإمام أبى عبدالله جعفر بن محمّد الصادق (عليه السلام)، سئل عن السعى بين الصفا والمروة، فريضة هو أو سنة؟ فقال: فريضة! فقيل له: أَليس يقول الله تعالى: فلا جناح عليه أن يطوّف بهما؟

۱- ۹ تفسير البيضاوى ۲۰۲: ۱. وهكذا قال محمّد رشيد رضا: روى عن أحمد أنه مندوب المنار ۴۵: ۲.

۲- ۱۰ المغنى لابن قدامة ۴۰۷: ۳- ۴۰۸.

۳- ۱۱ التفسير الكبير ۱۶۰: ۴.

۴- ۱۲ الخلاف ۴۴۹: ۱، م ۱۴۰ من كتاب الحج.

۵- ۱۳ وسمّيت عمرة القضاء، لأنها وقعت شرطاً فى عقد الصلح الذى ابتدأ. بلفظ: هذا ما قضى به....

ص: ۴۲

قال: کان ذلک فی عمرة القضاء، وذلک أن رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم) کان شرط علیهم أن یرفعوا الأصنام، فتشاغل بعض أصحابه حتی أعیدت. فجاءؤا الی النبی (صلّی الله علیه وآله وسلّم) یسألونه الحال... فنزلت الآیة.. (۱)

أی لا حرج بذلک، لأن السعی إنما یقع لله، والأعمال بالنیّات. فلا منافاة بین وجود الأصنام ووقوع السعی لله عزّ وجلّ.. والصفا والمروة من شعائر الله، لا یتلوّثان بوضع الأصنام علیهما...

وقوله تعالی: ومن تطوّع خیراً فان الله شاکر علیم.

یعنی: أنّ الله: ینظر الی قلوبکم ونیّاتکم فی ضمائرکم، فان کان العمل الذی یقوم به العامل، خیراً وکان قاصداً به الله، فالله یشکره علیه، وهو أعلم بما فی الصدور.

إن یعلم الله فی قلوبکم خیراً یؤتکم خیراً (۲).

والله یعلم ما فی قلوبکم وکان الله علیماً حکیماً (۳).

فمعنی تطوّع خیراً القیام بالطاعة عن نیّةصادقة لله تعالی. وهذا المعنی لا یستدعی أن یکون العمل الذی یتطوّع به العامل، مندوباً إلیه فقط، بل الواجب أیضاً کذلک، فهو من الخیر الذی ینبغی الأداء به عن تطوّع، أی عن رغبة فی الخیر واستسلام لله عزّ وجلّ...

فقه الحجّ الاستدلالی المقارن وجوب الحج وفوریته فی دراسة استدلالیة مقارنة

۱- ۱۴ تفسیر العیاشی ۷۰: ۱/ ۱۳۳. وراجع: التبیان، للشیخ أبی جعفر الطوسی ۴۴: ۲، ومجمع البیان للطبرسی ۲۴۰: ۱، والمیزان، العلامة الطباطبائی ۳۹۱: ۱ والصافی، الفیض الکاشانی ۱۵۴: ۱، وکنز الدقائق، المشهدی ۳۸۴: ۱، وتفسیر أبی الفتوح الرازی ۳۹۱: ۱.

۲- ۱۵ الأنفال ۷۰: ۸.

۳- ۱۶ الأحزاب ۵۱: ۳۳.

ص: ۴۳

فقه الحجّ الاستدلالی المقارن وجوب الحج وفوریته فی دراسة استدلالیة مقارنة

تألیف: محسن الأراکی

الحمد لله رب العالمین والصلاة والسلام علی محمّد وآله الطّاهرین

نتناول فی بحثنا هذا فقه الحج علی ضوء الاستدلال، مقارناً بین اهم المذاهب الفقهیة وخاصة المذاهب الخمسة التی علیها مدار العمل بین الاکثریة الساحقة للمسلمین، وهی المذاهب الجعفری، والحنفی، والحنبلی، والمالکی، والشافعی، وعلی الله نتوکل وبه نستعین.

إن بحثنا عن فقه الحج یقع ضمن فصول:

الفصل الأول:

وجوب الحج وما یتعلق به

وجوب الحج اجملًا مما اتفقت علیه کلمة المسلمین بطوائفهم کافة، ویعتبر من الضروریات التی لا حاجة فیها إلی إقامة الدلیل، ومن طلب الدلیل یکفیه بعد الاجماع، دلیل الکتاب وهو قوله تعالی: ولله علی الناس حجّ البیت من استطاع الیه سبیلًا (۱)ومن السنة الاحادیث المتواترة تفصیلًا أو اجمالًا مثل ما رواه الفریقان من ان الاسلام بنی علی خمس- منها- الحج (۲).

ولا فرق فی وجوبه بین الذکر والانثی والخنثی لاطلاق ادلّة الوجوب وعدم ما یدل علی التقیید.

ثم إن هاهنا مسائل:

المسألة الأُولی: لا یجب الحج- بشرائطه- إلّا مرة واحدة فی العمر، قام علی ذلک اجماع المسلمین، قال فی الجواهر ":ولا یجب باصل الشرع إلّا مرة واحدة اجماعاً بقسمیه من المسلمین "(۳)وقال ابن قدامة المقدسی ":واجمعت الأُمّة علی وجوب الحج علی المستطیع فی العمر مرة واحدة "(۴)ولم یخالف فی ذلک إلّا الصدوق فی العلل فانه قال ":والذی اعتمده وافتی به ان الحج علی اهل الجدة فی کل عام فریضة "(۵)وقد استدل لذلک بما رواه باسناده عن أبی جریر القمی عن ابی عبدالله (علیه السلام) قال ":الحج فرض علی اهل الجدة فی کل عام "(۶)بروایتین أخریین ضعیفتی السند قریبتین الی هذه الروایة فی المضمون.

ویکفی حجة علیه الاجماع الذی اشرنا إلیه وبه یسقط الاستدلال بالروایة لضرورة حملها علی ما لا یخالف المجمع علیه أو رفع الید عنها، اضف إلی ما ورد فی الروایات المستفیضة من التصریح بعدم وجوبه اکثر من مرة واحدة مثل ما رواه البرقی فی الصحیح عن علی بن الحکم، عن هشام بن سالم عن أبی عبدالله (علیه السلام) قال ":ما کلّف الله العباد إلّا ما یطیقون- الی ان قال- وکلّفهم حجّة واحدة وهم یطیقون أکثر من ذلک، الحدیث "(۷).

وروی الصدوق باسناده عن الفضل بن شاذان عن الرضا (علیه السلام) قال ":انما امروا بحجّة واحدة لا اکثر من ذلک "(۸).

۱- ۱ آل عمران: ۹۷.

۲- ۲ راجع وسائل الشیعة ابواب مقدمة العبادات باب ۱، وصحیح مسلم باب قول النبی بنی الاسلام علی خمس ۳۴: ۱.

۳- ۳ جواهر الکلام ۲۲۰: ۱۷.

۴- ۴ المغنی ۲۱۷: ۳.

۵- ۵ علل الشرائع: ۴۰۵.

۶- ۶ العلل: ۴۰۵.

۷- ۷ الوسائل ۸: ابواب وجوب الحج، الباب ۳، الحدیث ۱.

۸- ۸ نفس المصدر، الحدیث ۲.

ص: ۴۴

وروی ایضاً باسناده عن محمد بن سنان: أن أبا الحسن الرضا (علیه السلام) کتب إلیه فیما کتب من جواب مسائله "علة فرض الحج مرة واحدة لان الله تعالی وضع الفرائض علی أدنی القوم قوة، فمن تلک الفرائض الحج المفروض واحداً، ثم رغّب اهل القوة علی قدر طاقتهم "(۱).

وهذه الروایاتصریحة فی عدم وجوب الاکثر من مرة واحدة بخلاف الروایات التی استند إلیها الصدوق فی القول بالوجوب فی کل عام، فانّ غایة دلالتها الظّهور، وروایات المرّة اظهر منها دلالة بل هیصریحة غیر قابلة للحمل علی معنی آخر.

ویمکن حمل روایات الوجوب فی کل عام علی ارادة الوجوب علی طریق البدل، وأنّ من وجب علیه الحجّ فی السنة الأُولی فلم یفعل وجب فی الثانیة.

وهذا ما قام به الشیخ الطوسی، وان کان الاقوی حملها علی ما حملها علیهصاحب الوسائل من ارادة الوجوب الکفائی، وانّ من الواجب علی المسلمین کفایة ان یحجّوا بیت الله الحرام فی کل عام، وأنه لا یجوز لهم ترک الحجّ بما یؤدّی الی تعطیل بیت الله الحرام ولو لسنة واحدة، وقد وردت روایات متعدّدة- فیها روایاتصحیحة السند- تؤکد هذا المضمون:

فقد روی الکلینی فی الصحیح عن الحسین الأحمسی عن ابی عبدالله (علیه السلام) قال "لو ترک النّاس الحج لما نوظروا العذاب، أو قال: لنزل علیهم العذاب "(۲).

وفی روایة اخری عن حماد عن ابی عبدالله (علیه السلام) قال: کان علیصلوات الله علیه یقول لولده "یا بنی انظروا بیت ربکم فلا یخلّون منکم فلا تناظروا "(۳).

وفی الصحیح ایضاً عن عبدالله بن سنان عن أبی عبدالله (علیه السلام) قال "لو عطّل النّاس الحجّ لوجب علی الامام ان یجبرهم علی الحجّ ان شاؤوا وان أبوا، فان هذا البیت انما وضع للحج "(۴).

وفیصحیحة أُخری عن ابی عبدالله (علیه السلام) قال "لو ان النّاس ترکوا الحج لکان علی الوالی ان یجبرهم علی ذلک، وعلی المقام عنده، ولو ترکوا زیارة النبیّصلّی الله علیه وآله لکان علی الوالی ان یجبرهم علی ذلک وعلی المقام عنده، فان لم یکن لهم اموال انفق علیهم من بیت مال المسلمین "(۵).

وهذه الروایات کالصریحة فی الدلالة علی وجوب الحج کفایة فی کل عام، فتکون قرینة علیصرف روایات الوجوب فی کل عام- بعد تعارضها مع روایات المرة- إلی ارادة الوجوب الکفائی، وبذلک یتم الجمع بین المتعارضین.

وقد اعترضصاحب الجواهر- قدس سره- علی القول بالوجوب الکفائی المذکور "بانه خلاف الاجماع، وان النصوص الدالة علی ان الامام یجبر المسلمین علی الحج ان ترکوه خارجة عما نحن فیه من الوجوب کفایة علی خصوص اهل الجدة المستلزم لکون من یفعله من حج فی السنة السابقة منهم مؤدیاً لواجب، ولو کان مع من لم یحج منهم، وقدصرحت النصوص بان ما عدا المرة تطوّع "(۶).

والجواب عنه: ان مقتضی الجمع بین روایات الوجوب فی کل عام، وروایات الوجوب مرة واحدة، بروایات حرمة تعطیل بیت الله الحرام عن الحجیج، حمل روایات الوجوب مرة علیصورة عدم لزوم التعطیل وحمل روایات الوجوب فی کل عام علیصورة لزوم التعطیل ویکون حاصل الجمع حینئذٍ: ان الحج لا یجب علی اهل الحدة اکثر من مرة واحدة فی العمر لکن بشرط عدم لزوم التعطیل، فان لزم التعطیل وجب علیهم الحج مرة اخری حتی لا یلزم التعطیل، وکلما لزم من عدم حج اهل الجدة تعطیل بیت الله الحرام لزم علیهم ان یحجّوا وان کانوا قد اتوا بحجة الاسلام قبل ذلک.

۱- ۹ نفس المصدر، الحدیث ۳.

۲- ۱۰ نفس المصدر، الباب ۴، الحدیث ۱.

۳- ۱۱ نفس المصدر، والباب ۱، الحدیث ۲.

۴- ۱۲ الوسائل، ابواب وجوب الحج، الباب ۵، الحدیث ۱.

۵- ۱۳ نفس المصدر، والباب الحدیث ۲.

۶- ۱۴ الجواهر ۲۲۲: ۱۷- ۲۲۳.

ص: ۴۵

وليس فی هـذا شـیء يخالف الاجماع، فليس القول بوجوب الحـج فی كل عام على اهل الجـدة مطلقاً ليلزم منه فی الاحوال العادية ان يكون من حج اولًا من اهل الجدة اذا حج مرةً اخرى مؤدياً للواجب الكفائی رغم أن النصوصصـرحت بان ما عدا المرة تطوّع، فإنّ هذه النصوص ناظرة الى القضـيّة الخارجيّة والاحوال المتعارفـة خارجاً، والتی يتقاطر فيها الحجيـج الى بيت الله الحرام من كل حد وصوب، وأما نصوص وجوب الحج على أهل الجدة فی كل عام فانما تنظر الى القضـيّة الحقيقية إلى أصل وجوب الحج بشـكل عام، فهی تنظر إلى الفريضة بطبيعتها وعلى نحو القضيّة الحقيقيّة.

ثم ان مقتضـى الروايـات الدالـة على حرمـة تعطيـل بيت الله عن الحجيـج الوجوب الكفـائی على المسـلمين عامـة، وانمـا قيّـد الوجوب الكفائی بخصوص اهل الجـدة للادلـة الدالـة على التقييـد كقوله تعالى: من اسـتطاع اليه سبيلًا... وغير ذلك كالرواية التی دلت على ان الحـج فرض على اهل الجـدة فی كل عام. وأما فيصورة عـدم وجود المسـتطيع، فقـد دلت الروايـة على أن من واجب الإمام بذل المال للناس ليسـتطيعوا فيحجّوا. وهـذا يـدل على توجه وجوب آخر على الحاكم الإسـلامیّ يلزمه إقامة هذا الشـعار الإلهی العظيم، وهذا من واجبات الحاكم الإسلامیّ وهو خارج عن موضوع بحثنا هنا.

هـذا ونختم الكلام فی هـذا الموضوع بما دل على عـدم وجوب الحج اكثر من مرة منصـحيح مسـلم باسـناده عن ابی هريرة قال: خطبنا رسول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) فقال "ايها النّاس قد فرض الله عليكم الحج فحجّوا، فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقـال رسول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم): لو قلت نعم لوجبت، ولمـا اسـتطعتم، ثم قـال: ذرونی ما تركتكم، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم، فاذا أمرتكم بشـیءٍ فاتوا منه ما اسـتطعتم، واذا نهيتكم عن شـیء فـدعوه" (۱).

المسألة الثانية: تجب العمرة على المستطيع- كالحج- فی العمر مرة واحدة، بلا خلاف بين اصحابنا بل ادّعى فی التذكرة عليه الاجماع، وقـال السـيد الخوئی (ره) كمـا جاء فی تقرير بحثه "-:لا خلاف بين الفقهاء فی وجوب العمرة على كل مكلّف بشـرائط وجوب الحج وجوباً مستقلًا كالحج فی العمر مرة واحدة، وقد ادعيصاحب الجواهر الاجماع بقسميه على ذلك "(۲).

وقال العلامة فی التذكرة ":وبه قال على وعمروابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وسـعيد بن المسـيّب، وسعيد بن جبير وعطا وطاوُس ومجاهد والحسن البصری وابن سيرين والشعبی والثوری واسحق والشافعی فی الجديد واحمد فی احدى الروايتين "(۳).

وقاال آخرون: ان العمرة ليست واجبـة، وبه قال مالك وابو حنيفـة وابو ثور، وحكاه ابن المنذر وغيره عن النخعی (۴)، قيل: وروى عن ابن مسعود (۵)، وبه قال الشافعی فی القديم، واحمد فی الرواية الثانية (۶).

دليلنـا: بعـد الاجمـاع، من الكتاب قوله تعالى: واتموا الحـجّ والعمرة لله (۷)فـان المراد بالاتمـام: الأـداء أو الإتيان الكامل غير المنقوص والأمر يدل على الوجوب فتكون الآية دليلًا على وجوب كل من الحج والعمرة.

وقد روى فی الصحيح عن أبی عبدالله الصادق (عليه السلام) فی قوله تعالى: واتموا الحج والعمرة لله قال: يعنی بتمامهما: اداءَ هما "(۸) وقد ذكر الزمخشری فی الكشاف (۹)فی معنى الآية: ايتوا بهما تامين كاملين بمناسـكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توان ولا نقصان يقع منكم فيهمـا. ثم قـال: فـان قلت: هـل فيه دليـل على وجوب العمرة؟ قلت: مـا هو إلّـا أمر باتمامهما ولا دليل فی ذلك على كونهما واجبين او تطوّعين، فقـد يؤمر باتمـام الواجب والتطوّع جميعاً. الاـ ان نقول: الاـمر باتمامهمـا امر بادائمهما بـدليل قراءة من قرأ واقيموا الحـج والعمرة، والاـمر للوجوب فی اصـله الّا أن يـدل دليل على خلاف الوجوب كما دل فی قوله- فاصـطادوا، فانتشـروا ونحو ذلك- فيقـال لـك، فقـد دل الـدليل على نفی الوجوب وهو مـا روى انه قيـل "يا رسول الله العمرة واجبـة مثل الحـج؟ قال: لا، وان تعتمر خير لك "وعنه "الحج جهاد والعمرة تطوّع."

ويرد عليه: ان الامر للوجوب كما ذكر وما استشـهد به على نفی ارادة الوجوب لا يحتـج به لقصوره دلالـة وسـنداً، ولمعارضة باحاديث

أخرى رواها اصحاب السنن، والمعارض اقوى سنداً ودلالة، وعلى فرض التكافؤ يتساقط الدليلان المتعارضان وتبقى الآية حجة على الوجوب.

ام قصور الشاهد- على نفى الوجوب- دلالة، فلأن النفى فى الحديث الأوّل نفى لمثليّة العمرة للحج فى الوجوب، فلا تدل على نفى اصل الوجوب واما الحديث الثانى فليس فيه ما يدل على نفى الوجوب غير التعبير بالتطوّع، وهو غيرصريح فى نفى الوجوب.

بل ولا اقوى ظهوراً فى نفى الوجوب من ظهور الامر فى الآية فى الوجوب. فلو سلّمنا ظهور التطوّع فى المندوب لزمنا رفع اليد عن هذا الظهور بظهور الآية فى الوجوب، لأنّ الآية ذكرت الحجّ الى جانب العمرة ولا شك فى وجوب الحج، ولا يستعمل اللفظ الواحد فى معنيين باستعمال واحد، لامتناع ذلك، فذكر الحج بنفسه قرينة قطعيّة على ارادة الوجوب من الامر بالإتمام، فيكون الامر دالًا على وجوب العمرة ايضاً.

والحاصل ان القرينة الموجبة لرفع اليد عن ظهور ذى القرينة لا بُدّ ان تكون اقوى دلالة من ذى القرينة، وفيما نحن فيه ليس الامر كذلك، فانّ دلالة ذى القرينة وهى الآية على وجوب العمرة اقوى من دلالة القرينة وهو الحديث المذكور على نفى الوجوب.

واما قصور الشاهد سنداً فقد روى البيهقى الحديث الأوّل باسناده عن الحجاج بن ارطأة عن محمّد بن المنكدر عن جابر ان النبى (صلّى الله عليه وآله وسلّم) سئل عن العمرة أواجبة؟ قال ":لا وان تعتمر خير لك "قال البيهقى: كذا رواه الحجاج بن ارطأة مرفوعاً وقد اخبرنا ابو عبدالله الحافظ، ثم ذكر اسناده إلى يحيى بن ايوب قال: اخبرنى ابن جريح والحجاج بن ارطأة عن محمّد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه انه سئل عن العمرة اواجبة فريضة كفريضة الحج؟ قال: لا وان تعتمر خير لك- ثم قال البيهقى-: هذا وهو المحفوظ عن جابر موقوف غير مرفوع وروى عن جابر مرفوعاً بخلاف ذلك، وكلاهما ضعيف.

وقد ذكر البيهقى طرق الرواية المذكورة كلّها وقد بيّن أنها جميعاً بين منقطع وضعيف وموقوف (۱۰)وقال النووى فى شرحه للمذهب: واما قول الترمذى: ان هذا حديث حسنصحيح فغير مقبول، ولا يغتر بكلام الترمذى فى هذا فقد اتفق الحفاظ على انه حديث ضعيف. ثم قال: ودليل ضعفه ان مداره على الحجاج بن ارطأة لا يعرف إلّا من جهته، والترمذى انما رواه من جهته، والحجاج ضعيف ومدلس باتفاق الحفاظ، وقد قال فى حديثه عن محمد بن المنكدر، والمدلس اذا قال فى روايته: عن، لا يحتج بها بلا خلاف. ثم قال: ولان جمهور العلماء على تضعيف الحجاج بسبب آخر غير التدليس (۱۱).

واما الحديث الثانى فقد قال الشوكانى: وفى الباب عن ابى هريرة عند الدار قطنى وابن حزم والبيهقى ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال ":الحج جهاد والعمرة تطوّع "واسناده ضعيف، وعن طلحة عند ابن ماجة باسناد ضعيف، وعن ابن عباس عند البيهقى قال الحافظ "ولا يصحّ من ذلك شيء "(۱۲).

۱- ۱۵صحيح مسلم ۱۰۲: ۴، باب فرض الحج مرة فى العمر.

۲- ۱۶ المعتمد فى شرح المناسك ۱۹۸: ۳.

۳- ۱۷ تذكرة الفقهاء للحلى ۲۹۶: ۱، ط حجرية.

۴- ۱۸ شرح المذهب للنووى ۱۲: ۷.

۵- ۱۹ المغنى لابن قدامة المقدسى ۲۲۳: ۳.

۶- ۲۰ تذكرة الفقهاء للحلى ۲۹۶: ۱، ط حجرية.

۷- ۲۱ البقرة: ۱۹۶.

۸- ۲۲ الوسائل ۳: ۸، ابواب وجوب الحج، الباب ۱، الحدیث ۲.

۹- ۲۳ تفسیر الکشاف ۳۴۳: ۱.

۱۰- ۲۴ السنن الکبری للبیهقی ۴، باب من قال ان العمرة تطوع: ۳۴۸.

۱۱- ۲۵ المجموع فی شرح المذهب ۱۰: ۷.

۱۲- ۲۶ نیل الاوطار للشوکانی ۲۸۱: ۴.

ص: ۴۶

وهذا سنشیر الی الاحادیث التی وردت من طرق الفریقین والتی تدلّ علی وجوب العمرة وفیها الحجّة الکافیة.

ومما یدل من الکتاب- ایضاً- علی وجوب العمرة قوله تعالی: ولله علی النّاس حجّ البیت من استطاع الیه سبیلًا فإنّ الحجّ معناه: قصد التوجّه إلی البیت بالاعمال المشروعیة- کما جاء فی اللغة (۱)- وهو مطلق یشمل العمرة المصطلحة کما یشمل الحجّ المصطلح، ولا دلیل علی اختصاصه بالحجّ حسب المصطلح الفقهی المقابل للعمرة، خاصّة وأنّ لفظة الحج فی الآیة استعملت مضافة إلی البیت ولا شک انّ العمرة مشتملة علی حج البیت کما هو الحال فی الحجّ، ولو کانت لفظة الحج فی الآیة غیر مضافة لامکن دعوی انصرافها الی الحج المقابل للعمرة لکنّها لیست کذلک.

اضف إلی هذا ما ورد فی تفسیر الآیة بسندصحیح عن عمر بن أذینة قال: کتبت إلی أبی عبدالله (علیه السلام) بمسائل بعضها مع ابن بکیر وبعضها مع أبی العباس فجاء الجواب بإملائه ":سألت عن قول الله عزّ وجلّ: ولله علی النّاس حج البیت من استطاع إلیه سبیلًا یعنی به الحجّ والعمرة جمیعاً لأنهما مفروضان "(۲).

واما من السنة فما یدلّ علی وجوب العمرة کالحج احادیث کثیرة من طرق الفریقین، اما من طرقنا فقد سبقت الاشارة الیصحیحة عمر بن اذینة عن الصادق، وروی ایضاً فی الصحیح عن الصادق (علیه السلام) انه قال ":العمرة واجبة علی الخلق بمنزلة الحجّ علی من استطاع لانّ الله عزّ وجلّ یقول: واتموا الحج والعمرة لله "(۳).

واما من طریق اهل السنة، فقد روی البیهقی باسناده عن یحیی بن یعمر عن ابن عمر قال سمعت عمر بن الخطاب یقول: بینما نحن جلوس عند رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم) اذ جاء رجل علیه سحناء سفر ولیس من اهل البلد- الی ان قال- فقال یا محمّد ما الاسلام؟ قال ":تشهد ان لا إله الّا الله وأن محمّداً رسول الله وان تقیم الصلاة وتؤتی الزکاة وتحج البیت وتعتمر وتغتسل من الجنابة وتتم الوضوء وتصوم رمضان، قال: فإن قلت هذا فأنا مسلم؟ قال:صدقت- "قال البیهقی ورواه مسلم فی الصحیح عن حجاج ابن الشاعر عن یونس بن محمّد الا انه لم یسق متنه- (۴).

ودلالته علی وجوب العمرة من جهة ان الظاهر من سؤال السائل أنّه أراد الوقوف علی ما یعتبر ویشترط فیصدق عنوان الاسلام فانّ السؤال ب "-ما "عن الشیء سؤال عن ماهیّة الشیء ومقتضی التطابق بین السؤال والجواب أن یتضمن الجواب کلما یعتبر فی ماهیّة الشیء المسؤول عنه، ومعنی اعتبار الشیء فی ماهیّة ما سئل عنه انتفاؤه بانتفائه، وحینئذٍ فالجواب یتضمّن أموراً ینتفی الإسلام بانتفائها، ومقتضی ذلک وجوب کل ما ذکر فی الجواب لکونه شرطاً معتبراً فیصدق الإسلام علی الفرد المسلم، إلّا ما دلّ الدلیل الخارج علی عدم انتفاء الإسلام بانتفائه، أو علی عدم وجوبه.

واما سند الحدیث: فقد روی الدارقطنی هذا اللفظ الذی رواه البیهقی بحروفه ثم قال: هذا اسنادصحیح ثابت (۵).

وروی روی البیهقی ایضاً باسناده عن ابی رزین انه قال: یا رسول الله ان ابی شیخ کبیر لا یستطیع الحج والعمرة ولا الظّعن قال ":احجج عن ابیک واعتمر."

ثم قال البیهقی: اخبرنا ابو عبدالله الحافظ، ثنا علی بن حمشاذ، ثنا أحمد ابن سلمة، قال: سألت مسلم بن الحجّاج عن هذا الحدیث- یعنی حدیث ابی رزین هذا- فقال: سمعت احمد بن حنبل یقول ":لا اعلم فی ایجاب العمرة حدیثاً أجود من هذا ولا اصح منه "(۶).

وقال النووی بعد نقله لروایة البیهقی ":وحدیث ابی رزین هذاصحیح رواه أبو داوُد والترمذی والنسائی وابن ماجة وغیرهم بأسانیدصحیحة، قال الترمذی: هو حدیث حسنصحیح "(۷).

۱- ۲۷ راجع: لسان العرب، مادة حجج.

۲- ۲۸ الوسائل ۳: ۸ ابواب وجوب الحج، الباب ۱، الحدیث ۲.

۳- ۲۹ نفس المصدر، الحدیث ۵.

۴- ۳۰ السنن الکبری- للبیهقی ۳۴۹: ۴.

۵- ۳۱ شرح المذهب للنووی ۹: ۷.

۶- ۳۲ السنن الکبری ۳۵۰: ۴.

۷- ۳۳ شرح المذهب ۹: ۷.

ص: ۴۷

ودلالـة الحـديث على وجوب العمرة ليست من جهـة دلالة الامر بالعمرة على الوجوب ليقال ":لا دلالة فيه على وجوب العمرة لانه أمَر الولـد إن يحـج عن ابيه ويعتمر ولاـ يجبان على الولـد عن ابيه إجماعاً "(۱)بل من جهـة ان الروايـة تـدل على ان السائل انما يسأل عن وظيفة العاجز عن اداء تكليفه الشـرعى، فهو يفترض فى سؤاله سـلفاً ان هناك واجباً شـرعياً قد توجّه الى ابيه وقد عجز عن أدائه، فماذا عليه بعد العجز عن اداء التكليف؟ هل يسقط عنه التكليف نهائياً، او يسقط عنه شرط المباشرة فى الاداء فحسب، فعليه إذاً ان يستنيب؟ فيجيبه الرسول الكريم (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) بأنّ العجز انما يوجب سقوط المباشرة فى اداء التكليف ولا يوجب سقوط التكليف رأسـاً، فلاـ بُـدّ للعـاجز من أن يسـتنيب، ولا يراد من توجيه الأمر إلى الولـد بيان تعيّن النيابـة فيه، بل انما هو بيان لاقرب مصاديق النيابة امكاناً والصقها بالواقع العملى والتحقق الخارجى، كما اذا دلّ الطبيب المريض على اقرب الصيدليّات وأسهلها فى الحصول على الدّواء الناجع لبرئه عن علته.

فلو ان الحـج والعمرة المفروضـين فى سؤال السائـل لم يكونا واجبين، لم يكن وجه للسؤال عن التكليف فيصورة العجز عنهما لوضوح الحـال حينئـذٍ فـانّ العمـل المتطوّع به لا الزام فى الاتيان به فى حال السـلامة والقـدرة فكيف بحال العجز وعـدم الاسـتطاعة! وهـذا من واضحات الشريعة التى لا تخفى على المتشرّعة عامّة وليس من المحتمل خفاؤه على المتشرّع العادى ليحتاج الى السؤال.

ولعل هذا هو الوجه فيما حكى عن احمد بن حنبل ":لا اعلم فى ايجاب العمرة حديثاً أجود من هذا، "فإنّ تصريحاً كهذا لا يصدر عن فقيه مثل احمد إلّا فيما لا مجال للتشكيك فى دلالة.

هـذا ويـذكر فى الباب احاديث اخرى تدل على وجوب العمرة فقد روى البيهقى باسـناده عن ابى هريرة عن النبى (صـلّى الله عليه وآله وسلّم) قال ":جهاد الكبير والضعيف والمرأة: الحج والعمرة "(۲).

وروى ايضاً باسناده عن جابر ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال ":الحج والعمرة فريضتان واجبتان "(۳).

وروى ايضـاً ان الصبى بن معبـد قـال لعمر بن الخطـاب ":انى وجـدت الحـج والعمرة مكتوبين علىّ فـاهللت بهما، فقال: هـديت لسـنة نبيك "(۴)قال ابن حجر: اخرجه ابو داوُد (۵).

المسألة الثالثة: وجوب الحج والعمرة على المستطيع فورى لا يجوز تأخيرهما عن عام الاستطاعة بغير عذر، وقد اتفقت على ذلك كلمة اصحابنا، قال العلامة فى تذكرة الفقهاء ":وجوب الحج والعمرة على الفور، لا يحل للمكلف بهما تأخيره عند علمائنا أجمع "(۶).

وقـال المحقـق النجفى فى جـواهر الكلام ":وتجـب- أى حجـة الإسـلام- بعـد فرض احراز الشـرايط على الفـور، اتفاقاً محكيّاً عن الناصريّات والخلاف وشرح الجمل للقاضى، وفى التذكرة والمنتهى، ان لم يكن محصّلًا "(۷).

وقد ذهب الى الفور مالك، واحمد، وابو حنيفة، وبعض اصحاب الشافعى (۸)، وابو يوسف. المزنى (۹).

وذهب الى جواز التأخير الشافعى، والاوزاعى، والثورى، محمّد بن الحسن، ونقله الماوردى عن ابن عباس وانس وجابر وعطاء وطاوُس (۱۰).

ادلة القول بالفور: وقد استدل اصحابنا للفور بنوعين من الدليل:

۱- ۳۴ الجوهر النقى، لابن التركانى، ذيل سنن البيهقى ۳۵۰: ۷.

۲- ۳۵ السنن الكبرى ۳۵۰: ۴.

۳- ۳۶ نفس المصدر ۳۵۰: ۴.

۴- ۳۷ نفس المصدر ۳۵۱: ۴.

۵- ۳۸ فتح الباری ۵۹۷: ۳.

۶- ۳۹ تذکرة الفقهاء ۲۹۶: ۱، ط حجریة.

۷- ۴۰ جواهر الکلام ۲۲۳: ۱۷.

۸- ۴۱ نیل الأوطار ۲۸۵: ۴.

۹- ۴۲ شرح المذهب ۸۶: ۷.

۱۰- ۴۳ نفس المصدر ۸۶: ۷.

ص: ۴۸

الأوّل: دلیل العقل "فان الواجب بعدما تحقق شرطه وکان المکلف واجداً لشرائط التکلیف، فلا بُدّ للمکلّف من تفریغ ذمته بالاتیان بما امر به لیأمن العقوبة من مغبّة العصیان، ولا عذر له فی التأخیر مع احتمال الفوت.

نعم، لو اطمأن بالبقاء وبالتمکّن من اتیان الواجب ولو فی آخر الوقت لا تجب المبادرة حینئذٍ، ولذا جاز تأخیر بعض الواجبات المؤقته کالصلاة عن اول وقتها، لاجل حصول الاطمئنان والوثوق بالبقاء والتمکن من الاتیان بالمأمور به ولو فی آخر الوقت، لکون الوقت قصیراً لا یحتمل التلف والفوت فی هذه المدّة غالباً، وهذا الاطمئنان والوثوق غیر حاصل فی الحج لان الفصل طویل والطوارئ والموانع کثیرة "(۱).

هذا تقریر الدلیل العقلی حسبما ذکره السید الخوئی رحمه الله- وفقاً لما جاء فی تقریر بحثه- ویرد علیه:

أوّلًا: ان المتنازع فیه هو الفوریة شرعاً، ولا تثبت بهذا البیان، واما الفوریّة عقلًا- فعلی تقدیر ثبوتها بهذا التقریب- غیر مختصة بفریضة الحجّ بل تعم الفرایض کلّها وهذا ما لم یلتزم به فقهاء المذهب.

وثانیاً: ان الفوریّة التی یثبتها هذا الدلیل العقلی انما هی فوریّة مقیّدة ولیست فوریّة مطلقة، أی انها فوریّة مقیدة بعدم الوثوق بالبقاء واستمرار القدرة علی الامتثال فی المستقبل، وهذه الفوریّة اخص من المدعی ولا تفی بالمطلوب، فان المطلوب اثبات الفوریّة مطلقاً حتی عند الوثوق بالبقاء واستمرار القدرة علی الامتثال.

وثالثاً: ان ما ذکره فی الدلیل من عدم الوثوق بالبقاء غالباً انما یصحّ فی حق الذین تقدمت بهم السنّ واشرفوا علی الشیخوخة او تلبّسوا بها، اما غیرهم وخاصّة الشباب واهل القوة والغضاضة فالغالب فیهم الوثوق بالبقاء واستمرار القدرة علی الامتثال لسنین عدیدة، إذاً فالغالب فی النّاس هو الوثوق بالبقاء فیبطل ما فرعه علی عدم الوثوق من الحکم العقلی بلزوم التعجیل فی الامتثال.

ورابعاً: ان الفوریّة بالمعنی المذکور لا تکون مخالفتها معصیة بل تجریّاً علی المعصیة فلا یترتب علی مخالفتها اثر خاص بناءً علی عدم العقاب علی التجرّی.

نعم، اذا ادّی التراخی فی الامتثال إلی الفوت ثبت استحقاق العقاب لوقوع المخالفة العملیة، ولکنه خارج عما نحن فیه.

الثانی: الاحادیث المرویّة عن المعصومین (علیهم السلام) وهی کما یلی:

الاول: ما رواه الشیخ الطوسی بسندصحیح عن ابی عبدالله (علیه السلام) قال ":قال الله تعالی: ولله علی النّاس حجّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا قال: هذه لمن کان عنده مال وصحّة "،وان کان سوّفه للتجارة فلا یسعه، وان مات علی ذلک فقد ترک شریعة من شرایع الاسلام اذا هو یجد ما یحجّ به "(۲)الحدیث.

ودلالة الحدیث علی وجوب الفور واضحة فان قوله (علیه السلام "):وان کان سوّفه للتجارة فلا یسعه "یدلّ بوضوح علی حرمة التسویف، ولا خصوصیّة للتجارة قطعاً وانما ذکرت کمثال لما یدعو للتسویف فی الغالب مما لا یکون عذراً مانعاً عن اداء فریضة الحج.

الثانی: ما رواه الشیخ ایضاً بسند موثق عن ابی عبدالله (علیه السلام)، قال ":اذا قدر الرجل علی ما یحجّ به، ثم دفع ذلک ولیس له شغل یعذره به فقد ترک شریعة من شرایع الإسلام "(۳).

وعبارة "ثم دفع ذلک "تشملصورة التأخیر بعد الاستطاعة فتدل الروایة علی وجوب الفور فی اداء فریضة الحج.

۱- ۴۴ المعتمد فی شرح المناسک ۱۲: ۳.

۲- ۴۵ الوسائل ۱۶: ۸، ابواب وجوب الحج، الباب ۶، الحدیث ۱.

۳- ۴۶ الوسائل ۱۷: ۸، ابواب وجوب الحج، الباب ۶، الحدیث ۳.

ص: ۴۹

الثالث: ما رواه الكلينى بسند موثق عن الحلبى عن ابى عبدالله (عليه السلام)، قال ":قلت له: أرأيت الرجل التاجر ذا المال حين يسوف الحج كلّ عام وليس يشغله عنه إلّا التجارة أو الدين، فقال: لا عذر له يسوّف الحج، ان مات وقد ترك الحج فقد ترك شريعة من شرايع الإسلام "(۱).

فان قوله (عليه السلام "):لا عذر له يسوّف الحج "يدل على حرمة تسويف الحج وهو تأخيره.

وهناك روايات أخرى فى هذا المضمار، وفيما ذكرناه الكفاية.

واما ما استدل به ساير الفقهاء على وجوب الفور فى الحج فهو كما يلى:

۱- قوله تعالى: واتموا الحج والعمرة لله وهذا أمر، والامر يقتضى الفور.

۲- حديث مهران ابيصفوان عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم "):من اراد الحج فليتعجل "(۲)رواه أبو داوُد باسناده عن مهران، ورواه الدارمى فى سننه ايضاً (۳).

۳- حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس: ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال ":عجلوا الخروج إلى مكّة، فان احدكم لا يدرى ما يعرض له من مرض أو حاجة "(۴).

۴- حديث ابى أمامة قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم "):من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة، أو سلطان جائر، أو مرض حابس فمات ولم يحج، فليمت ان شاءَ يهودياً أو نصرانياً "(۵).

ورواه البيهقى فى سننه ثم قال: وهذا وان كان اسناده غير قوى فله شاهد من قول عمر بن الخطاب، ثم روى عن عمر بن الخطاب انه قال ":ليمت يهودياً أو نصرانياً- يقولها ثلاث مرات- رجل مات ولم يحج وجد لذلك سعة وخليت سبيله، الحديث "(۶).

۵- روى عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) انه قال ":من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من قابل "(۷)وهو يدلّ على الفور بوضوح والا لم يكن وجه لوجوب الحج عليه من قابل.

۶- روى عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب ":لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الامطار فينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين "(۸). ودلالته على وجوب الحج بالفور عنده واضحة فلو لا وجوبه فوراً لم يكن وجه فى عدّهم غير مسلمين فانصرف عدم الحج لمن كان له جدة لا يعد مخالفة للشرع على القول بالتراخى فإن هناك سعة لاداء الواجب ما لم يدركه الموت.

۷- انه كالصوم عبادة تجب الكفارة بإفسادها فوجبت على الفور، كما وجب الصوم على الفور (۹).

۸- انه كالجهاد عبادة تتعلق بقطع مسافة بعيدة، فتجب على الفور، كما وجب الجهاد فوراً (۱۰).

۹- انه اذا لزمه الحج وأخّره اما ان تقولوا: يموت عاصياً، واما غير عاص، فان قلتم: ليس بعاص خرج الحجّ عن كونه واجباً، وان قلتم: عاص، فاما ان تقولوا عصى بالموت أو بالتأخير، ولا يجوز ان يعصى بالموت اذ لاصنع له فيه، فثبت انه بالتأخير، فدل على وجوبه على الفور (۱۱).

وقد اعترض القائلون بالتراخى على ما استدل به هؤلاء الفقهاء لوجوب الفور باعتراضات أهمّها كالتالى:

اما الأوّل: وهو الاستدلال بالآية الكريمة بناءً على دلالة الامر على الفور فقد اعترض عليه أوّلًا: بانّا لا نقبل دلالة الامر على الفور.

۱- ۴۷ نفس المصدر، الحديث ۴.

۲- ۴۸ السنن الکبری للبیهقی ۳۴۰: ۴.

۳- ۴۹ سنن الدارمی ۲۸: ۲.

۴- ۵۰ السنن الکبری للبیهقی ۳۴۰: ۴.

۵- ۵۱ سنن الدارمی ۲۸: ۲، والبیهقی فی سننه ۳۳۴: ۴.

۶- ۵۲ سنن البیهقی ۳۳۴: ۴.

۷- ۵۳ نیل الاوطار ۲۸۴: ۴.

۸- ۵۴ نفس المصدر.

۹- ۵۵ شرح المذهب ۸۷: ۷.

۱۰- ۵۶ نفس المصدر.

۱۱- ۵۷ نفس المصدر.

ص: ۵۰

وثانیاً: بأنّه علی تقدیر دلالته علی الفور فإن هنا قرینة تصرفه الی الترخی وهی "أنّ الحج عبادة لا تنال إلّا بشق الأنفس ولا یتأتّی الاقدام علیها بعینها بل یقتضی التشاغل بأسبابها والنظر فی الرفاق والطرق، وهذا مع بعد المسافة یقتضی مهلة فسیحة لا یمکن ضبطها بوقت، وهذا هو الحکمة فی اضافة الحج إلی العمر "(۱).

والجواب عنه: أن ما ذکر قرینة علی التراخی یفید عکس المدّعی فإنه علی الفور أدلّ منه علی التراخی، بل إنّه یدلّ علی الفور بالتعیین، فإنّ المراد بالفور أوّل عام الاستطاعة، والاستطاعة تتضمّن کلّ ما ذکر من المقدّمات التی یتوقف علیها الحج، فإذا کانت الاستطاعة وفق ما ذکر لا تحصل إلّا بتهیّئ هذه المقدّمات الکثیرة، فاذا حصلت لزم العجیل فی أداء الواجب خوفاً من فوات الفرصة، وعروض ما یمنع أو زوال بعض المقدّمات التی لا تتوفر بسهولة. والحاصل أنّ المقدّمات التی یتوقف علیها أداء فریضة الحج إذا کانت من التعدّد وصعوبة الحصول بحیث لا تتوفر للکثیرین إلّا مرة واحدة فی العمر ممّا اقتضی وجوب الحج مرة واحدة فی العمر- کما أشار المعترض فی کلامه- فإن هذا یقتضی لزوم اغتنام فرصة توفر المقدمات وحصول الأسباب وعدم جواز تفویت الفرصة وهذا یستلزم وجوب الفور، لا جواز التراخی.

ومن هنا یمکن أن یقال: إنه علی فرض التسلیم بعدم دلالة الأمر علی الفور لکن القرینة تقتضی دلالته علی الفور هنا، والقرینة ما ذکرناه.

أما الثانی: فقد اعترض علیه اولًا ":بأنّه ضعیف، وثانیاً: بأنّه حجّة للقائل بالتراخی، لانّه فوض فعله إلی إرادته واختیاره، ولو کان علی الفور لم یفوض تعجیله إلی اختیاره، وثالثاً: انه امر ندب جمعاً بین الأدلّة "(۲).

والجواب عن الأوّل: أنه علی فرض ضعفه یتأیّد بسائر الاحادیث الواردة فی هذا الباب، وبمجموعها تفید الاطمینان بصدور مضمونها عن النبی (صلّی الله علیه وآله وسلّم).

وعن الثانی: أنّه لیس فی الحدیث تفویض الفعل إلی ارادة المکلّف لیکون حجّة للقائل بالتراخی، بل الحدیث یفترض إرادة الحج مفروغاً عنها ویثبت وجوب التعجیل لمن یحمل هذه الصفة وهی (إرادة الحج)، وبما أنّ الامر بالتعجیل انما یناسب من اراد الحج الواجب، فانّ المتطوع بالحج لا یجب علیه اصل فعله، فکیف بالتعجیل فیه، فیکون معنی الحدیث، ان من توفرت فیه شرایط الحج الواجب فعزم علی أداء الفریضة فعلیه التعجیل فی الأداء، وهذا یعنی وجوب الفور بالحج.

وعن الثالث: ان الحمل علی الندّب انما یصحّ عند وجود القرینة علی خلاف الوجوب أو المعارض، وکلیهما منتفیان، فلا وجه للحمل علی الندب.

أما الثالث والرابع: فیعترض علیهما بضعف السند تارة واخری بأنّ المراد النهی عن تأخیر الحج الی حین الموت، ولا نزاع فی حرمته.

والجواب عن ضعف السند نفس ما اجبنا به عن الاعتراض بضعف السند علی الحدیث السابق، مع زیادة ان حدیث أبی امامة مروی بطرق متعدّدة یقوّی بعضها بعضاً، قال الشوکانی فی تعلیقه علی هذا الحدیث: وهذه الطریق یقوی بعضها بعضاً، وبذلک یتبین مجازفة ابن الجوزی فی عدّه لهذا الحدیث من الموضوعات، فان مجموع تلک الطرق لا یقصر من کون الحدیث حسناً لغیره، وهو محتج به عند الجمهور، ولا یقدح فی ذلک قول العقیلی والدارقطنی ":لا یصحّ فی الباب شیء، لأنّ نفی الصحّة لا یستلزم نفی الحسن "(۳).

وامّا عن الدّلالة، فدلالة حدیث ابن عبّاس علی الوجوب واضحة، فانّ فیها الامر بالتعجیل والامر یفید الوجوب، ولم یعلّق التعجیل فیه علی خوف عروض الموت، فیدّل علی وجوب الفور بالحج. واما الحدیث أبی

۱- ۵۸ نفس المصدر: ۹۰.

۲- ۵۹ شرح المذهب ۹۱: ۷.

۳- ۶۰ نیل الاوطار للشوکانی ۲۸۵: ۴.

ص: ۵۱

امامـة فـدلالته على وجوب الفور من جهـة الاطلاق فانه باطلاقه شامل لمن أخر الحج بغير عذر- رغم اسـتطاعته- مع عزمه على الاتيان بالحج فى السـنين المقبلة، فانه مشمول لقوله: من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة- الى قوله- فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً، فيكون دالًا على عدم جواز التأخير فى اداء فريضة الحج بغير عذر.

واما الخـامس والسـادس: فقـد يعترض عليهمـا بضـعف السـند أيضـاً وجوابه نفس مـا ذكرناه سابقاً، وبالمعارضـة مع ما دلّ على جواز التأخير، وسوف نبيّن فيما يأتى عند البحث عن ادلة القائلين بالتراخى قصور ما ادّعى كونه معارضاً عن المعارضة.

واما السابع: فقد اعترض عليه بأنّ قياس الحج بالصوم قياس مع الفارق، فان الصوم وقته مضيّق فكان فعله مضيّقاً بخلاف الحج (۱).

والجواب عنه: انه ان أريـد من التضـيق فى وقت الصوم أنّ له وقتـاً معيّنـاً فالحـجّ كـذلك أيضـاً، فليست الاوقات سواءً بالنسـبة إلى فعل الحـج بـل المتعيّن ايقـاعه فى ايـام خاصّـة. وان أريـد منه عـدم جـواز تـأخيره فهـذا عين المـدّعى فى الحـج، فنفيه عن الحـجّ مصـادرة للمطلوب.

واما الثامن: فقـد فقـد اعترض عليه أولًا ":بعـدم التسـليم بوجوب الجهاد فوراً بل الفور والتراخى فيه موكول إلى ما يراه الامام بحسـب المصلحة. وثانياً: ان فى تأخير الجهاد ضرراً على المسلمين بخلاف الحج "(۲).

والجواب عن الأوّل من الاعتراضين:

أن الكلام مبنى على القول بـالفور فى الجهـاد، امـا على تقـدير انكـاره فى الجهـاد فلا كلام. واما الجواب عن ثانى الاعتراضـين، فبأنّ القائل بالفور فى فريضـة الجهاد لا يرى ذلك مختصاً بما اذا لزم الضـرر من التأخير، بل يرى الفور حتى فيصورة القطع بعدم الضـرر فى التأخير، فيقاس به التكليف بالحجّ.

واما التاسع ":فقد اعترض عليه بانا نختار انه اذا أخرّ حتى مات يكون عاصـياً، ولكن عصيانه من جهة تفريطه بالتأخير إلى الموت، وانما جاز له التأخير بشـرط سـلامة العاقبة كما اذا ضـرب ولده او زوجته أو المعلم الصبى أو عزّر السـلطان انساناً فمات، فانه يجب الضـمان، لانه مشروط بسلامة العاقبة "(۳).

والجواب عنه: أنّ الفور لو لم يكن واجباً لم يكن وجه لعصـيانه بالتأخير حتى الموت، وسـلامة العاقبـة ليس تحت الاختيار ليعتبر شـرطاً فى التكليف، امـا الضـمان فـإنّه حكم وضـعى، ولاـ بـأس بـان يناط الحكم الوضـعى بما لا يقع تحت الاختيار بخلاف الحكم التكليفى المتنازع فيه.

أدلّة القول بالتراخى:

واحتجّ القائلون بالتراخى بعدّة أدلّة وهى:

أوّلًا: ان فريضة الحج نزلت سـنة ست من الهجرة وقد حجّ النبى سـنة عشر، وقد كان هو واصحابه موسرين بما غنموه من الغنائم الكثيرة ولا عذر لهم، فلم يكن تأخيره للحج إلّا لبيان جواز التأخير (۴).

اما ان فريضة الحج نزلت سـنة ست فلحديث كعب بن عجرة قال ":وقف علىّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالحديبيّة، ورأسى يتهافت قملًا، فقال: يؤذيك هوامّك؟ قلت: نعم، يا رسول الله. قال: فاحلق رأسك. قال: ففىّ نزلت هذه الآية: فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً من رأسه ففديه.. الى آخرها وبذلك يثبت ان قوله تعالى: واتموا الحج والعمرة لله الى آخرها نزلت سنة ست من الهجرة "(۵).

ثانيـاً: جـاء فى حـديث انس عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حينمـا جـاءه رجـل من اهل البادية فسأله قال ":يا محمّـد اتانا رسولـك فزعم لنـا أنـك تزعم أن الله أرسـلك، قـال:صـدق، الى ان قـال: وزعم رسولـك ان علينـا حـج البيت من اسـتطاع إليه سبيلًا، قال:صـدق "رواه مسـلم فيصـحيحه فى اوّل كتاب الايمان بهـذه الحروف وروى البخارى أصـله، وفى روايـة البخارى "ان هـذا الرجل ضمام بن ثعلبة، وقدوم ضمام بن ثعلبة على النبى

۱- ۶۱ شرح المذهب ۹۱: ۷.

۲- ۶۲ نفس المصدر.

۳- ۶۳ شرح المذهب ۹۲: ۷.

۴- ۶۴ نفس المصدر: ۸۸.

۵- ۶۵ نفس المصدر: ۸۸.

ص: ۵۲

(صلّی الله علیه وآله وسلّم) کان سنة خمس من الهجرة، قاله محمّد بن حبیب وآخرون، وقال غیره: سنة سبع، وقال ابو عبید: سنة تسع" (۱).

وهذا الحدیث یدل ایضاً علی وجوب الحج قبل سنة عشر وقد اخر رسول الله الحج الی سنة عشر، فیدل علی جواز التأخیر وعدم وجوب الفور بالحج.

ثالثاً: جاء فی الاحادیث المستفیضة "ان رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم) امر فی حجّة الوداع من لم یکن معه هدی، الاحرام بالحج، ویجعله عمرة "وهذاصریح فی جواز تأخیر الحج مع التمکّن (۲).

رابعاً: أن المکلّف إذا أخّر الحج- بعد الاستطاعة- من سنة الی سنة أو أکثر، ثم فعله، یسمی مؤدیاً للحج لا قاضیاًبإجماع المسلمین، ولو حرم التأخیر لکان قضاءً لا أداءً (۳).

خامساً: اذا تمکن المکلّف من الحج وأخره ثم فعله، لا ترد شهادته فیما بین تأخیره وفعله بالاتفاق، ولو حرم لردت لارتکابه المسیء (۴).

وکل هذه الادلّة التی تمسّک بها القائلون بالتراخی علیلة والتوضیح کالتالی:

أمّا الدلیل الأوّل، فالجواب عنه بوجهین:

الأول: انه لم یثبت عندنا نزول فریضة الحج سنة ست، وقد روی أنها نزلت سنة عشر فلم یتخلّل بینها وبین حجّ رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم) زمان تفوت معه الفوریّة.

واما حدیث کعب بن عجرة فلا دلالة فیه علی زمان النزول، وانّما الذی دل علیه الحدیث قول کعب ان الآیة نزلت فیه، ویمکن ان یرید بذلک أنّ الآیة حینما نزلت- وان کان نزولها متأخراً عن الحدیبیّة بسنین- نزلت فیه وفی امثاله ممّن یصابون بالعذر الذی أصیب به. وبعبارة اخری ان الظّرف لا یدلّ علی خصوص الظرفیّة الزمانیّة بل یصحّ ان یراد به الظرفیّة المورديّة، بل لعل الظرف بمعنی المورد هو الظاهر فی اکثر الروایات التی تحکی شأن النزول، وان کانت الظرفیّة المورديّة کثیراً ما تقترن بالظرفیّة الزمانیّة لکن لا ملازمة بینهما.

الثانی: سلّمنا نزوول اصل فریضة الحجّ قبل عام حجّة الوداع بسنة أو سنین، لکن تشریع اصل فریضة الحج لا یعنی وجوبها الفعلی علی المسلمین.

بل یتوقف وجوبها الفعلی علی تشریع تفاصیل مناسکه واجزائه وأرکانه، ولم یکن یمکن الاکتفاء فی بیان تفاصیل مناسک الحجّ بتفسیرها النظری، لکثرة مناسکه ودقّة أحکامه وکثرة فروعه وأهمیّة الآثار المترتبة علیه بل کان من الضروری فی تشریع تفاصیل مناسک الحج وتعلیمها للمسلمین أن یقوم رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم)، بتفسیر الحج تفسیراً عملیاً تطبیقیّاً، وذلک بأنْ یحجّ بنفسهصلوات الله علیه وآله ومعه المسلمون عامّة لیتعلموا احکام الحج وفروعه الدقیقة الکثیرة من خلال المشاهدة العملیة والمعایشة المیدانیة.

وهذا ما قام به رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم) فی حجّة الوداع، ولم یکن من الممکن القیام بهذا الحج التشریعی قبل التطهیر البیت والبقاع التی یراد اقامة الحج فیها لله من رجس وجود المشرکین، ولم یطهر البیت والبقاع المبارکة الا فی سنة تسع عندما نزلت آیة البراءة.

فقد روی الشعبی عن محرز بن أبی هریرة عن ابی هریرة قال: کنت انادی مع علی (علیه السلام) حین اذن المشرکین، فکان اذاصحلصوته فیما ینادی دعوت مکانه قال: فقلت یا أبت أیّ شیء کنتم تقولون؟ قال: کنا نقول: لایحج بعد عامنا هذا مشرک ولا یطوفن بالبیت عریان، ولا یدخل البیت إلّا مؤمن، ومن کانت بینه وبین

۱- ۶۶ شرح المذهب ۸۹: ۷.

۲- ۶۷ نفس المصدر.

۳- ۶۸ نفس المصدر.

۴- ۶۹ نفس المصدر.

ص: ۵۳

رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم) مدة فان أجله إلی اربعة أشهر، فاذا انقضت الاربعة أشهر فان الله بریء من المشرکین ورسولُه (۱).

ورواه مع شیء من الاختلاف الدارمی فی سننه (۲).

وقد جاء فی الکتاب العزیز قوله تعالی مخاطباً إبراهیم وولده اسماعیل أن طهّرا بیتی للطائفین والعاکفین والرّکع السجود (۳). ممّا یؤید أنّ الحج الکامل متوقف علی طهارة بیت الله من کل ما یدنس طهارته، والمشرکون نجس حسبما ورد فی الکتاب العزیز فهم ممّا یجب تطهیر بیت الله سبحانه منهم، مقدّمة لطواف الطائفین وصلاة المصلّین.

اذاً فقد حجّ رسول الله فی أول سنة تمکن فیها من الحج من غیر تأخیر، ولیس فی حجّه (صلّی الله علیه وآله وسلّم) ما یقوم حجة للقول بالتراخی.

واما الدلیل الثانی:

فالجواب عنه: أولًا: أنه لم یثبت کون قدوم ضمام بن ثعلبة علی النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلّم) سنة خمس أو سبع، بل قیل: إنه کان سنة تسع، وقد حجّ رسول الله سنة عشر فلم یثبت تأخر حجّ رسول الله عن أوّل عام الاستطاعة بعد التشریع.

وثانیاً: ما ذکرناه فی وجه الثانی من الجواب علی الدلیل الأوّل یرد فی الجواب علی هذا الوجه ایضاً.

واما الدلیل الثالث:

فجوابه واضح، فانّ امر رسول الله من لم یکن معه هدی ان یجعل حجّه عمرة لا دلالة فیه علی جواز تأخیر الحج فضلًا عنصراحته فی ذلک، بل الوجه فی امر رسول الله- کما یبدو من ظاهر الحدیث- فقدان من لم یکن معه هدی لشرط الاستطاعة.

واما الدلیل الرابع:

فالجواب عنه: ان الوجه فی تسمیة من اخّر الحج عن عام الاستطاعة ثم حج بعد ذلک مؤدیاً للحجّ، أنّ الحج فیما بعد عام الاستطاعة اداء لفریضة الحج فی وقتها بعد فوات الوقت الأول فانّ الواجب هو اداء الحجّ فی العام الأوّل من الاستطاعة فان عصی وجب علیه اداؤه فی العام الثانی وإلّا ففی الثالث وهکذا، ولیس ذلک من باب القضاء لان معنی فوریّة الوجوب انحلال الواجب إلی عنصرین تعلّق بهما الأمر: الأول: ذات الواجب ووقته مدی العمر، والثانی: ایقاعه فی الزمن الأوّل بعد الاستطاعة، وهذا الثانی ینطبق علی کل عام أوّل بعد تعلّق التکلیف وقبل الامتثال، فما لم یمتثل یبقی وجوب ایقاع الفریضة فی أوّل عام باقیاً متوجهاً إلیه، فإذا أدّی الفریضة سقط الوجوب بکلا عنصریه لتحقق المطلوب.

وأمّا الدلیل الخامس:

انّ الفرض المذکور فی الدلیل یتضمّن افتراض العزم علی الاداء فی المستقبل، وفی هذا الفرض وان کان التأخیر اثماً یعاقب علیه لو لم یجبر بالتوبة، ولکن لیس کل اثم یوجب ردّ شهادة مرتکبة، فلا یتوقف قبول الشهادة علی عدم ارتکاب الاثم مطلقاً، وانّما الاثم المانع عن قبول الشهادة هو الاثم المقترن بالاصرار أو ما یعدّ کبیرة موبقة وعد علیها بالنّار أو غیر ذلک من القیود المعتبرة فی الاثم الموجب لردّ الشهادة.

وقد تحصل من مجموع ما ذکرناه ان الحق کون الحج واجباً فوریّاً یأثم من توفرت فیه شرایط الوجوب بتأخیره عن اول عام الاستطاعة بغیر عذر.

۱- ۷۰ مجمع البیان للطبرسی ۳: ۵.

۲- ۷۱ سنن الدارمی ۶۸: ۲.

۳- ۷۲ البقرة: ۱۲۵.

ص: ۵۴

ص: ۵۵

ص: ۵۶

الحجاز والحَرَمان الشّريفان فى القرن الثّالث عشر

ص: ۵۷

الحجاز والحَرَمان الشّریفان فی القرن الثّالث عشر

تألیف: جعفر شهیدی

لقد کان للشعب الإیرانی- ولا یزال بحمد الله- منذ اعتنق الاسلام؛ اهتمام کبیر بالمواظبة علی إقامة شعائر هذا الدین الحنیف وأداء مناسکه، والقیام بفرائضه بشوق بالغ وإیمان راسخ وقلب سلیم. وأداءُ فریضة الحجّ أَحد هذه المناسک المحببة إلیهم، فقد شدّوا الرحال وتحملوا أعباء السفر، واقتحموا المهالک والمخاطر، وجادوا بأموالهم وجاهدوا بأنفسهم عن طیب خاطر، ولذة مفرحة فی سبیل الله، وإقامة أرکان الشرع الحنیف، وبلوغهمصورة المسلم الکامل.

وکان من الطبیعی- أن نری علی مدی التاریخ الإسلامی- أن یحمل هذا التیار المتصل، عدّة من العلماء والشعراء والکتاب، الذین نالوا هذا الفوز الکبیر، وأنهم سجلوا هذه الرحلات، وقیدوا تلک المذکرات ونظموا القصائد عن أسفارهم وما شاهدوه فی الطریق، أو من التقوا به، ودار بینهم وبینه الحوار، حول شتی المسائل: من المباحث الدینیة أو الاجتماعیة أو الاقتصادیة أو الانسانیة، أو ما حلّت بهم من المکاره والأخطار فی الطریق، أو من أثر رؤیة هذه المشاهد الشریفة فی نفوسهم وما تحتویه من رموز التوحید والاخلاص، أو تعارف المسلمین بعضهم علی بعض. ولما کانت هذه الرحلات أو بعبارة أخری هذه الوثائق والمستندات التاریخیة، من شأنها أنها تلقی أضواء علی زوایا تاریخنا الاسلامی، فتمدنا بالکثیر من المعلومات الهامة فی مناحی العلم المختلفة وخاصة عن الحیاة الاجتماعیة أو الثقافیة أو التجاریة، التی کان یقضیها هذا القطر الإسلامیّ الشقیق فی ذلک الوقت، هذا مضافاً إلی الناحیة الفنیة، التی تصورها الصورة الرائعة التی یمثلها الشاعر منهم فی قصیدته، أو الأدیب فی رسائله، مما تهیج الطباع وتهز النفوس، وتخفق لها القلوب. ولعل کثیراً من المطلعین خبیر بما نظمه الشاعر الایرانی "خاقانی الشروانی "فی منظومته التی سماها "تحفة العراقین "التی یصف فیها رحلته إلی مکّة المکرمة؛ فیقدم لنا معلومات من حیاة العرب الاجتماعیة فی القرن الخامس من الهجرة، حیث یصف الرکب فی ترحاله ونزوله، وموارد الماء التی یُستقی منها للانسان والدواب، ویصف الطبائح ووقوف النوق علیها، والمواقیت والحرمین، ومنی وعرفات والمشعر، والکعبة- شرّفها الله- وکسوتها، والحجر والأرکان، وزمزم وازدحام الحاج علیها، کما أنه یصف مدینة النبیِّ (صلّی الله علیه وآله وسلّم) ومسجد الرسول، وإقامة الجُمعة والخطبة والخطباء، مما یطول بنا ذکره. فیأخذ بید القارئ ویطوف به فی أجواء من عالم القدس، ویریه ما لاـ عین رأت ولاـ أذن سمعت، فیتوق قلب کل مسلم إلی زیارة هذه الأماکن، ویکاد المستمع یطیر إلی الحرمین الشریفین جریاً وراء فؤاده. أو بما کتبه الرحالة "ناصر خسرو القبادیانی "الشاعر الفارسی، الذی زار الحرمین الشریفین فی القرن الخامس من الهجرة النبویة، حیث یصف لنا المسجدین بأدقصورة، ویبین مساحتیهما، ویصف الکعبة وکسوتها والحجر ومنی وزمزم، وشوارع مکة وحماماتها، وسوق العطارین، وعدد سکان البلد، وسعر القمح، والقحط الذی أصاب البلد فی تلک السنة.

هذا ولا یخلو کلُّ قرن من القرون من رحلات، أو مذکرات کتبها الرحالة أو الحجّاج من إیران، لم تزل مخطوطاتٍ تخزن فی مکتباتنا بطهران ومشهد وتبریز وغیرها من البلدان، مما نتمنی- بإذن الله تعالی- أن تقدم فی

ص: ۵۸

صورة جيدة لاخواننا العرب المسلمين. فهذا التراث العظيم- كما قلت- يحتوى على معلومات هامة مما يتعلق بالحجاز عامة، وبالحرمين الشريفين خاصة.

وحيث إن بحثى المتواضع يتعلق بالقرن الثالث عشر الهجرى- التاسع عشر الميلادى- فلا أجد لى الحقَّ أن أتجاوز عما كتبه الرحالة فى هذا القرن. فإنّ فى أيدينا من رحلات هذا القرن أكثر من عشر رحلات مخطوطة فى المكتبة الأهلية ومكتبة مجلس النواب وإليكم أسماء بعضها:

۱- الرحلة التى ألّفها ضياء الدين آل كيوان قارئ، كتبها عام ۱۲۲۹ ه-. ق، (مكتبة مجلس النواب).

۲- الرحلة لمحمد حسن خان اعتماد السلطنة ۱۲۶۳ ه-. ق، (المكتبة الرضوية، مشهد).

۳- الرحلة، لمحمد على فراهانى عام ۱۲۶۳ ه-. ق (مكتبة مجلس النواب).

۴- الرحلة التى كتبها سيف الدولة محمد بن فتح على شاه القاجار عام ۱۲۷۹ ه-. ق، (المكتبة الأهلية).

۵- الرحلة، لأحد أقرباء ناصر الدين شاه القاجار، دونها عام ۱۲۸۸ ه-. ق، (المكتبة الأهلية).

۶- الرحلة، لأحد مقربى ناصر الدين شاه القاجار أيضاً، كتبها عام ۱۲۹۶ ه-. ق، (المكتبة الأهلية).

وهناك رحلات منظومة أيضاً كرحلة ميرزا جلاير (المكتبة الأهلية)، ورحلة مشترى الخراسانى وغيرها (۱).

وهناك رحلتان أُخريان كُتبتا فى مستهل القرن الرابع عشر، إحداهما لميرزا على خان أمين الدولة، والأخرى لمخبر السلطنة هداية ولهاتين الرحلتين أهمية خاصة، حيث إن مؤلفيهما من الأدباء الفضلاء ومن رجال الدولة والسياسة. وقد تقلّد كلٌّ منهما منصب الوزارة، كما أن كلًا منهما تولى رئاسة الحكومة أيضاً. وهاتان الرحلتان مطبوعتان، ولكن لم تترجما إلى اللغة العربية بعد.

كلّ هذه الرحلات التى قدمناها فى مجموعها،صورة من الحياة الاجتماعية فى القرن الثالث عشر لسكان الحجاز، فتصف لنا أول ما تصف مثلًا لقاءات الحجاج بمطالع المروءة، واستقبال أهل الأحياء لهم، كالنساء اللاتى يستقبلن القوافل، ويعرضن عليهم الخبز والليمون، وتصف أزياء هن بأنها شملة زررقاء من الابريسم مطرّزة بالذهب و "جلابتون، "أوالأطفال الذين ينشدون حول القوافل:

سيدى اعط من زادك الله يعطى مرادك أو تصف طائفة تستقبل الحجاج حين دخولهم مكة، فتعطى لكل واحد تمرتين وفنجان من ماء زمزم، كما أنها تصف هجوم الأشرار على القوافل ونهبهم الأموال وقتلهم الأنفس أحياناً كما أنها تسجل أسعار الأمتعة والأرزاق وأجرة الدور، مما يدل على الوضع الاقتصادى، ومصدر الداخل لطبقة معينة، ومستوى معيشتهم فى داك العصر. أو ما يصفون به مياه" ينبع "أنها من ماء المطر الذى يخزن فى سراديب، فينقلب لونه إلى الزرقة، وريحه إلى العفونة، فينصرف الضمآن إلى شرب القازوز بدل الماء. وتذكر وصف الدراويش الذين يتجولون فى شوارع مكة ليلًا، وينشدون القصائد بصوت عالٍ فلا يتمكن الانسان أن ينام من أصواتهم التى تشق أجواء الفضاء.

كل هذا لابد من أن يدرس؛ لكى يعلم مدى ما وصل إليه هذا القطر الشقيق المبارك، من السعة فى العيش والرغدة فى الحياة، وبلوغ الحضارة فى ظل الأمن والسلام. ونتعرض الآن إلى بعض ما جاء فى رحلة أمين الدولة ورحلة مخبر السلطنة هدايت:

جدة: الغالب فى أبنية جدة بنايات ذات ثلاثة طوابق مبنية من الحجارة، وصحن العمارات مفروشة بالرخام وفيها حياض يجرى فيها الماء من النافورات. واعتقد أن بعض هذه الدور يقارن الدور التى رأيتها فى البلاد الغربية. ومن المعالم الأثرية، التى زرتها فى جدة، قبر طوله خمسون خطوة، يقال إنه قبر أُمّنا حواء، وإلى جانبهاصورة، ومن الغريب أن هذه الصورة هيصورة لنصف جسدها من ظهرها إلى رأسها، وإننى كدت أطير فرحاً وشوقاً لما نزلت من البحر إلى هذه الأراضى المقدسة، واغرورقت عيناى بالدموع حينما دخلت جدة، ولكن لما أرانى دليلى شكل هذا القبر وتلك الصورة المضحكة زال عن قلبى كل الخضوع وغلبنى الضحك من رؤية تلك الخرافة ..

مكة: أرض مكّة مكسوة بالرمال فيصعب على الدواب السير عليها، ولذلك عبدوا بعض الممرات، التى يصعب العبور منها، بالحجارات المنحوتة.

تقع مكة فى الجنوب الشرقى من البحر الأحمر، بينها وبين المدينة ۸۰ فرسخاً، ويبلغ عدد سكانها- من القاطن والمجاور- ستين ألفاً، ولها ثلاثة أسوار كل سور داخل الآخر، وشوارع البلد متسعة، ولكن البيوت لاصحن لها.

ويصف أمين الدولة دور مكة فيقول: الدار التى نزلنا فيها دار جميلة ولها أزر من الرخام المصنوع، وفيه حياض عليها رؤوس الأسود وسائر الحيوانات، يجرى منها الماء فى الحوض، ولا يوجد فى كثير من البلدان الإسلامية دور جميلة كهذه ولا فى بعض البلدان الغربية أيضاً.

المسجد: يقع المسجد فى وسط البلد، وطوله ۴۰۰ ذراع وعرضه ۳۰۴، فتبلغ كل المساحة ۱۲۱۶۰۰ ذراع، والكعبة- شرّفها الله- فى وسط البيت. والمسجد غير مسقوف، إلا أنه يحاط بالايوانات المسقوفة من كل جانب، والسقف قائم على ۱۳۴ أسطوانة. وجدران المسجد مبنية من الحجارة السوداء. وللمسجد ۱۸ باباً، منها باب النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) على الجانب الشرقى، وعلى الجانب الأيسر منه زمزم ومقام حنبل، ومقام مالك وراء البيت، ومقام الحنفى على جانب الشمالى، وأما الشافعى فلا مقام له.

كسوه الكعبة: وهى من الحرير الأسود مزركشة، تهدى كلّ سنة من جانب الموكب المصرى، ففى يوم عيد الأضحى، يدخل أمير الحج المصرى فى المسجد وتدق الطبول أمامه وينفخ فى الأبواق، فيقف عند الكعبة ويأتى عشرون خادماً سوداً فيخلعون الكسوة القديمة ويعقلون الجديدة عليها، وتهدى الخليعة القديمة للشريف، وهو يهدى قطعاً منها لذوى الشخصيات. يقول هدايت أهدى لى الشريف قطعة منها، وعليهاصورة وردة كتبت من سورة الاخلاص وهى الآن زينة مكتبتى.

الصفا والمروة: وهما نهدان على طريق باب النبى، بينهما سبعون خطوة (۲)، والأرض غير مسطحة، فاالساعى لابد من ان يتحمل مشقة كثيرة لا محالة. ولما كان بعض الحجاج يسعى على ظهر الدابة فكثيراً ما ترى الأرض ملطخة بالأرواث والقذارات، والروائح الكريهة هنا لا يمكن أن تتحمل.

عرفات: والحق أنها عرصات من كثرة الازدحام واللغط والضوضاء والضجيج. وفيها قناة تجرى على وجه الأرض؛ والشجر الطرفاء هناك كثير. وفى جبل عرفات قرود كثيرة، سمعت أن بعض الحجاج يصطادونصغارها ليذهبوا بها إلى أوطانهم وهذا أمر غريب؛ لأن الصيد فى مكة محرم وخاصة للمحرم فى عرفات.

منى: تقع منى بين الجبلين وفيها ميدان فسيح يضرب الحجاجُ فيه خيامهم. وهناك ماء يجرى من قناة تعرف بقناة زبيدة، يقال إنّ زبيدة زوجة هارون الرشيد العباسى أجرته فيها. وفى منى تقام أسواق الهند والمغرب والروم لمدة ثلاثة أيام تعرض فيها أمتعة هذه البلاد.

ونحرنا بمنى فى يوم العيد، ومسألة النحر هناك مؤسفة جداً، حيث إن هناك يذبح حوالى ألف من غنم وجمل، ثم تدفن جثثها تحت التراب لئلا تفسد. فلماذا لا يقوم فقهاء المسلمين وزعماؤهم باتخاذ تدبير بشأن هذا؟.

۱- ۱ راجع فهرس المخطوطات فهرست نسخه هاى خطى، أحمد منزوى، ۴۳۰: ۶- ۴۳۴.

۲- * كذا بالأصل، والمعروف أن المسافة بين الصفا والمروة أكثر بكثير من "سبعين "خطوة. المحرر.

ص: ۵۹

والقذارة هنا شيء لا يوصف. والحقيقة أن المسلم لابد من أن يخجل حينما يرى أن معبداً من معابد المسلمين يكون بهذه الصورة، أفٍ للحجاج لقصورهم وأفٍ لزعماء المسلمين لتقصيرهم.

وفى منى يوقدون المصابيح ليلتين؛ ليلة الحادى عشر من ذى الحجة، وهذه الليلة تختص بالشيعة، وليلة الثانى عشر منه وهى تختص بالسنة. ويقف العسكر الشامى فى هذه الليلة فى منى بجانب، والعسكر المصرى بجانب آخر، ويبلغ عددهم أربعمئة خيال. ووراء العسكرين يقف ألفا جندى يطلقون البنادق والمدافع والمسدسات لمدة ساعتين. أعتقد أن البارود الذى يصرف فى هاتين الليلتين، لا يصرف فى أى ميدان من ميادين الحرب.

المدينة: قطعنا المسافة بين مكة والمدينة فى عشرة أيام. وفى اليوم العاشر من محرم، لما عبرنا عقبةصغيرة بدا سواد المدينة. وكان على جانبنا الأيسر مسجد الشجرة، ويقع فى أرض سهلة وهو ميقات أهل المدينة وتستحب فيه ركعتان، ويقول أمين الدولة: ورأيت قبة من بعيد، فسألت دليلى: هل هناك مسجد الشجرة؟ قال: لا. لأنه واقع فى الطريق السلطانى، ولكن القبة الخضراء التى تراها هى قبة مسجد النبى (صلّى الله عليه وآله وسلّم). فأمرت أن يوقف العمارى فنزلت وأعطيت ليرات للمكارى شكراً، وأخذت أمشى، فقال دليلى الطريق بعد ولعلك تتعب، قلت: كلا. فكأنى الآن أمشى على الحرير والاستبرق. وفى المدينة أجّرنا بيتا بثلاثة ريالات فرنسية لكل يوم، وذهبنا إلى المسجد قبل الغروب بنصف ساعة، فقيل لنا لا يسمح للأعاجم أن يدخلوا المسجد بعد العصر. فذهبنا إلى البقيع فلم يؤذن لنا هناك بالدخول أيضاً.

مسجد النبى (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أقصر من المسجد الحرام بكثير، والقسم الأعظم منه مسقوف، والمسجد مبنى من الحجارة والآجر. بناه الملك الأشرف "قايتباى "من سلاطين الشركس. وللمسجد تسعة أبواب منها باب الرحمة، وباب التوسل، وباب النساء، وباب جبرئيل، وباب قايتباى. وفى المدينة ذهبنا إلى سفح جبل أحد، فهناك كان مقتل حمزة عمّ النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والشهداء الذين استشهدوا فى الغزوة المعروفة بغزوة أحد. وذهبناإلى مسجد قبا وفيه تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة. وفى طول الطريق من المدينة إلى قبا كانت بساتين النخل تتوالى، وهذا الطريق يقطعه الراكب فى عشرين دقيقة. والأراضى حول المدينة قريبة إلى الماء، حيث يحفر البئر فيها فى أكثر المواقع. ولما أردنا أن نرحل من المدينة حفروا فى أحد المنازل الأرض وظهر الماء فى عمق لم يكن أكثر من ذراع، حيث تمكنوا من الاستسقاء لثلاثة آلاف بعير وأخذوا الماء لطريقهم أيضاً.

ص: ۶۰

حدود عرفات. مزدلفة. منى

ص: ۶۱

حدود عرفات. مزدلفة. منى

تأليف: حسن الجواهرى

الحمدلله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمّد وآله الطّيبين الطاهرين وصحبه الميامين.

إنّ البحث الذى نريد الكتابة عنه هو بحثٌ تاريخىٌّ جغرافىٌّ يكون موضوعاً لأحكام شرعيّةٍ كثيرة، ألا وهو تحديد (عرفات، مزدلفة، منى) وقد ذكر الفقهاء الأحكام الكثرة الواردة على هذه الموضوعات الثلاثة، ولإن كان الموضوع قد حدّده الشارع المقدّس فى الروايات الواردة عن المعصوم (عليه السلام)، إلّا أنّ المصداق لهذا المفهوم لا بدّ من أخذه من أهل الخبرة فى تعيين ما حدّده الشارع، وعلى هذا فنحن بحاجة:

أوّلًا: إلى ما حدّده الشارع المقدّس كمفهوم لهذه الألفاظ الثلاثة.

وثانياً: إلى تعيين هذه المواضع إمّا من شياع أهل الخبرة إذا اختلفوا فى تعيين المصداق، أو لم يختلفوا حيث أنّه يفيد علماً أو اطمئناناً.

ولا يخفى أنّ القاعدة عند الشكّ فى تعيين المصداق تقتضى الاقتصار على القدر متيقّن؛ لقاعدة الاشتغال اليقينى الذى يستدعى الفراغ اليقينى، بمعنى أنّ مشكوك الموقفيّة أو الموضعيّة يوجب الشك فى الامتثال الذى حدّد فى هذه الأمكنة، فتجرى القاعدة.

ولا بأس بالتنبيه إلى أنّنا لا نبخل ببعض الاشكالات والأبحاث الفقهيّة التى تتعلّق بهذه الدراسة. فنقول وبالله التوفيق.

أوّلًا- حدود عرفات:

إنّ عرفات منطقة تقع شرقىّ مكّة بحوالى ۲۲ كم وهى سهل واسع منبسط مُحاط بقوس من الجبال يكون وتره وادى عَرَفَة، فمن الشمال الشرقى يُشرف عليها جبل أسمر شامخ وهو (جبل سعد) ومن مطلع الشمس يشرف عليها جبل أشهب أقلّ ارتفاعاً من سابقه ويتّصل به من الجنوب وهذا يسمى (مِلْحه)، ومن الجنوب تشرف عليه سلسلة لاطية سوداء تسمّى (امّ الرضوم) أمّا من الشمال إلى الجنوب فيمرّ وادى عَرَفَة (۱).

وقد ذكرت الروايات حدود عرفات ممّا يلى الحرم، حيث إنّه هو الذى يحتاج إلى تحديد، أمّا الجهات الثلاث الأُخرى فكأنّها لا تحتاج إلى تحديد؛ لوجود سلسلة الجبال التى تقطع بين عرفات

۱- ۱ معالم مكة التأريخيّة والأثريّة: ۱۸۲، البلادى عاتق بن غيث، مكّة المكرّمة، دار مكّة، ۱۴۰۰ ه-- ۱۹۸۰ م.

ص: ۶۲

وغيرها. فقالت الروايات وتبعها الفقهاء: بأنّ الحاج لو وقف "بنَمِرَة أو عَرَفَة، أو ثوية أو ذى المجاز أو بجنب الأراك أو غير ذلك ممّا هو خارج عن عَرَفَة لم يجزه، "فمن الروايات:

۱-صحيح معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال "فإذا أنتهيت إلى عَرَفات فاضرب قباك بنَمِرَة وهى بطن عُرَنَة دون الموقف ودون عُرَنَة... وحدّ عَرَفَة من بطن عُرَنَة وثوية ونَمِرَة إلى ذى المجاز، وخلف الجبل موقف "(۱).

۲- خبر سماعة عن الإمام الصادق (عليه السلام "):واتّقِ الأراك ونَمِرَة وهى بطن عُرَنَة، وثوية وذى المجاز فإنّه ليس من عَرَفَة ولا تقف فيه "(۲).

۳- خبر إسحاق بن عمّار عن الإمام الكاظم (عليه السلام). قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم "):ارتفعوا عن وادى عُرَنَة بعرفات "(۳).

أقول: إنّ هذه الأماكن الخمسة هى حدود عَرَفَة من ناحية الغرب (الحرم) وهى راجعة إلى أربعة كما هو المعروف من الحدود، لأنّ نَمِرَة هى بطن عَرَفَة كما روى فى حديث معاوية المتقدّم عن الإمام الصادق (عليه السلام).

شرح الألفاظ:

۱- نَمِرَة:

بفتح النون وكسر الميم وفتح الراء المهملة (وهى بطن عُرَنَة) كما ذكرت الروايات المتقدّمة.

وقد ذكر ابن تيمية عن نَمِرَة كانت قرية خارجة عن عرفات من جهة اليمن، فيقيمون فيها إلى الزوال كما فعل النبى (صلّى الله عليه وآله وسلم) ثمّ يسيرون منها إلى بطن الوادى، وهو موضع النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) الذيصلّى فيه الظهر والعصر وخطب، وهو فى حدود عَرَفَة لبطن عُرَنَة وهناك مسجد يُقال له مسجد إبراهيم، وانّما بُنى فى أوّل دولة بنى العبّاس."

وقال ابن القيّم "نَمِرَة قرية غربىّ عرفات، وهى خراب اليوم، نزل بها النبى (صلّى الله عليه وآله وسلم) حتّى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحّلت له، ثمّ سار حتّى أتى بطن الوادى من ارض عَرَفَة فخطب الناس، وموضع خطبته لم يكن من الموقف، فإنّه خطب بعُرَنَة، وليس من الموقف، فهو (صلّى الله عليه وآله وسلم) نزل بنَمِرَة وخطب بعُرَنَة ووقف بعَرَفَة "(۴).

والمُراد من المسجد الذى يسمّى مسجد إبراهيم فيما ذكره ابن تيمية، هو المسجد القديم الذى اختلف فيه أنّه من عرفات أو خارجها على ثلاثة اقوال:

۱- فقدذكر إمام الحَرَمين الجوينى والقاضى حسين والرافعى وجماعة من الخراسانيّين قالوا: إنّ مقدّم المسجد- القديم- فى وادى عُرَنَة ومؤخّره فى عَرَفات، ويتميّز ذلك بصخراتٍ كبار فُرِشت هناك.

۱- ۲ الوسائل: ۱۰، الباب ۹ من أبواب إحرام الحاجّ، الحديث ۱، وذيل الحديث باب من أبواب إحرام الحاجّ، الحديث ۱.

۲- ۳ نفس المصدر، الباب ۱۰، الحديث ۶.

۳- ۴ نفس المصدر، الباب ۱۰، الحديث ۴.

۴- ۵ هامش كتاب الإرتسامات اللِطاف، أرسلان الأمير شكيب بن حمود ۱۳۶۶ ه-، تعليق عبدالرزّاق محمّد سعيد حسن الطائف: مكتبة المعارف: ۵۸- ۶۵، عن هداية الناسكين، تحقيق الدكتور الفضلى: ۱۷۵.

ص: ۶۳

۲- قال فی البحر العمیق نقلًا عن الطبرابلسی وغیره ":إنّ جمیع المسجد- القدیم- من عَرَفَة وإن جداره الغربیّ لو سقط، لسقط علی بطن عُرَنَة."

صرّح کثیرٌ من علماء الإسلام بعدم دخول المسجد القدیم فی عَرَفَة تبعاً للروایات المشتملة علیصفة حجّ رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلم) فقد روی معاویة بن عمّار حجّ النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلم) فقال: حتی انتهی إلی نَمِرَة وهی بطن عُرَنَة بحیال الأراک، فضرب قبّته وضرب الناس أخبیتهم عندها، فلمّا زالت الشمس خرج رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلم) ومعه قریش وقد اغتسل وقطع التلبیة حتّی وقف بالمسجد، فوَعَظ الناس وأمَرَهم ونهاهم، ثمّصلّی الظهر والعصر بأذانٍ واحد وإقامتَین، ثمّ مضی إلی الموقف فوقف به "(۱).

وقد قال الشافعی (وهو مکّی قَرَشی) فی الْأُمّ ":وعَرَفَة ما جاوز وادی عُرَنَة الذی فیه المسجد، ولیس المسجد ولا وادی عُرَنَة من عَرَفَة."

وقال النووی فی الایضاح ":واعلم أنّه لیس من عرفات وادی عُرَنَة ولا نَمِرَة ولا المسجد المسمّی مسجد إبراهیم- یُقال له أیضاً مسجد عُرَنَة- بل هذه المواضع خارجة عن عرفات علی طرفها الغربیّ ممّا یلی مُزْدَلِفَة."

أقول: إنّ القاعدة التی ذکرناها فی أوّل البحث فی خصوص ما إذا اختلف أهل الخبرة فی کون المسجد من عَرَفات أو خارج عنها، فإنّ المدار علی الشیاع الذی یفید الاطمئنان بأنّ المسجد لیس من عَرَفَة، علی أنّ ظاهر الصحیحة المتقدّمة أنّه خارج عن موقف عرفات، کما هو الأحوط لهذه العبادة العظیمة.

ومساحة ضلع هذا المسجد القدیم من مبتدئه من الناحیة الغربیّة إلی منتهاه من الناحیة الشرقیّة (مئة ذراع وثلاث وستّون ذراعاً) کما ذکره الأزرقی فی تأریخ مکّة، وأنّ مساحة ضلعه من رکنه الشمالی الشرقی إلی الرکن الجنوبی الشرقی (مئتان وثلاث عشرة ذراعاً) (۲).

ولکن حصلت زیادات علی القدر القدیم للمسجد. فإن کانت هذه الزیادة لجهة المشرق فقد دخلت هذه الزیادة فی عَرَفَة کما قال البعض وهو القشیری، فقدقال ":والمسجد- أی القدیم- الذی یصلّی فیه الإمام الیوم یوم عَرَفَة هو فی بطن عُرَنَة فإذا خرج منه الإنسان یرید الوقوف فقدصار فی عَرَفَة."

ولکن إذا أخذنا بهذا القول الشائع والمشهور، وقلنا: إنّ المسجد القدیم لیس من عرفات، وقدصلّی النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلم) الظهر والعصر فیه، فسوف تواجهنا مشکلة ینبغی حلّها، وهذه الشکلة عبارة عن القول بعدم وجوب الوقوف فی عَرَفَة من أوّل الزوال إلی الغروب اختیاراً، بل یکفی الوقوف بعَرَفَة بعد الزوال بمقدار ما یغتسل ویصلّی ویخطب ویذهب إلی الموقف. بینما ذُکر أنّ وقت الاختیار فی الوقوف بعَرَفَة هو من زوال الشمس إلی غروبها وأنّ الرکن هو المسمّی وکأنّ هذا من البدیهیّات، فقد ذکر الشهید الأوّل والثانی فی کتاب اللُمعة الدمشقیّة وشرحها بأنّ من الواجبات "الوقوف بمعنی الکون بعَرَفَة من زوال التاسع إلی غروب الشمس مقروناً بالنیّة المشتملة علی قصد الفعل المخصوص متقرّباً بعد تحقّق الزوال بغیر فصل، والرکن من ذلک أمر کلّی وهو جزءٌ من مجموع الوقت بعد النیّة ولو سائراً، والواجب الکل "(۳). وقدصرّح غیر واحدٍ من الفقهاء بذلک، بل فی المدارک نسبته إلی الأصحاب، فیجب مقارنة النیّة للزوال لیقع الوقوف بأسره بعد النیّة، وإلّا فات جزءٌ منه، ثمّ لو أخّر أثم إلّا أنّه یجزی کماصرّح به فی الدروس (۴).

وهذه المشکلة وإن لم تُحلّ بناءً علی وجوب الوقوف من الزوال إلی الغروب، إلّا أنّها لا تعیّن القول القائل بوجوب مسمّی الوقوف فی عَرَفَات فقط، فإنّ هذا القول یدفعه وجوب البقاء إلی الغروب وحُرمة الخروج من عَرَفات قبله، والکفّارة لِمَن تعمّد ذلک، ووجوب العَود إلی الموقف لو خرج إذا کانت الشمس لم تغرب.

وقد تحلّ هذه المشکلة بأحد حلَّین:

الحلّ الأوّل: (بناءً علی وجوب الوقوف ما بین الحدَّین) بقولنا: إنّ المراد من الوقوف فی عَرَفَة هو الوقوف العرفی الذی تکون مقدّماته

المشرفة على الوقوف محسوبة منه، وعلى هذا تكون مقدّمات الوقوف المشتملة على الغسل والصلاة والخطبة والتهيّؤ للوقوف من الوقوف.

الحلّ الثانى: عدم وجود دليل يثبت وجوب الوقوف ما بين الحدَّين، بل ذكر ذلك بعض الفقهاء، وأمّا الدليل الذى ذكر لنا حجّ النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) فهو يدلّ على أنّ الوقوف يكون بعد الظهر بساعة مثلًا إلى غروب الشمس، وهذا الحلّ الثانى هو الأوفق، إذ إنّ الحلّ الأوّل وإن كان يثبت أنّ مقدّمات الوقوف من الوقوف، إلّا أنّه لم يثبت أنّ الوقوف كان فى عَرفات.

قرائن على أنّ نَمِرَة من عَرَفَات:

وإلى هنا كنّا نؤيّد القول القائل بأنّ نَمِرَة هى خارجة عن حدود عَرَفَات كما ذكرت دلك الروايات، ولكنْ هناك قولٌ آخر يبيّن أنّ نَمِرَة من عَرَفَات لكنّها خارج موقف الدعاء، وسوف نذكر بعض القرائن على ذلك:

۱- ما قاله فى القاموس ":إنّها (أى نَمِرَة) موضعٌ بعَرَفات، أو الميل الذى عليه أقطاب الحَرَم "وحينئذ يكون المراد بمضيّه الرواح إلى الموقف، ميسرة الجبل الذى يستحبّ الوقوف فيه.

۲- إطلاق عَرَفات فى بعض الأخبار على ما يشمل (نَمِرَة) أيضاً كما ورد فيصحيح معاوية بن عمّار وأبى بصير جميعاً عن الإمام الصادق (عليه السلام)، حيث قال ":وحدّ عَرَفات من المأزمَين إلى أقصى الموقف "(۵). وهذا الحديثصريحٌ فى أنّ ما بعد المأزمَين إلى أقصى الموقف اسمه عرفات،

۱- ۶ الوسائل ۸، الباب ۲ من أبواب أقسام الحجّ، الحديث ۳.

۲- ۷ مجلّة العرب السعوديّة، الجزء ۵، السنة السادسة، ۱۳۹۱ هـ- ۱۹۷۲ م، تحت عنوان تحديد عرفات، عن هداية الناسكين: ۱۷۳.

۳- ۸ نفس المصدر: ۲۶۹.

۴- ۹ جواهر الكلام، الجزء ۱۵: ۱۹.

۵- ۱۰ الوسائل الجزء ۱۰، الباب ۱۰ من أبواب الإحرام بالحجّ والوقوف يعرفة، الحديث ۸.

ص: ۶۴

ونَمِرَة داخلةٌ فی عرفات حیث إنّها واقعةٌ علی یمین مَن خرج مِن المأزمَین وأراد الموقف، وعلی هذا فیکون إطلاق عرفات علی ما بعد نَمِرَة فی بعض الأخبار لأجل أفضلیّة هذه القطعة، أو لکونه محلًا للاعتراف بالذنوب، لا أنّ عرفات هی هذه القطعة فقط.

۳- ما ذُکر من استحباب الجمع بین الصلاتَین بعَرَفَة، قال فی التذکرة ":ویجوز الجمع لکلّ مَن بعَرَفَة من مکّیٍ وغیره، وقد اجمع علماء الإسلام علی أنّ الإمام یجمع بین الظهر والعصر بعَرَفَة "(۱). وعلی هذا یظهر أنّصلاة النبی (صلّی الله علیه وآله وسلم) کانت بعَرَفَة، ویشهد لهذا ما رُویَ عن دعائم الإسلام عن الإمام الصادق (علیه السلام) عن علیّ (علیه السلام "):أنّ رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلم) غدا یوم عَرَفَة من منی فصلّی الظهر بعَرَفَة، لم یخرج من منی حتّی طلعت الشمس "(۲).

کما یظهر من خبر جذاعة الأسدی معروفیّة إیقاع الصلاتَین بعَرَفَة فی ذلک الزمان حیث قال ":قلت للإمام الصادق (علیه السلام): رجلٌ وقف بالموقف فأصابته دهشة الناس فبقی ینظر إلی الناس ولا یدعو حتّی أفاض الناس. قال (علیه السلام): یجزیه وقوفه. ثمّ قال: أ لیس قدصلّی بعرفات الظهر والعصر وقنت ودعا؟ قلت: بلی. قال (علیه السلام): فعرفات کلّها موقف وما قرب من الجبل فهو أفضل "(۳).

۴- لقد ذکر بعض الفقهاء أنّ نَمِرَة من عَرَفَة، فقد قال الصدوق فی المقنع ":ثم تلبّی وانت مارٌ إلی عرفات، فإذا ارتقیت إلی عرفات فضرب خباءَک بنَمِرَة، فإنّ فیها ضَرَب رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلم) خباءه وقبّته، فإذا زالت الشمس یوم عَرَفَة فاقطع التلبیة وعلیک بالتهلیل والتحمید والثناء علی الله... ثمّ قال: إیّاک أن تفیض منها قبل غروب الشمس."...

وقال ابن بابویه فی الفقیه ":فإذا أتیت إلی عرفات فاضرب خباءَک بنَمِرَة قریباً من المسجد، فإنّ ثمّ ضرب رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلم) خباءه وقبّته."...

وفی المقنعة ":ثمّ لِیُلَبّ وهو غادٍ إلی عرفات، فإذا أتاها ضرب خباءه بنَمِرَة قریباً من المسجد، فإنّ رسول الله (صلّ الله علیه وآله وسلم) ضرب قبّته هناک "...(۴).

وقد ذکر عن بعض الحنفیّة: أنّه قیل حدّ عرفات ما بین الجبل المشرف علی بطن عرنة إلی الجبال المقابلة لعرنة ممّا یلی حوائط بنی عامر وطریق الحضّ..

وعن الأزرقی: عن ابن عبّاس أنّ حدّ عرفات من الجبل المشرف علی بطن عرنة بالنون إلی جبال عرفات إلی وصیق إلی ملتقی وصیق ووادی عرنة.

وعن بعضهم أنّ مقدّم مسجد إبراهیم (علیه السلام) أوّله لیس من عُرَنَة ومقتضاه أنّ ما عدا الأوّل من عرفات فیمکن أن تکونصلاة النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلم) فیما کان منه من عرفات، ویشهد لذلک ما یُحکی عنهم من الجواب لأبی یوسف (عن إشکاله بمنافاة الصلاة للوقوف من أوّل الوقت إلی الزوال) بأنّه لا منافاة، فإنّ المصلّی واقف. وهذا کالصریح فی کَون المسجد من عرفة. وقد تقدّم منّا عن الرافعی الجزم بذلک مع شدّة تحقیقه واطّلاعة (۵).

أقول: إذا أخذنا بهذه القرائن علی أنّ نَمِرَة التی فیها المسجد الذی یُقال عنه أنّه مسجد إبراهیم، وقُلنا إنّ النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلم) قدصلّی فیه الظهر والعصر جمعاً، فیجب أن نفسر الروایات القائلة بذهاب النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلم) إلی الموقف بعد الصلاة، بإرادة موقف الدعاء فی میسرة الجبل الذی یُستحبّ فیه الوقوف أو التشاغل بما یقتضیه من الدعاء والتحمید والتمجید والتهلیل والتکبیر والدعاء لنفسه ولغیره ممّا جاءت به النصوص فی ذلک الموقف.

والتحقیق: إنّ هذه القرائن کلّها لا تقف فی وجه الروایات القائلة بأنّ الوقوف فی (نَمِرَة) التی هی بطن عرنة لا یجزی.

۱- ۱۱ جواهر الكلام فی شرح شرائع الإسلام، للمحقّقصاحب الجواهر ۲۳: ۱۹.

۲- ۱۲ مستدرک الوسائل، الباب ۷ من أبواب إحرام الحجّ، احدیث.

۳- ۱۳ نفس المصدر ۲۰: ۱۹.

۴- ۱۴ نفس المصدر ۲۰: ۱۹ و ۲۳- ۲۴.

۵- ۱۵ نفس المصدر: ۲۶، ۲۷.

ص: ۶۵

ولا بأس بالتنبيه فى آخر كلامنا عن نَمِرَة، بأنّ فى حدود عرفات يوجد جبل اسمه (جبل نَمِرَة) وهو غير قرية نَمِرَة التى هى بطن عرنة وانّما عرّفه البلادى "بأنّه جبلٌصغير بارز تراه غربك وأنت واقفٌ بعرفة بينك وبينه سيل وادى عرنة، وإذا كنت تؤمّ عرفة عن طريق ضب تمرّ بسفحه الشمالى "(۱).

وهذا الجبل خارج عن حدود عرفة كما هو واضح.

۲- عُرَنَة:

- بضمّ العين المُهملة وفتح الراء المهملة وفتح النون- هى وادى ما بين عرفات والحرم عرضاً وهو حدّ عرفات من الناحية الغربيّة، حيث يبتدئ من الجهة الشماليّة من مُلتقى وادى وصيق بوادى عُرَنَة وينتهى من الجهة الجنوبيّة عندما يُحاذى أوّل سفح الجبل الواقع بين طريق المأزمين وطريق ضب والذى بطرفه الشمالى قرية نَمِرَة من الجهة الشرقيّة غربىّ الواقف هناك وغربىّ سفح الجبال التى فى منتهى عَرَفَة من الجهة الجنوبيّة الشرقيّة بخطٍ مستقيم، وقد قُدِّرت المسافة بين وصيق بوادى عُرَنَة من الجهة الشماليّة إلى مُنتهاه من الجهة الجنوبيّة بخمسة آلاف متر (۲).

وبين وادى عُرَنَة المذكور وبين الموقف عَلَمان كبيران يقعان شمالى شرقى مسجد إبراهيم، وهما الحدّ الفاصل بين وادى عُرَنَة وبين عَرَفَة كما ذكر ذلك تقىّ الدين الفاسى فى كتابه (شفاء الغرام) حيث قال ":وكان ثمّة ثلاثة أعلام سقط احدها وهو الذى إلى جهة المغمّس وأثره بين ورأيت عنده حجراً مُلقىً مكتوباً فيه: أمر الأمير الأصفهسلار الكبير مظفّر الدينصاحب إربل حسان أمير المؤمنين بإنشاء هذه الأعلام الثلاثة بين منتهى أرض عَرَفَة ووادى عُرَنَة، لا يجوز لحاجّ بيت الله العظيم أن يجاوز هذه الأعلام قبل غروب الشمس، وفيه كان دلك بتاريخ شعبان من شهور سنة (۶۰۵)، ورأيت مثل ذلك مكتوباً فى حجرٍ مُلقىً فى أحد العَلَمين الباقيين، وفى هذَين العَلَمين مكتوب: أمَرَ بعمارة عَلَمى عرفات، وأضاف كاتب ذلك: هذا الأمر للمستظهر العبّاسى، ثمّ قال: وذلك فى شهر... سنة أربع وثلاثين وستمئة "(۳).

وقد تقدّم منّا ذكر الحديث عن النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) فى خبر إسحاق الذى يقول ":ارتفعوا عن وادى عرنة بعرفات "وهو يدلّ دلالة واضحة على أنّ عرنة ليس من موقف عرفة، للأمر بالارتفاع عنه الذى لازمه النهى عن الإتيان بالوقوف فيه. وبعبارةٍ اخرى أنّ وادى عُرَنَة لمّا كان ملاصقاً لموقف عَرَفَة، بل ومشابهاً له احتاج إلى أن يُنبَّه على عدم إجزاء الوقوف فيه والأمر بالوقوف حين الارتفاع عنه.

۱- ۱۶ معجم معالم الحجاز ۹۲: ۹.

۲- ۱۷ جاء ذلك فى قرار اللجنة الحكوميّة السعوديّة المنشور فى مجلّة العرب السعوديّة، الجزء ۵، السنة السادسة، ۱۳۹۱ ه-- ۱۹۷۲ م، من الصفحات ۳۷۵- ۳۸۴، تحت عنوان: تحديد عرفات عن هداية الناسكين: ۱۷۲.

۳- ۱۸ جاء ذلك فى قرار اللجنة الحكوميّة السعوديّة المنشور فى مجلّة العرب السعوديّة، الجزء ۵، السنة السادسة، ۱۳۹۱ ه-- ۱۹۷۲ م، من الصفحات ۳۷۵- ۳۸۴، تحت عنوان: تحديد عرفات عن هداية الناسكين: ۱۷۲.

ص: ۶۶

أقول: إنّ الأحاديث المتقدّمة التى ذكرت أنّ عُرَنَة ليست من عرفات، قد شخّصت منذ قديم الزمان بأعلام تفصل بين عَرَفَة ووادى عُرَنَة، وبهذا التحديد وبيان المصداق تخلّصنا من مشكلة التعيين التى لابدّ فيها من الرجوع إلى أهل الخبرة التى يضعف الاعتماد عليها كلّما تمادى الزمان.

إشكال فى تعيينصُغرى عَرَفات:

قلنا فيما تقدّم إنّ الروايات التى ذكرت بأنّ عُرَنَة ليست من عرفات قد شخّصها المتقدّمون علينا بزمنٍ ليس بالقليل، فقد ارتفع إشكال تحديد معنى عرفات من ناحية المصداق، ولكن مع هذا بَقىَ إشكالٌ واحد هو: إذا كانت عُرَنَة هى وادى بين عرفات والحرم عرضاً، فينبغى أن يكون بانتهاء الوادى العرضى موقف عرفات، ولكنّنا نرى الآن بين العَلَمَين الذين وضَعَهُما ملك إربل فى عام (۶۰۵) وبين مجرى وادى عُرَنَة مسافة لا يقلّ عرضها عن مئة متر وهى مرتفعة عن وادى عُرَنَة، فكيف لا تكون داخلة فى موقف عرفة؟

الجواب:

أنّه لا بدّ من الرجوع فيه إلى أهل الخبرة، فقد ذكروا أنّ مجرى وادى عُرَنَة آنذاك هو بداية وضع الأعلام، ولكن بما أنّ سهول عَرَفَة كلّها رمالٌ تنتقل فقد تراكمت الرمال فى هذا الجانب من الوادى، وقد ذكر القاطنون فى تلك الأماكن بأنّ سيل الوادى قد يشتد فى بعض الأحيان فيعلو على هذه الأتربة ويُزيلها (۱). وعلى هذا فيبقى أنّ حدّ عَرَفَة هو ما أثبت بواسطة الأعلام منذ قديم الزمان وأنّ الأحكام الشرعيّة لا تتبدّل ولا تتغيّر بتراكم الأتربة فى أحد جانبىَ الوادى.

۳- ثَوِيَّة:

- بفتح الثاء وتشديد الياء- لقد ذكر الطريحى فى مجمع البحرَين قول ":والثويّة: حدٌّ من حدود عَرَفَة، وفى الحديث: ليست منها."

وقد ذكر فى كتاب المجاز بين اليمامة والحجاز ما نصّه ":عرفات: إذا ترك الطريق ثنية (الجلُيلة) خلفه ووادى نعمان يساره، دلف إلى منطقة عرفات مارّاً بجنوبيّها غربيّها "(۲).

وقال البلادى فى (معجم معالم الحجاز) معرّفاً الجلُيلة- وهى بالتصغير وتشديد الياء المثنّاة- شِعب يسيل من جبل ملحة فيصبّ فى عرفة من الجنوب الشرقى مجتمعاً مع الأحموم، فى رأسه ريع (يعنى ثنية) بهذا الاسم يطلعك من عرفة على نعمان "(۳).

وقد ذكر محقّق كتاب هداية الناسكين هذا الاستنتاج ":وهذا يعنى انّ هذه الثنية أو الريع حد من حدود عَرَفَة، وعليه فمن المظنون قويّاً أنّ كلمة (ثنية) دخلها تحريف النسخ فعادت ثَوِيَّة "(۴).

أقول: إذا كانت ثوِيّة أو ثنية هى حدّ عَرَفَة من ناحية الجنوب الغربى، فإنّ جنوب عَرَفَة جبالٌ ممتدّةٌ من المشرق إلى الجنوب، وقد اخترق فيها قبل فترة طريقٌ للسيّارات الذاهبة إلى الطائف، فما

۱- ۱۹ هكذا جاء فى قرار اللجنة الحكوميّة السعوديّة المنشور فى مجلّة العرب، عن هداية الناسكين.

۲- ۲۰ المجاز بين اليمامة والحجاز، ابن خميس: ۲۹۰

۳- ۲۱ معجم معالم الحجاز، البلادى، الجزء الثانى: ۱۶۶.

۴- ۲۲ هداية الناسكين، للدكتور الفضلى: ۱۶۹.

ص: ۶۷

أدخله هـذا الحـدّ من حوائط ابن عامر وقريـة عَرَفَـة داخلٌ فی عرفات. وقـد نقل الطبری فی القری نقلًا عن البلخی فی معرفـة حائط بنی عـامر فقـال ":حائـط بنی عـامر غیر عُرَنَـة، وبقربه المسـجد الـذی یجمع فیه الإمام الظهر والعصـر، وهو حائط نخل وفیه عین تُنسب إلی عبدالله ابن عامر بن کریز، قلت: وهی الآن خراب. "وقد شوهد أخیراً الآثار لتلک الحوائط من الجهة الجنوبیّة عندما کشـفت الریاح من آثـار المصـانع والبرک الکبـار والأساسـات القویّـة التی تشـیر إلی أنّه کـان فی الموضع المـذکور قصورٌ وحوائط وجوابی واسـعة تلیق بمکانة هذا الرجل الشهیر والذی قال ابن الأثیر عنه ":إنّه أوّل مَن اتّخذ الحیاض بَعَرَفَة وأجری فیها العین "(۱).

وقال یاقوت فی (معجم البلدان) نقلًا عن البشاری ":قریة عرفة: قریة فیها مزارع وخضـر ومباطخ وبها دورٌ حسـنة لأهل مکّة ینزلونها یوم عَرَفَة والموقف منها علیصیحة "(۲). فإذا کانت قریـة عَرَفَة داخلة فی حدود عرفة. فالمراد من الموقف هنا هو الوقوف فی سـفح الجبل للدعاء الذی یکون مستحبّاً.

۴- ذو المجاز:

قال الأزرقی فی أخبار مکّة ":وذو المجاز: سوقٌ لهُذیل عن یمین الموقف مِن عَرَفَة قریب کبکب علی فرسخ من عَرَفَة "(۳).

وقـال حمـد الجاسـر ":یسـمّی المجـاز الآـن، وهـو وادی عظیم یحفّ کبکب من غربیّه ثمّ یمرّ بعرفـات، وفیه میـاه ومزارع علی المطر، وسکّانه هذیل "(۴).

وقد اختصرهصاحب الجواهر بقوله ":وهو سوق کانت علی فرسخ من عرفة بناحیة کبکب "(۵).

وفی الوافی ":وفی النهایـة: ذو المجـاز موضعٌ عنـد عرفـات کـان یُقام فیه سوقٌ من أسواق العرب فی الجاهلیّـة، والمجاز موضع الجواز والمیم زائدة، سمّی به لأنّ إجازة الحاج کان فیه "(۶).

أقول: إذا کان ذو المجاز هو السوق فهو بعیـدٌ من عرفات ولیس حـدّاً لها، وإذا کان هو الوادی العظیم الذی یمرّ بعرفات فتکون إحدی جهاته حدّاً لعرفات وهی الجهة الملاصقة لعرفات منه، ولمّا کان هذا الوادی شبیهٌ بعرفات نهی الشارع المقدّس عن الوقوف فیه.

۵- الأراک:

والمقصود به نعمان الأراک.

قال البلادی ":وادٍ فحل من أودیـة الحجاز التهامیّة... وینحدر غرباً، فیمرّ جنوب عرفات عن قرب ثمّ یجتمع بعُرَنَة فیطلق علیه اسم عُرَنَة، یمرّ بین جبلَی کُسـاب وحَبَشی جنوب مکّـة علی أحـد عشـر کیلًا، ویکون هنـاک حـدود الحرم الشـریف، ویتّسع الوادی بین کبکب والقرضة فیسمّی خبت نعمان لفیاحه وسعته "(۷).

وقال الجاسر ":ونعمان: وادٍ عظیم یقطعه القادم من الطائف إلی مکّة من طریق کرا إذا أقبل علی عرفات، وهویحفّ جنوب عرفات، فیه مزارع ومیاه کثیرة "(۸).

وقال فی مجمع البحرین ":الأراک کسـحاب شـجر یُسـتاک بقضـبانه له حمل کعناقید العنب یملأ العنقود الکفّ، والمراد به هنا موضعٌ بعرفة من ناحیة الشام قرب نَمِرَة "(۹).

أقول: یبـدو کما ذکرنا سابقاً أنّ الأراک لیس من حدود عرفة لعدم ملاصـقته للحدود وإنّما نُهی عن الوقوف فیه وصـرّح بعدم الإجزاء لاحتمال الاشتباه فی الوقوف فیه.

وقد ذکر الدکتور الفضلی أنّ عین زبیدة الشهیرة تنبع منه (۱۰).

والخلاصة: فعرفة من جهة الشمال الشرقی حدّها جبل سعد (جبل عرفات).

ومن جهة الشرق سلسلة جبال.

وکذا من جهة الجنوب.

ومن الغرب وادى عُرَنَة.

وعلى هذا فسيكون ذو المجاز (إذا لم يكن هو السوق) فهو حدّها من جهة الشمال الغربى.

وأمّا الأراك فهو ليس حدّاً لعَرَفَة كما هو واضح.

وجوه الجبال المحيطة بعَرَفَات داخلة فى الموقف:

قد يقال: انّ الجبال المحيطة بعرفات بما أنّها حدّ لعرفات فهى خارجةٌ عن الحدود فلا يجوز الوقوف بها، مثلها مثل الحدود التى ذكرت فى الرواية لعرفة فإنّها خارجةٌ عن الحدود.

ولكن نقول: إنّ الروايات التى ذكرت حدود عَرَفَة مثل (نَمِرَة وعُرَنة وثَوِيَّة وذى المجاز والأراك) قدصرّحت بخروجها عن عَرَفَة للنهى الذى ورد فى الوقوف بها أو الأمر بالاتّقاء.

أمّا الجبال المحيطة بعرَفَة فالمفهوم الارتكازى أن واجهاتها من عَرَفَة. بالإضافة إلى وجود القرائن الكثيرة الدالّة على دخول واجهات الجبال فى عرفة منها:

١- موثّقة إسحاق بن عمّار، قال سألت الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) عن الوقوف بعرفات فوق الجبل أحبّ إليك أم على الأرض؟ فقال ":على الأرض "(١١). وواضح أنّ على الجبل يكون محبوباً إليه، إلّا أنّ الأرض أحبّ إليه، وهو معنى الجواز.

١- ٢٣ راجع مجلّة العرب السعوديّة، الجزء ٥، السنة السادسة، ٣٧٥- ٣٨٤.

٢- ٢٤ نفس المصدر.

٣- ٢٥ أخبار مكّة، الأزرقى ١٩١: ١.

٤- ٢٦ راجع المجاز بين اليمامة والحجاز، لابن خميس: ٢٨٤.

٥- ٢٧ جواهر الكلام ١٨: ١٩.

٦- ٢٨ كتاب الوافى للفيض الكاشانى ١٠٢١: ١٣.

٧- ٢٩ معجم معالم الحجاز ٦٩: ٩.

٨- ٣٠ انظر المجاز، لابن خميس: ٢٨٧.

٩- ٣١ مجمع البحرين، للطريحى، مادّة أراك.

١٠- ٣٢ هداية الناسكين: ١٦٩.

١١- ٣٣ الوسائل ١٠، الباب ١٠ من أبواب إحرام الحجّ والوقوف بعرفة، الحديث ٥.

ص: ۶۸

۲-صحیح معاویة بن عمّار عن الإمام الصادق (علیه السلام) فی حدیث قال ":وحدّ عَرَفَهٔ من بطن عُرَنَهٔ وثَوِیَّهٔ ونَمِرَهٔ إلی ذی المجاز، وخلف الجبل موقف "(۱) ومراده خلف الجبل الذی یکون وجهه إلی عرفات وهو یشمل کلّ ما یکون خلفه حتّی جهته التی تکون إلی عرفات.

۳- استحباب الوقوف فی مَیْسرهٔ الجبل: ومعنی ذلک علی أکثر تقدیر کراهة الوقوف علی واجهة الجبل وهو معنی الجواز، فقد روی معاویة بن عمّار فی الصحیح عن الإمام الصادق (علیه السلام) قال ":قف فی میسرهٔ الجبل، فإنّ رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلم) وقف بعرفات فی میسرهٔ الجبل، فلمّا وقف جعل الناس یبتدرون أخفاف ناقته فیقفون إلی جانبه، فنحّاها، ففعلوا مثل ذلک، فقال: أیّها الناس إنّه لیس موضع أخفاف ناقتی الموقف، ولکن هذا کلّه موقف وأشار بیده إلی الموقف "(۲).

۴- عدم وجود أی روایة ولو ضعیفة فی النهی عن الصعود علی واجهة الجبال سواء کانت فی عَرَفَهٔ أو المُزْدَلِفَهٔ أو منی، وما ذاک إلّا لأوضحیّة جواز الوقوف علیها ودخولها فی الحدّ.

۵- ما قاله الماوردی عن الشافعی ":حیث وقف الناس من عرفات فی جوانبها ونواحیها وسهولها وبطاحها وأودیتها... إلخ "فإنّ هذا الکلام إذا ثبت تتمّ دلیلیّة بعدم الردع من قبل الإمام (علیه السلام).

فتبیّن من هذه الأدلّة إجزاء الوقوف علی واجهة الجبل المطلّة علی عرفات أو منی أو مزدلفة علی کراهیّة فیها.

ثانیاً- حدود المزدلفة:

ویقال لها جُمَع (کما فی بعض مناسک الحجّ).

ویقال لها المشعر الحرام، أو المشعر اختصاراً، أخذاً بقوله تعالی فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفات فاذْکُروا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِالحَرام ولکن یُطلق المشعر علی نفس المسجد القائم فی المزدلفة، ویؤیّده العندیّة المذکورة فی الآیة، کما یطلق علی جبل قُزَح أیضاً، فقد ورد استحباب وطء الصرورة المشعر برجله، فقد حُکی عن الشهید الأوّل فی الدروس ":والظاهر أنّه المسجد الموجود الآن، "وورد استحباب الصعود علی قُزَح (بضمّ القاف وفتح الزای المعجمة)، قال الشیخ الطوسی رحمه الله ":هو المشعر الحرام، وهو جبلٌ هناک یستحبّ الصعود علیه وذکر الله علیه "(۳).

وعلی هذا الذی تقدّم یکون إطلاق المشعر علی المزدلفة کلّها إطلاقاً مجازیاً من باب تسمیة الشیء باسم الجزء.

وأمّا جمع: التی ضُبِطَت فی بعض مناسک الحجّ- بضمّ الجیم وفتح المیم-، فقد ضُبِطَت عند الجغرافیّین والبلدانیّین وأهل اللغة والمعاجم (بفتح الجیم وسکون المیم) فقد قال الشریف الرضی:

۱- ۳۴ نفس المصدر، الحدیث ۱.

۲- ۳۵ نفس المصدر، الحدیث ۱.

۳- ۳۶ شرح اللمعة الدمشقیّة ۲۷۶: ۲.

ص: ۶۹

اجِبُکَ ما أقامَ منى وجَمْع وما أرسى بمکّهٔ أخشباها وقد سمّیت بذلک لاجتماع الحجّاج فیها بعد الإفاضهٔ من عرفات.

وأمّا تسمیتها بالمزدلفهٔ: وبدون أل علیصیغهٔ اسم الفاعل علی زِنَهٔ (مُفْتَعِل) وقد جاءت هذه التسمیهٔ من الازدلاف بمعنی التقدّم والإفاضهٔ کما جاء فی حدیث معاویهٔ بن عمّار عن الإمام الصادق (علیه السلام "):وانّما سُمّیت مزدلفهٔ لأنّهم ازدلفوا إلیها من عرفات" (۱). ومقتضی مفاد هذا الحدیث أن یکون لفظها بصیغهٔ اسم المفعول (مزدلَفهٔ) بفتح اللام لأنّها اسم مکان.

حدود المزدلفهٔ: لقد ذکرت الروایات حدود المزدلفهٔ (بما بین المأزمین إلی الحیاض إلی وادی محسِّر "(۲).

وفی زراهٔ عن الإمام الباقر (علیه السلام) قال ":حدُّها ما بین المأزمین إلی الجبل إلی حیاض محسِّر "(۳).

وقال الصادق علیه السلام فی خبر أبی بصیر ":حدّ المزدلفهٔ من وادی محسِّر إلی المأزمین "(۴).

وفی خبر إسحاق بن عمّار عن أبی الحسن (علیه السلام): قال ":سألته عن حدّ جَمْع، قال: ما بین المأزمین إلی وادی محسِّر "(۵).

وفیصحیحهٔ الحلبی عن الإمام الصادق (علیه السلام) فی حدیث قال ":ولا تجاوز الحیاض لیلهٔ المزدلفهٔ "(۶).

شرح الحدود:

۱- المأزمان: بکسر الزاء وبالهمز "ویجوز التخفیف بالقلب ألفاً، "وهما جبلان بینهما مضیق یدلف إلی عرفات، وهو حدّ المزدلفهٔ من الشرق، فقد ذکر الجوهری ":أنّ المأزم: کلّ طریقٍ ضیّقٍ بین جبلَین، ومنه سمّی الموضع الذی بین جمع وعرفهٔ مأزمَین. "وفی القاموس ":ألمأزم ویقال له المأزمان مضیق بین جمع وعرفهٔ وآخر بین مکّهٔ ومنی. "وظاهرهما: أنّ المأزم اسمٌ لموضعٍ مخصوص وإن کان بلفظ التثنیهٔ.

حیاض مُحَسِّر (وادی محسِّر): محسِّر- بضمّ المیم وفتح الحاء المهملهٔ وکسر السین المهملهٔ وتشدیدها- علی زنَهٔ اسم الفاعل.

قال البلادی: محسِّر: وادٍصغیر یمّر بین منی ومزدلفهٔ ولیس منها، یأخذ من سفوح ثبیر إلی الأثرهٔ الشرقیّهٔ، ویدفع إلی عرفهٔ مارّاً بالحسیّهٔ، لیس به زراعهٔ ولا عمران والمعروف منه ما یمرّ فیه الحاجّ علی طریق بین منی ومزدلفهٔ، وله علامات هناک منصوبهٔ "(۷).

۱- ۳۷ الوسائل ۱۰، الباب ۴ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحدیث ۵.

۲- ۳۸ نفس المصدر، الحدیث ۱.

۳- ۳۹ نفس المصدر، الحدیث ۲.

۴- ۴۰ نفس المصدر، الحدیث ۴.

۵- ۴۱ نفس المصدر، الحدیث ۵.

۶- ۴۲ نفس المصدر، الحدیث ۳.

۷- ۴۳ معجم معالم الحجاز، البلادی ۴۲: ۸.

ص: ۷۰

وقال ابن خميس فى مجازه ":ومحسِّر: وادٍ يقبل من الشمال إلى الجنوب من فجٍ يفصل بين منى وجبالها وبين مزدلفة وجالها وهو منخفض يسيل عليه ما والاه منهما، وما يسيل من منى أكثر، وعرض وادى محسِّر خمسمئة وأربعون ذراعاً "(۱)، أى ما يساوى ۲۷۰ متراً تقريباً.

وذكر فى وجه تسميته بمحسِّر من التحسير أى الإيقاع فى الحسرة أو الإعياء، سُمّى به لأنّه قيل إن أبرهة أوقع أصحابه فى الحسرة أو الإعياء لمّا جهدوا أن يتوجّه إلى الكعبة فلم يفعل "(۲).

ثمّ إن الظاهر أنّ المراد من الحياض هى وادى محسِّر لا أنّه مكانٌ آخرٌ من المزدلفة، وأنّ الحياض جمع حوض وهو الوادى الذى قد يكون فيه مجموعة حياض، وقد تقدّم من الروايات التعبير (بحياض محسِّر) فيكون التعبير بوادى محسِّر بعد كلمة الحياض فى بعض الروايات لبيان معنى الحياض.

ووادى محسِّر هو حدود مزدلفة من ناحية الغرب، فضفّة وادى محسِّر الشرقيّة هى الحدّ الفاصل بين مزدلفة ومنى.

أقول: هذا التحديد الذى ذُكر، هو تحديد للمزدلفة من ناحية طولها.

أمّا تحديد مزدلفة العرضى، فيوجد جبلان كبيران مطلّان على المزدلفة أحدهما من الجهة الشماليّة يقال له (جبل المزدلفة)، والآخر من الجهة الجنوبيّة، وقد ذكرتهماصحيحة زرارة المتقدّمة عن الإمام الباقر (عليه السلام) بقولها إلى الجبل، والمراد به جنس الجبل هناك فيشمل الشمال والجنوب. إذن تبيّن أنّ ما بين حدَّى مزدلفة طولًا وما بين حدَّيها عرضاً من الشعاب والهضاب والقلاع والروابى ووجوه الجبال كلّها تابعةٌ لمشعر مزدلفة وداخلةٌ فى حدودها، فعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال ":ووقف النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) بجمع، فجعل الناس يبتدرون أخفاف ناقته، فأهوى بيده وهو واقفٌ فقال: إنّى وقفت وكلّ هذا موقف "(۳).

وعلى هذا التحديد لمزدلفة، فلا يجوز الوقوف فى المأزمَين وقبلها إلى عرفات ولا فى وادى محسِّر وبعده إلى منى، فإنّ هذه الحدود ليست من المزدلفة، فلا يجزى الوقوف فيها، وقد ورد فيصحيح هشام بن الحكم عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال فى حديث ":ولا تجاوز وادى محسِّر حتّى تطلع الشمس "(۴).

وصحيح الحلبى عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال فى حديث ":ولا تجاوز الحياض فى ليلة المزدلفة "(۵).

وقد جوّزت الروايات الارتفاع إلى المأزمَين الذى هو حدّ المزدلفة خارجٌ عن المحدود عند الضرورة لازدحام الناس وضيق مزدلفة عليهم، فقد روى سماعة فى الموثّق قال، قلت للإمام الصادق (عليه السلام "):إذا كثر الناس بجمع وضاقت عليهم كيف يصنعون؟ قال: يرتفعون إلى المأزمَين "(۶).

ثالثاً- حدود مِنى:

۱- ۴۴ المجاز، لابن خميس: ۳۰۱.

۲- ۴۵ جواهر الكلام ۱۲: ۱۹.

۳- ۴۶ الوسائل ۱۰، الباب ۸ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ۷.

۴- ۴۷ نفس المصدر، الباب ۱۵ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ۲.

۵- ۴۸ نفس المصدر، الباب ۸ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ۳.

۶- ۴۹ نفس المصدر، الباب ۹ من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ۱.

ص: ۷۱

- بكسر الميم والتنوين-، سُمّيت بذلك لما يُمنى فيها من الدماء.

وقيل: إنّها سُميت لما يُمنى فيها من الدعاء.

وقيل: لِما رُوىَ عن ابن عبّاس ":أنّ جبرئيل (عليه السلام) لمّا أراد أن يُفارق آدم (عليه السلام) قال له: تَمَنَّ. قال: أتَمنَّى الجنَّة، فُسُمِّيت بذلك لأمنيته "(۱).

وقيل ":سمّيت منى لأنّ جبرئيل أتى إبراهيم (عليه السلام) فقال له تمنَّ على ربِّك ما شئت. "فسُمِّيَت منى، واصطلح عليها الناس، وفى الحديث "أنّ إبراهيم تمنّى هناك أن يجعل الله مكان ابنه كبشاً يأمره بذبحه فديةً له "(۲). فأعطاه الله مُناه.

وقد اتّفقت الروايات على أنّ حدّ مِنى من جهة الطول من العقبة إلى وادى محسِّر عليصيغة اسم الفاعل، فقد ذكرصحيح معاوية لأبى بصير عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال ":حدّ منى من العقبة إلى وادى محسِّر "(۳). وجمرة العقبة هى حدّ منى من جهة مكّة، ووادى محسِّر حدّها من جهة مزدلفة، وهذا الحدّ قد ذكره المؤرّخون والجغرافيّون أيضاً. فقد قال الأزرقى فى أخبار مكّة بسنده عن ابن جريح ":قال: قُلت لعطاء بن أبى رباح، أين مِنى؟ قال: من العقبة إلى محسِّر، قال عطاء: فلا أحبّ أن ينزل أحد إلّا فيما بيين العقبة ومحسِّر "...(۴).

أقول: هذا الذى تقدّم هو حدّ لمِنى من ناحية الطول، أمّا حدّها من ناحية العرض، فهو ما بين الجبَلَين الكبيرَين بامتدادهما من العقبة حتّى وادى محسِّر، وقد ذكر الفاسى فى شفاء الغرام ":أنّ ما أقبل على مِنى من الجبال المحيطة بها من كِلا جانبَيها فهو منها وما أدبر من الجبال فليس منها "(۵). وقد قال النووى فى المجموع ":واعلم أنّ منى شِعبٌ ممدودٌ بين جبَلَين أحدهما ثبير والآخر الصابح. قال الأصحاب: ما أقبل على مِنى من الجبال فهو منها وما أدبر فليس منها "(۶).

أقول: كأنّ مِنى لا تحتاج إلى أن تحدّد من ناحية العرض لوجود هذَين الجبلَين الكبيرين المفروض أنّهما حدٌّ للمنطقة، فكأنّ السؤال فى الروايات عن حدخاص من ناحية مكّة ومزدلفة فذكرته الروايات.

العقبة هل هى من مِنى؟

الجواب: بقرينة اتّفاقهم على أنّ (محسِّراً) ليس من مِنى، وإنّما هو حدّ لها فكذلك العقبة، لاقترانها هى ٱلْأُخرى بأداة التحديد وهى (من)، ولكن حكى عن بعض الفقهاء: أنّ العقبة من مِنى وليست حدّاً لها.

وسُمّيت بالعقبة لأنّها مدخل مِنى من الغرب، وسُمّيت الجمرة هنا بجمرة العقبة.

۱- ۵۰ جواهر الكلام ۱۰۰: ۱۹.

۲- ۵۱ راجع مجمع البحرين، مادّة مِنى.

۳- ۵۲ الوسائل ۱۰، الباب ۶ من أبواب إحرام الحجّ، الحديث ۳.

۴- ۵۳ مجلّة العرب، السنة الثامنة ۷۸: ۱- ۸۰، عن هداية الناسكين: ۱۶۴.

۵- ۵۴ نفس المصدر، عن هداية الناسكين: ۱۶۳.

۶- ۵۵ نفس المصدر، عن هداية الناسكين: ۱۶۴.

ص: ۷۲

مشكلة الذبح: وعلى ما تقدّم من حدود مِنى، تواجهنا مشكلة حاليّة بناءً على ما اتّفقت عليه الإماميّة من وجوب الذبح فى مِنى، حيث إنّ المذبح الذى أوجدته الحكومة السعوديّة يكون خارج مِنى حسب العلامات التى نصبت هناك، وتمنع الحكومة الذبح فى غير هذه الأماكن التى أعدّتها

للذبح حتّى فى الأيّام الْأُخرى بعد يوم النحر وأيّام التشريق، فهل من مخرجٍ لهذه المشكلة العويصة؟

وتشتدّ هذه المشكلة على الناس فيما إذا علمنا أنّ الذبح خارج مِنى لا يجزى، إذ ليس المورد من موارد التقيّة، فإنّ مورد التقيّة فيما إذا كان المكلّف غير معروف المذهب، فلا يعمل بما هو الحقّ عنده خوفاً من الظالم، والواقع القائم الآن بخلافه تماماً، لأنّ المكلّف معروف المذهب، ومعلوم أنّه لا يعتقدصحّة الذبح خارج مِنى، وأنّه يريد الذبح فى مِنى، إلّا أنّ المنع الحكومى الناشئ من أنّ من يخالف ويشقّ عصا طاعة وليّ الأمر لا يجوز إقراره على مخالفته من أىّ مذهبٍ كان.

وعلى هذا يكون المورد إذا كان هناك إجبار على الذبح فى المسلخ على المكلّف، من باب ارتكاب أخفّ المحظورَين وأقلّ الضررَين يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ، وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، فهو من باب قوله (عليه السلام "):لإن أفطر يوماً ثمّ أقضيه أحبّ إلىَّ من أن تضرب عنقى، "وأمّا إذا لم يكن إجبارٌ على الذبح وذَبَحَ خارج مِنى فهو لا يجزىء أيضاً. وعلى هذا فيجب القضاء على المكلّف لهذا النسك إذا تمكّن بعد ذلك فى بقيّه أيّام ذى الحجّة، أو أن يخلف ثمنه عند عدل ليشترى له هدْياً ويذبحه فى شهر ذى الحجّة.

فهل توجد طريقة للتخلّص من هذه الطريقة وتقول بالاكتفاء بالذبح فى المذبح الحالى الذى هو خارج مِنى؟

الجواب: توجد عندنا روايات معتبرة تقول: إذا ازدحمت مِنى بالناس ارتفعت إلى وادى محسِّر، فيكون وادى محسِّر حكمه حكم منى، وحينئذٍ يكون الذبح فى المذبح الحالى مجزياً، ففى معتبرة سماعة قال "قلت للصادق (عليه السلام): إذا كثر الناس بمِنى وضاقت عليهم كيف يصنعون؟ فقال: يرتفعون إلى وادى محسِّر "...(۱).

فهل يمكن الاكتفاء بهذه الرواية للذبح خارج الحدّ والوقوف كذلك؟!

إذا كان الجواب بالإيجاب فتنحّل مشكلة مهمّة.

والخلاصة لكلّ البحث: تمكن فى أنّ نَمِرَة التى هى (بطن عُرَنَة) هل من عرفات أو لا؟ وكذا مسجد إبراهيم القديم الذى يكون فى نَمِرَة؟ فإن قلنا: انّها خارجةٌ من عرفات كما هو ظاهر الروايات التى شرحت لنا حجّ النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وكذا بقيّة الروايات التى أخرجت نَمِرَة عن حدود عرفات، تواجهنا مشكلة أنّ الوقوف فى عُرَنَة ليس من الزوال إلى الغروب.

۱- ۵۶ الوسائل ۱۰، الباب ۱۱ من أبواب إحرام الحجّ، الحديث ۴.

ص: ۷۳

وإن قلنا: أنّ نَمِرَة من عرفات كما هو رأى يقال تخلّصنا من هذه المشكلة، ولكن تبقى مشكلة ثانية وهى مخالفة ظاهر الروايات بلصريح بعضها، وأقوال أهل الخبرة الذين حدّدوا عرفات بإخراج نَمِرَة من عرفات لأنّها بطن وادى عُرَنَة وهذا الوادى كلُّه حدّ عرفات من جهة الغرب، وقدصرّحت الروايات بالارتفاع عنه.

أقول: ألا نحتمل وجود منطقة فى داخل عرفات كانت تسمّى نَمِرَة قدصلّى النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) فيها ووضع رحله؟ وأمّا قرية نَمِرَة التى هى بطن عُرَنَة فهى خارجةٌ عن حدّ عرفات، فإن ثبت ذلك انحلّت مشكلة عدم وجوب الوقوف من أوّل الزوال إلى الغروب فى عُرَنَة.

ويكون حكاية حجّ النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) مطابقة لوجوب الوقوف فى عرفة من أوّل الزوال إلى الغروب، وأمّا الموقف الذى يُذكر فى الروايات فالمراد به الوقوف فى سفح الجبل الذى يستحبّ فيه الدعاء والوقوف.

وإن لم يثبت ذلك، فلا بدّ من القول بعدم وجوب الوقوف من الزوال إلى الغروب بل الواجب هو الوقوف بعد الظهر بساعة إلى الغروب.

وأمّا بالنسبة للمزدلفة: فلا يوجد خلاف فى حدودها، وقد وقع تعيين هذه الحدود طبقاً لما قرّره الشارع المقدّس بين المأزمين ووادى محسِّر، وأمّا التحديد العرضى فهو الجبلان المطلّان عليها من الجبهة الشماليّة والجنوبيّة.

وأمّا مِنى: فأيضاً لا يوجد خلاف فى حدّها الذى هو من وادى محسِّر إلى العقبة طولًا وما بين الجبلين المطلّين عليها عرضاً، وقد عرضنا مشكلة الذبح التى هى مشكلة معاصرة لوجود المذابح خارج مِنى والحكومة السعوديّة تمنع من الذبح فى مِنى وأوجدنا حلًا قد يكون مقبولًا من الناحية الفنّيّة.

وأخيراً نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من العاملين فى سبيل إعلاء دينه، وأن لا يحرمنا من الحضور فى هذه الأماكن المقدّسة، وأن يغفر لنا خطايانا وسيّئاتنا ويوفّقنا لما يحبّ ويرضى إنّه سميعٌ مجيب، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله وصحبه الميامين.

ص: ۷۴

ص: ۷۵

يومُ الحجِّ الأكبر

ص: ۷۶

يومُ الحجِّ الأكبر

تأليف: على قاضى عسكر

يصادف "يوم عرفة "من أيام الحج فى بعض السنين "يوم الجُمعة."

وتعرف تلك السنة بين الحجّاج- ولا سيما أهل السّنة- ب "-الحج الأكبر، "وقد دعانى هذا الأمر، للبحث فى الآيات والروايات وفى التاريخ- أيضاً- عن ماضيه وحقيقته، وما سأورده هو نتيجة دراسة، وإن كانت مختصرة، غير أنى آمل أن تكتمل بما يُبديه الباحثون والعلماءُ من آراء حول ذلك.

يقول- الله تعالى- فى القرآن الكريم:

وأذانٌ مِن اللهِ ورَسولِه إلى النّاس يومَ الحجّ الأكبرِ أنَّ الله بريءٌ مِنَ المشركينَ ورسولُه (۱).

وقد اختلف أَهلُ الحديث والتفسير القدماء والجدد حول يوم الحج الأكبر، أىّ يوم هو؟ واعتقد بعضهم:

۱- أن المراد مَن الحج الأـكبر يومُ عرفة، فقد روى عن ابن عباس وطاوس وعمر وعثمان ومجاهد وعطاء، وسعيد بن المسيب وابن الزبير وأبى حنيفة والشافعى: أن يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر (۲).

ويقول عطاء ":الحج الأكبر الذى فيه الوقوف بعرفة، والأصغر العمرة "(۳).

وروى اسماعيل القاضى ى حديث لمخرمة عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) انه قال ":يوم الحج الأكبر يوم عرفة "(۴).

وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن مسور بن مخرمة أنه قال: خطب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) عشيّة عرفة، فقال: أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر "(۵).

وروى ابن سعد وابن أبى شيبة، وابن جرير وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب انه قال ":الحج الأكبر يوم عرفة "(۶).

وأورد جرير روايةً أُخرى عن أبى الصهبا البكرى: أن علىَّ بن أبى طالب (عليه السلام) سُئل عن الحج الأكبر فقال: يوم عرفة (۷).

وروى أبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً قولَه: إنّ يوم عرفة يومُ الحج الأـكبر، وهذا اليوم يوم المباهاة. واليوم الذى افتخر فيه الله بأهل الأرض أمامَ ملائكة السماء وقال:

"جاءونى شعثاً غبراً آمنوا بى ولم يرونى وعزتى لاغفرن لهم "(۸).

ويستدلّ بعض الذين يقبلون هذا القول بالحديث المعروف "الحج عرفة "ويقولون:

۱- ۱ التوبة: ۳.

۲- ۲ القرطبى ۶۹: ۸.

۳- ۳ نفس المصدر ۷۰: ۸.

۴- ۴ نفس المصدر.

۵- ۵ تفسير الفخر الرازى ۲۲۱: ۱۵.

۶- ۶ الدر المثور ۲۱۳: ۳.

۷- ۷ نفس المصدر.

۸- ۸ نفس المصدر.

ص: ۷۷

لما كان الوقوف فی عرفة من أكبر أعمال الحج، ومَن أَدركه أدرك الحج، ومَن لم يُدركه فحجّه باطل، فقد سمّی يومُ عرفة يومَ الحج الأكبر (۱).

۲- وترى فئة أُخرى، أن يوم الحجّ الأكبر أيام الحجّ كلّها، وتعتقد بأنه كما يقال ل "-وقعة الجمل "و "حربصفين "و "حرب بعاث" رغم أنّها استمرت أياماً طويلة "يومصفين "و "يوم الجمل "و "يوم بعاث "ومرادهم من "يوم "مدة الحرب كلّها، فالمراد هنا من "يوم الحج الأكبر "أيام الحج كلها أيضاً (۲).

ويقول الشيخ التَهانَوی ":الحج نوعان: الحج الأكبر وهو حج الإسلام، والحج الأصغر وهو العمرة "(۳).

۳- وترى فئة ثالثة: أنّ الحج الأكبر هو الوقوف فی عرفات والأعمال، المتعلقة بمنی.

يقول عمر بن أُذينة: كتبتُ عدّة مسائل للإمام الصادق (عليه السلام). ووصلنی جوابه بعد مدّة بخطه المبارك:

... "وسألته عن قوله- تعالی- (الحجّ الأكبر)، ما يعنی بالحج الأكبر؟ فقال: الحج الأكبر الوقوف بعرفة، ورمی الجمار، والحج الأصغر العمرة "(۴).

فبناءً على هذه الرواية اعتبرت أعمال عرفة ومنی، الحجّ الأكبر.

وروى زرارة عن الامام الصادق (عليه السلام) الجواب نفسه أيضاً حيث قال ":الحج الأكبر الوقوف بعرفة، وبجَمْع، ورمی الجمار بمنی، والحج الأصغر العمرة "(۵).

۴- ويرى سفيان الثورى وابن جُريح و... أن يوم الحج الأكبر كل أيام منی "(۶).

۵- ويروى مجاهد رواية أُخرى فيقول ":الحج الأكبر القِران، والأصغر الإفراد "(۷).

ويروى ابن أبی حاتم عن سعيد بن المسيب قوله: الحج الأكبر اليوم الثانی من يوم النحر. أَلا ترى أن الإمام يخطب فی ذلك اليوم (۸)؟

۷- ويقول ابن سيرين:

"يتعلّق يوم الحج الأكبر بالسّنة التی أدى فيها الرسولُ (صلّی الله عليه وآله وسلم) حجة الوداع. وحج معه عدد كبير من الناس "(۹).

ويمكن لهذا القول أن يعتبر تأييداً لأولئك الذين يعتبرون يوم الحج الأكبر يوم الأضحى؛ ذلك أن الرسول (صلّی الله عليه وآله وسلم) خطب فی هذه السنة بالناس فی منی، وسألهم أیّ يوم يومكم؟ قالوا: يوم النحر، ثم قال: اليوم يوم الحج الأكبر. ويرى ابن عربی أن هذا الحديث حسن وصحيح (۱۰).

۱- ۹ تفسير الفخر الرازی ۲۲۱: ۱۵.

۲- ۱۰ مجمع البيان ۵: ۵.

۳- ۱۱ كشاف اصطلاحات الفنون ۲۸۳: ۱، وكذا فی جامع الرموز.

۴- ۱۲ الوسائل ۱۱، الحديث ۱۴۱۰۸، ط: آل البيت.

۵- ۱۳ نفس المصدر ۱۴، الحديث ۱۹۲۳۸.

۶- ۱۴ مجمع البيان ۵: ۵؛ تفسير القرطبی،ص ۷۰.

۷- ۱۵ تفسير القرطبی ۷۰: ۸.

۸- ۱۶ الدر المنثور ۲۱۲: ۳.

۹- ۱۷ القرطبی ۷۰: ۸.

۱۰- ۱۸ أحکام القرآن، ابن عربی ۴۵۳: ۲.

ص: ۷۸

۸- ويروى الطبرانى عن سمرة بن جندب قوله ":يتعلّق يوم الحج الأكبر بالسنة التى أدّى فيها المسلمون والمشركون الحج فى ثلاثة أيام، لم يؤد مثل هذا الحجّ قبل ذلك ولن يؤدى بعده "(۱).

ويروى فضيل بن عياض عن الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً قوله: ان سبب تسمية الحج الأكبر: أن المسلمين والمشركين أقاموا الحج فى تلك السنة معاً. ولم يحج المشركون بعدها أبداً (۲).

ويروى ابن ابى شيبة الزايد عن ابن عون أيضاً: أنّ محمّداً سئل عن الحج الأكبر فقال: اليوم الذيصادف فيه حج رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) مع حجّ أهل الملل (۳).

ويرى كثير من المحدّثين والمفسرين- بالاعتماد على روايات مختلفة- أنّ الحجّ الأكبر يوم الأضحى. فبالاضافة إلى أن رأى هذه الفئة أصح واقوى. فإنّه يتّفق أيضاً مع الآية فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ومع ما ورد فى الروايات التاريخية أن "علىَّ بن أبى طالب (عليه السلام) قرأ آيات البراءة بعد ظهر عيد النحر."

يقول ابن أبى أوفى ":يوم العيد الأضحى يوم الحج الأكبر، ففى ذلك اليوم تسكب الدماء. وتحلق الرؤوس، وتزال الاوساخ والاقذار، ويحلّ الحرام "(۴).

وهذا ما يعتقد به مالك فيقول: لا نشك فى أنَّ الحج الأكبر يوم عيد الأضحى؛ وذلك لأنّ أكثر أعمال الحج تقام فيه. وفى ليلة العيد يقف الحجّاج فى منى، وفى الغد يقام الرمى والتضحية والحلق والطواف "(۵).

ويقول أبو بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن عربى مؤيداً قول مالك ":وغاص مالك على الحقيقة "(۶).

ويقول معاوية بن عمّار: سألت الإمام الصادق (عليه السلام) عن يوم الحج الأكبر فقال ":هو يوم النحر، والأصغر هو العمرة "(۷).

ويرويصفوان بن يحيى فى موضع آخر عن ذريح المحاربى عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال ":الحج الأكبر يوم النحر "(۸).

ويقول فضيل بن عباس: سألت الامام الصادق (عليه السلام) عن الحج الأكبر وقلت: يرى ابن عباس أنه يوم عرفة، فقال: يقول على (عليه السلام) الحج الأكبر يوم عيد الأضحى، ثم يستدلّ بقول الله عزّوجلّ: فسيحوا فى الأرض أربعةَ أشهر (۹) ويقول: الأشهر الأربعة عبارة عن عشرين يوماً من شهر ذى الحجة، ومحرم وصفر وربيع الأول، وعشرة أيام من ربيع الآخر. وإذا كان الحج الأكبر يوم عرفة سيكون أربعة أشهر ويوما "(۱۰).

ولا بدّ من القول هنا: أن علىّ بن أبى طالب (عليه السلام)، قرأ آيات البراءة على الناس بمنى كما أمره رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فى اليوم العاشر من ذى الحجة (يوم عيد الأضحى)، وقد أمهل المشركين كما أمر الله أربعة أشهر ليُسلِموا أو يبقوا على الكفر والشرك فيقتلوا. وكانت الأشهر الأربعة عبارة عن عشرين يوماً من شهر ذى الحجة، ومحرم وصفر وربيع الأول، وعشرة أيام من ربيع الثانى، حيث تنتهى مهلة الأشهر الأربعة فى اليوم الحادى عشر من ربيع الآخر. وبناء على هذا فإن الذين يعتبرون يوم الحج الأكبر يوم عرفة يضيفون يوماً إلى الأشهر الأربعة. وهذا لا يتفق مع الآية.

۱- ۱۹ الدر المنثور ۲۱۱: ۳.

۲- ۲۰ الوافى ۱۴۳۱۸: ۱۴.

۳- ۲۱ الدر المنثور ۲۱۱: ۳.

۴- ۲۲ تفسير القرطبى ۶۹: ۸.

۵- ۲۳ نفس المصدر: ۸۰؛ أحكام القرآن، ابن عربى ۴۵۲: ۲؛ نور الثقلين ۱۸۵: ۲.

۶- ۲۴ أحكام القرآن ۴۵۳: ۲.

۷- ۲۵ الوسائل ۲۶۹: ۱۴/ ۱۹۲۳۱؛ الوافى ۱۴: الحديث ۱۴۳۱۵.

۸- ۲۶ الوافى ۱۴: الحديث ۱۴۳۱۶.

۹- ۲۷ التوبة: ۲.

۱۰- ۲۸ الوافى ۱۴: الحديث ۱۴۳۱۷؛ نور الثقلين ۱۸۵: ۲.

ص: ۷۹

ويقولصاحب المنار أيضاً، تبدأ الأشهر الأربعة هذه من اليوم العاشر (عيد الأضحى) من ذى الحجة فى السنة التاسعة (حيث قرئت آيات البراءة) وتنتهى فى العاشر من ربيع الآخر من السنة العاشرة "(۱).

وورد فى رواية أخرى: بينما كان على بن أبى طالب (عليه السلام) على فرس أبيض فى يوم عيد الأضحى، وكان يسير نحو الجبانة، جاء رجل وأمسك بلجام فرسه وسأله: أىّ يوم يوم الحج الأكبر؟ فأجاب "هذا اليوم "ثم قال ":اترك اللجام "(۲).

وتروى مصادر أهل السنة، عن عدد من الأفراد، كابن عباس وسعيد بن جبير وابن زيد، والنخعى والشعبى والسدى وابن أبى أوفى وابن مردويه.. أن "المراد من يوم الحج الأكبر يوم عيد الأضحى "(۳).

وذكرت رواية عن مجاهد أيضاً أن الحج الأكبر يوم النحر (۴).

وذكر الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن على بن أبى طالب (عليه السلام) أنّه قال: سُئِل الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم ")أىّ يوم يوم الحج الأكبر؟ قال: يوم عيد الأضحى "(۵).

وروى أبو الشيخ عن على أيضاً قوله ":يوم الحج الأكبر يوم عيد الأضحى "(۶).

وروى ابن مردويه عن ابن أبى أوفى، وهذا عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قوله ":يوم الأضحى هذا يوم الحج الأكبر "(۷).

وروى ابن داود وابن ماجة... وابو نعيم فى حليته عن ابن عمر أنّه قال: وقف رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم عيد الأضحى فى حجة الوداع بين الجمار وسأل الناس: ما هذا اليوم؟ قالوا: يوم عيد الأضحى، فقال الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم ")هذا يوم الحج الأكبر "(۸).

وروى البخارى وغيره، هذا عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أيضاً (۹).

ويقول أبو هريرة. بعثنى أبو بكر فى هذه السنة مع الموءَذنين الذين أرسلهم يوم عيد الأضحى. ثم بعث الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) علياً لقراءة آيات البراءة (۱۰).

وتبين هذه الرواية أيضاً أن اليوم الذى قرأ فيه على (عليه السلام) آيات البراءة على الناس هو يوم عيد الأضحى، ولذلك فإن يوم الحج الأكبر هو ذلك اليوم.

ويقول ابن أبى شيبة: يرى أبو جحيفة أيضاً أن الحج الأكبر يوم عيد الأضحى، وروى عطا وابن جرير هذا عن ابن عباس أيضاً (۱۱).

ويروى ابن جرير عن المغيرة بن شعبة: أنه خطب فى يوم عيد الأضحى وقال: هذا يوم الحج الأكبر (۱۲).

۱- ۲۹ تفسير المنار ۱۵۲: ۱۰.

۲- ۳۰ تفسير روح البيان ۳۸۵: ۳.

۳- ۳۱ تفسير الفخر الرازى ۲۲۱: ۱۵.

۴- ۳۲ مجمع البيان ۵: ۵.

۵- ۳۳ الدر المنثور ۲۱۱: ۳.

۶- ۳۴ نفس المصدر.

۷- ۳۵ نفس المصدر.

۸- ۳۶ نفس المصدر.

۹- ۳۷ أحكام القرآن، ابن عربى ۴۴۹: ۲.

۱۰- ۳۸ نفس المصدر: ۴۵۰.

۱۱- ۳۹ تفسير الفخر الرازى ۲۲۱: ۱۵.

۱۲- ۴۰ الدر المنثور ۲۱۱: ۳.

ص: ۸۰

ويروى ابن أبى شيبة عن أبى إسحق أنه قال: سألت عبدالله بن شداد عن الحج الأكبر فأجاب: يوم عيد الأضحى، والحج الأصغر العمرة (۱).

ويقول سيّد قطب فى تفسيره، فى ظلال القرآن:

.... "ويوم الحج الأكبر اختلفت الروايات فى تحديده: أهو يوم عرفة أم يوم النحر؟ والأصح أنه يوم النحر "(۲).

ويقول ابن كثير فى تفسيره ":يوم الحج الأكبر يوم عيد الأضحى وهو أفضل أيام إقامة مناسك الحج وأكبرها "(۳). وهذه عقيدةصاحب تفسير المراغى أيضاً حيث يقول:

"يوم الحج الأكبر يوم النحر الذى فيه تنهى فرائض الحج، ويجتمع الحجاج لاتمام مناسكهم وسنتهم فى منى "(۴).

ويقول محمد رشيد رضا فى المنار ضمن تفضيله: إنّ الحج الأكبر يوم عيد الأضحى [اليوم الذى] تنهى فيه مناسك الحج (۵).

وبعد أن يورد الطبرى أقوالًا مختلفة عن الحج الأكبر يقول: أفضلها وأصحها عندنا قول من يقول: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وذلك لوجود أخبار كثيرة عن جماعة منصحابة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) تقول: إن على بن أبى طالب قرأ آيات البراءة فى يوم عيد الأضحى. وبالاضافة إليها، ذكرنا روايات عديدة عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) تقول ":يوم عيد الأضحى يوم الحج الأكبر. "ثم يقول تأييداً لهذا الحديث: تكتسب "يوم "معناها فى مثل هذه العبارات مما تضاف إليه، فحينما يقول الناس "يوم عرفة" فالمراد هو اليوم الذى يقفون فى عرفات. و "يوم الأضحى "اليوم الذى يضحون فيه، و "يوم الفطر "اليوم الذى يفطر الناس فيه. وكذلك "يوم الحج "اليوم الذى يوءَدون فيه الحج. فالناس ينهون مناسكهم فى يوم عيد الأضحى وينتهى حجهم وأخيراً فإن انتهاء الحجّ يوم عيد الأضحى (۶).

وورد فى رواية أخرى: أن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) كان على ناقة حمراء فقال ":أتدرون أىّ يوم يومكم؟ قالوا: يوم النحر، فقال:صدقتم، يوم الحج الأكبر "(۷).

ويقول أبو بشر: اختصم على بن عبدالله بن العباس مع رجل من آل شيبة فى يوم الحج الأكبر، وكان على بن عبدالله يقول: إنه يوم عيد الأضحى، والثانى يقول: يوم عرفة، فأَرسل شخصٌ إلى سعيد بن جبير وسأله فقال: يوم عيد الأضحى (۸)....

وكانت قراءة على (عليه السلام) لآيات البراءة فى منى، وفى يوم عيد الأضحى.

۱- ۴۱ نفس المصدر: ۲۱۲.

۲- ۴۲ فى ظلال القرآن ۱۳۶: ۴.

۳- ۴۳ تفسير ابن كثير ۵۲۱: ۲.

۴- ۴۴ تفسير المراغى ۵۵: ۱۰.

۵- ۴۵ تفسير المنار ۱۵۳: ۱۰.

۶- ۴۶ تفسير الطبرى ۷۵: ۶.

۷- ۴۷ نفس المصدر: ۵۳.

۸- ۴۸ نفس المصدر: ۷۱.

ص: ۸۱

ويروى أبو الصباح الكنانى عن الامام الصادق (عليه السلام) أنه قال ":بعد أن رجع الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) من غزوة تبوك، عزم على الحج فقال: إنه يحضر البيت مشركون، يطوفون عراة، فلا أُحب أن أحج حتى لا يكون ذلك (۱).

فنزلت إثر ذلك سورة براءة، وبعث الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) إلى مكة لقراءة الآيات على المشركين، ويشرح الامام الصادق (عليه السلام) هذه المهمة بقوله: لم يمنع الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) المشركين من إقامة مناسك الحج بعد فتح مكة، وكان المشركون قد امتهنوا هذه المناسك بأعمالهم السيئة وعقائدهم الخرافية، ولم يكن لهذا أن يدوم. ومن أعمالهم هذه:

كانت أحدى سنن عرب الجاهلية فى الحج، اعتقادهم بأن من يدخل مكة ويطوف بثيابه، لا يجوز له أن يحتفظ بثوبه هذا بعد الطواف، ويستفيد منه؛ ولذلك كان يتصدق به بعد طوافه. أو أنه كان يكترى ثوباً يطوف به ثم يعيده إليصاحبه، والذين كانوا لا يملكون القدرة على الاكتراء ولا يملكون سوى ثوب واحد، كانوا يخلعونه ويطوفون عراة. وقد حدث يوماً أن جاءت امرأة جميلة للطواف فى المسجد الحرام وكانت لا تملك غير ثوب ولم يُكرها أحد ثوباً، فطافت عارية والناس يتفرجون عليها. وبعد انتهاء الطواف، طلب بعضهم الزواج منها، فردّتهم المرأة وقالت: إن لى زوجاً. ولم يكن لهذا العمل السيء والمهين أن يدوم ويسيء إلى حرمة بيت الله.

وحينما نزلت الآيات الأوَل من سورة براءة على رسول الله، أعطاها إلى أبى بكر، وأمره أن يذهب إلى مكة، وأن يقرأها على الناس بمنى يوم عيد الأضحى، وما إن ذهب أبوبكر حتى نزل جبرائيل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقال:

"لا يؤدى عنك إلّا رجل منك."

وقد أورد ابن عربى هذه الجملة ضمن رواية بقوله ":إنه لا يؤدى عنى إلّا رجل من أهل بيتى "...(۲).

ثم إن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) اختار على بن أبى طالب (عليه السلام) لهذه المهمة وبعث به خلف أبى بكر، فلحقه على (عليه السلام) فى منطقة الروحاء (۳) (أو كما ورد فى بعض الروايات، فى ذى الحليفة) (۴)، وأخذ منه الآيات، فعاد أبوبكر إلى الرسول خائفاً وجلًا وقال: هل نزل فىّ شىء؟ فقال الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): لا إن الله أمرنى أنه "لا يؤدى عنك إلّا أنت أو رجل منك."

وقال على (عليه السلام):

لقد أمرنى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن أبلغ الناس أمر الله بألّا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك" (۵).

۱- ۴۹ تفسير القمى ۲۸۱: ۱.

۲- ۵۰ أحكام القرآن ۴۵۳: ۲.

۳- ۵۱ الروحاء: موضع بين مكة ومدينة، يبعد عن المدينة حوالى ۳۰ ميلًا.

۴- ۵۲ نور الثقلين ۱۷۸: ۲.

۵- ۵۳ نفس المصدر: ۱۸۱؛ تفسير الصافى ۳۱۹: ۲.

ص: ۸۲

ويتبين من هـذه الروايـة: أن إبلاغ أمير المؤمنين (عليه السـلام) آيات البراءة كان فى يوم عيـد الأضـحى وفى منى، وعلى هـذا فإن يوم الحج الأكبر يوم عيد الأضحى أيضاً.

ويروى حريز عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: قرأ على بن أبى طالب (عليه السلام) آيات البراءة بعد ظهر يوم عيد الأضحى (۱).

ويروى الترمذى عن زيد بن يُثَيْع أنه سئل: ما كانت مهمتك فى الحج؟ فقال: أربعة أمور:

۱- لا يطوف بالبيت عريان.

۲- من كان بينه وبين النبىِّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) عهد فعهده إلى مدته.

۳- من لا عهد له يمهل أربعة أشهر.

۴- لا يدخل الجنة إلّا نفس مؤمنة (۲).

ويروى ابن عربى نقلًا عن أبى سعيد محمد بن طاهر، وهذا عن الاستاذ أبى مظفر طاهر بن محمود شاهبور، أنه قال: إنّ أحد الأدلة على إرسال على (عليه السـلام) فى هـذه المهمـة، أن العرب فى الماضـى كانوا لا ينقضون عهداً إلا بحضورصاحب العهد أو رجل من أهل بيته، وأراد الرسول (صـلّى الله عليه وآله وسلم) ألّا يدع للمشركين حجة، وأن يسكت ألسنتهم فى المستقبل. فأرسل ابن عمه الذى كان من بنى هاشم، ومن بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى مكة لنقض هذا العهد (۳).

ويؤيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار وجود مثل هذه العادة، دون أن يشير إلى مصدره، ويبدو أنه نقل عن هذه الرواية أيضاً (۴).

ويظهر أن مثل هذا الموضوع ليسصحيحاً لأن:

أولّا: كان الرسول (صـلّى الله عليه وآله وسلم) مطلعاً على عادات عرب الجاهلية، ولو وجدت هذه العادة لما كان من الواجب أن يختار أبابكر أولًا. ثم يعهد بالمهمة إلى على (عليه السلام) بعد نزول الآيات.

ثانياً: يعتقد المفسـرون أن اختيار على (عليه السلام) لهذه المهمة كان من قبل الله، أبلغها جبرائيل الأمين رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وأن هذا الاختيار الإلهى أهم من العمل بعادة جاهلية.

ثالثاً: تم إبلاغ آيات البراءة والرسول (صـلّى الله عليه وآله وسلم) فى أوج قدرته، وبعد فتح مكة، وفى الوقت الذى كان المشركون فيه أذلاء، ولم تكن لديهم القدرة على الاعتراض فى المستقبل على الرسول لنقضه العهد.

وعلى كل حال لا شك فى أن الرسول (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) أمر أبابكر فى البـدء بابلاغ الآيات، ثم ألغى هذه المهمة وعهد بها لعلى بن أبى طالب (عليه السلام).

۱- ۵۴ نور الثقلين ۱۷۹: ۲.

۲- ۵۵ تفسير القرطبى ۶۸: ۸؛ أحكام القرآن، ابن عربى ۴۵۴: ۲.

۳- ۵۶ القرطبى ۶۸: ۸.

۴- ۵۷ تفسير المنار ۱۵۸: ۱۰.

ص: ۸۳

وقد سعى بعضهم ومنه محمد رشيد رضا إلى إثبات أن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أرسل أبابكر إلى مكّة أميراً للحج، وأمر عليّ بن أبى طالب (عليه السلام) بابلاغ الحجاج سورة براءة (۱).

ولكن لا يمكن لهذا الكلام أن يكونصحيحاً لأن إبلاغ ":لا يحجّ بعد العام مشرك "يتعلق بأمير الحاج مباشرة. كما ورد فى الروايات، ثانياً أنه "لا يبلّغها إلّا أنا أو رجل من أهل بيتى "(۲).

والأعجب من هذا أن السادة حينما يواجهون هذه المشكلة، ولا يجدون جواباً لها يلجأون إلى القول أن ابابكر أمر علياً (عليه السلام) بقراءة آيات سورة براءة (۳).

بينما كان إبلاغ هذه الرسالة بأمر من الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ولم تكن هناك حاجة لأمر جديد من أبى بكر. ويسعى أبو هريرة لأثبات إبلاغ آيات البراءة فى يوم عيد الأضحى لنفسه ويذكر أن عليا (عليه السلام) كان أحد الذين عُهد اليهم بهذه المهمة أيضاً؟! (۴).

وقد طغى التعصب على عينى وأذنى السيد محمد رشيد رضا بشكل جعله يهاجم الشيعة بعد روايته لهذه المسائل بشدة متسائلًا لماذا يستفيدون من هذه القضية لاثبات فضيلة لعلى بن أبى طالب (عليه السلام)؟!

فكيف لانسان يعتبر نفسه مفسراً للقرآن يمنح نفسه مثل هذه الجرأة فيعمل على تحريف الحقائق، ويتمادى ليطلب الموت والقتل للشيعة أو كما يقول الروافض (۵)؟.

ومما يؤسف له أنهم تمادوا لإنكار هذه الفضيلة، إلى حدّ دعا محمد رشيد رضا- بعد أن تبين كون أبى بكر أميراً للحاج- لنقل رواية عن أهل السنة هى: إن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) اختار أبابكر أميراً للحاج، وعلياً (عليه السلام) مبلغاً آيات البراءة، لأن أبابكر مظهر الرحمة والجمال الإلهى، وعلياً (عليه السلام) أسد الله ومظهر الجلال الإلهى (فصفة القهر منصفات الجلال)، ولمّا كان الأمر هنا نقض عهد المشركين [أى أن الشدة ضرورية]، فقد عهد بهذه المسؤولية لعلى بن أبى طالب (عليه السلام) (۶)!

ويسعى ابن كثير بتعصبه للغضّ من فضيلة على بن أبى طالب الكبيرة هذه، باضعاف حديث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) الذى قال فيه "لا يبلغها إلّا أنا أو رجل من أهل بيتى "فيصفه بالضعف وأنه غيرصحيح (۷)!

ويقول فضلًا عن ذلك: وما جاء فى الرواية، أن أبابكر عاد إلى المدينة، بعد أن أبلغ رسالة الرسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلم)، فليس معناه أن أبابكر رجع من فوره، بل بعد قضائه للمناسك التى أمره بها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) (۸).

والأسوأ من هذا، أن ابن كثير يذكر نقلًا عن مسند أحمد بن حنبل: أنه حين أمر الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) بابلاغ آيات البراءة، أجاب على (عليه السلام): يا رسول الله لست باللسن ولا بالخطيب!! فقال له الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم): لا بدّ لى أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت، فقال على (عليه السلام) فإن كان ولا بدّ فسأذهب أنا! ودعا الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) لعلى، ووضع يده على فيه (۹).

۱- ۵۸ نفس المصدر: ۱۵۵.

۲- ۵۹ نفس المصدر: ۱۵۷.

۳- ۶۰ نفس المصدر: ۱۵۶.

۴- ۶۱ تفسير ابن كثير ۵۲۱: ۲.

۵- ۶۲ نفس المصدر: ۱۶۴.

۶- ۶۳ تفسير المنار ۱۶۲: ۱۰.

۷- ۶۴ تفسير ابن كثير ۵۲۲: ۲.

۸- ۶۵ نفس المصدر.

۹- ۶۶ نفس المصدر، مسند أحمد ۱۵۰: ۱.

ص: ۸۴

فواعجبا ما يفعل التعصب وكيف ينحرف بالانسان ويضلّه! فعلى (عليه السلام) ذلك الخطيب المصقع، والمحدث المبدع، الذى تنجس الأنفاس فى الصدور ببدء كلامه، ويكلّ لسان العاشقين أمثال (همّام "بسماع بيانه، يوصف بضعف اللسان، وعدم القدرة على الكلام.

وبديهى أن مثل هذه التعصبات لا يمكن أن تلقى ستاراً على الحقائق وأن تخفى الوقائع. فالحق ماقيل: من أن اختيار على (عليه السلام) لهذا الأمر المهم، ينمّ عن فضيلة كبرى، لا يقدر على القيام بها سوى من كان من أهل بيت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ونفسه وروحه.

يقول المرحوم العلّامة الطباطبائى- رضوان الله تعالى عليه- فى ذيل الآية الشريفة: وأذان من الله ورسوله....:

"المراد بيوم الحج الأكبر منها أنه يوم النحر من السنة التاسعة للهجرة لأنه كان يوماً إجتمع فيه المسلمون والمشركون، ولم يحج بعد ذلك العام مشرك. ثم يضيف: وهو المؤيد بالأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، والأنسب بأذان البراءة، والاعتبار يساعد عليه؛ لأنه أكبر يوم اجتمع فيه المسلمون والمشركون من أهل الحج عامة بمنى، وقد ورد من طرق أهل السنة روايات فى هذا المعنى، غير أن مدلول جلّها أن الحج الأكبر اسم يوم النحر، اليوم العاشر من كل سنة وليس العام التاسع للهجرة فقط. ويتكرر على هذا كل سنة، ولم يثبت عن طريق النقل أن اسم اليوم العاشر هو يوم الحج الأكبر "(۱).

ويتابع كلامه فى ذيل تلك الآية الكريمة فيقول:

"وكيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول؛ لأن وجود يوم بين أيام الحج يجتمع فيه عامة أهل الحج، يتمكن فيه من أذان براءة كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله ":يوم الحج الأكبر "إلى نفسه، ويمنع شموله لسائر أيام الحج التى لا يجتمع فيها الناس ذلك الاجتماع "(۲).

وورد فى "معجم دهخدا "نقلًا عن مهذب الأسماء أن الحجَّ الأكبر هو عيد الأضحى وعيد النحر (۳).

ويستنتج مما مرّ أن:

۱- المراد من يوم الحج الأكبر: يوم عيد الأضحى.

۲- استعملت عبارة "يوم الحج الأكبر "لأول مرة ليوم عيد الأضحى فى السنة التاسعة للهجرة. وكررت هذه العبارة بعد سنة فى حجة الوداع؛ لذلك يمكن القول: يوم الأضحى من كل سنة هو يوم الحج الأكبر.

۳- حينما يرد "الحج الأكبر "بدون كلمة "يوم "فالمراد الحج مقابل العمرة.

۱- ۶۷ تفسير الميزان ۱۴۹: ۹.

۲- ۶۸ نفس المصدر.

۳- ۶۹ معجم دهخدا. الحج الأكبر: ۳۱۵.

ص: ۸۵

ويقول الطبرى، بعد نقله للآراء المختلفة عن سبب تسمية هذا اليوم بالحج الأكبر: إن أصح هذه الأقوال عندى قول من يقول: الحج الأكبر بمعنى الحج، والحج الأصغر بمعنى العمرة، لأن أعمال الحج أكثر من أعمال العمرة (۱).

۴- وكما ورد فى بعض المصادر، فإن يوم عرفةصادف فى السنة التى حج فيها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يوم الجُمعة، وكذلك قولصاحب كتاب الفقه الإسلامى وأدلته "قد ثبت فى الصحيحين أن يوم عرفة الذى وقف فيه النبى (صلّى الله عليه وآله وسلم) كان يوم الجمعة "(۲).

ولكن ليس من دليل فى الروايات والمصادر التاريخية يثبت أن مصادفة عرفة فى ذلك الزمن ليوم الجمعة، ما يدل على أن حج تلك السنة هو الحج الأكبر، ويبدو أن اعتقاد العوام بذلك أصبح مع مرور الزمن حقيقة ثابتة.

ويقولصاحب تفسير المنار: كان يوم عرفة فى حجة الوداع يوم الجمعة، وكلماصادف الوقوف فى عرفات يوم الجمعة سمى العوام تلك السنة الحج الأكبر (۳).

وورد فى "معجم دهخدا "أيضاً: يبدو أن العوام يقولون للعام الذى يصادف فيه عيد الأضحى يوم الجمعة، الحج الأكبر، ويظنون أن ثواب هذا الحج أكثر (۴).

۱- ۷۰ تفسير الطبرى ۱۶۰: ۱۰.

۲- ۷۱ الفقه الاسلامى ۲۱۲: ۳.

۳- ۷۲ تفسير المنار ۲۲۹: ۹.

۴- ۷۳ معجم دهخدا الحج الأكبر: ۳۱۵.

ص: ۸۶

ص: ۸۷

اسماء مكّة

ص: ۸۸

أسماء مكّة

دراسة تاريخية تحليلية فى المعانى والدِلالات

تأليف: محمّد مهدى الفقيهى

موقع مكة وحدودها:

تقع مدينة مكة المكرمة فى غرب الجزيرة العربية من ناحية تهامة (۱)، على بُعد حوالى (۸۰) كيلومتراً شرقى البحر الاحمر؛ يحدّها من الشمال المدينة المنوّرة ومن الشرق نجد، ومن الغرب جدّة، فيما تنتهى من الجنوب بعسير واليمن (۲).

تقع مكة على خط طول (۴۰) درجة و (۹) دقيقة، وعلى خط عرض (۳۱) درجة و (۲۸) دقيقة من خط الاستواء؛ فيما يتراوح عدد سكانها الدائمين ما يقارب (۳۵۰۰۰۰) نسمة، وترتفع عن مستوى سطح البحر (۳۳۰) متراً (۳).

يمتد الجزء الأساس من المدينة حول أطراف المسجد الحرام، فى منخفض تحيطه الجبال من كلّ ناحية (۴). والى هذا السبب بالذات يعزو ياقوت الحموى أحد أسباب تسميتها بهذا الاسم، حيث يقول ما نصه ":سميت مكة لانّها بين جبلين مرتفعين عليها، وهى فى هَبْطة بمنزلة المكّوك "(۵).

أما الآن فقد اتسعت المدينة وامتدّ عمرانها الى اطراف الجبال التى تحيط بها، بل سطحت بعض الجبال لتحلّ محلّها الأبنية والعمارات المرتفعة.

وحول أسماء الجبال التى تحيط بمكة فقد ذكر ابراهيم رفعت باشا، أَنَّهُ يحيطها من جهة الشمال والشمال الشرقى جبال: الفلج، قعيقعان، الهندى، لعلع، وَكداء. أما من جهة الجنوب والجنوب الشرقى فتحدّها مرتفعات وجبال: أبو حديدة، كُدَى، كُدَّى، أبو قبيس، وَخندمة (۶).

إنَّ رحلة ناصر خسرو تُعدّ من بعد رحلة ابن فضلان (كتبها فى القرن الثالث الهجرى) من أقدم كُتب الرحلات فى التأريخ الاسلامى، وقد توفّر ناصر خسرو على وصف مكة بالشكل التالى ":تقع مكة بين جبالٍ عالية بحيث لا تستطيع رؤية المدينة حتى تصل اليها. أما جبل أبو قبيس فهو يشرف على مكة ويظللها كالقبة، لانه اقرب أعلى الجبال اليها. والمدينة تمتد فى المساحة الواسعة بين الجبال، حيث يقع المسجد الحرام، تحيط به الاسواق والازقة والمحلات (۷).

أما بطليموس فقد ذكر مكة باسم "ماكورابا "(۸)ومعناها: المكان المقدّس.

ومما يجدر الاشارة اليه بعد هذه المقدمات العامة، ان لمكة اسماء كثيرة حتى بلغ من كثرتها انصنّف الفيروزآبادى رسالة مفصّلة فى ذكرها (۹).

۱- ۱ المسالك والممالك ۱۷: ۱۶.

۲- ۲ تأريخ مكة، احمد السباعى.

۳- ۳ موسوعة العتبات المقدسة، قسم مكة: ۱۴ لغت نامه دهخدا: مكة.

۴- ۴ معجم البلدان ۱۸۲: ۵.

۵- ۵ نفس المصدر.

۶- ۶ شفاء الغرام، مرآة الحرمين الشريفين ۱۸۷: ۱.

۷- ۷ سفر نامه ناصر خسرو ۹۷- ۹۸.

۸- ۸ موسوعة العتبات العاليات/ نقلًا عن: دائرة المعارف الاسلامية.

۹- ۹ لم يفلح كاتب هذه السطور فى العثور على هذه الرسالة ورؤيتها، وانما اعتمدنا فى ذكرها على ما قاله قطب الدين النهروانى؛ راجع: الاعلام باعلام بيت الله الحرام: ۱۷ و ۱۸ طبعة ليدن.

ص: ۸۹

وفی اشارة الی کثرة اسماء مکة ذکر النووی: اننا لا نعرف من بین المدن ما یضاهی مکة والمدینة بکثرة الاسماء (۱).

اما کاتب هذه السطور فقد انتهی به التقصی- فی حدود هذا البحث- للوقوف علی سبعین اسماً من أسماء مکة، هی کما یلی:

۱- مکة، ۲- بکة، ۳- أم القری، ۴- القریة، ۵- معاد، ۶- الوادی، ۷- البلدة، ۸- البلد، ۹- البلد الأمین، ۱۰- حرم امن، ۱۱- حرم، ۱۲- المسجد الحرام، ۱۳- البیت العتیق، ۱۴- مخرجصدق، ۱۵- بساسة، ۱۶- أم رحم، ۱۷-صلاح، ۱۸- الرأس، ۱۹- العرش، ۲۰- النساسة، ۲۱- الباسة، ۲۲- الناسة، ۲۳- العروض، ۲۴- کوثا، ۲۵- ام کوثا، ۲۶- فاران، ۲۷- المقدسة، ۲۸- قریة النمل، ۲۹- الحاطمة، ۳۰- الحرم، ۳۱- برة، ۳۲- طیبة، ۳۳- القادس، ۳۴- المذهب، ۳۵- العرشُ، ۳۶- القادسة، ۳۷- المعطشة، ۳۸- الرتاج، ۳۹- ام زحم، ۴۰- امصح، ۴۱- ام روح، ۴۲- بساق، ۴۳- المکتان، ۴۴- النابیة، ۴۵- ام الرحمة، ۴۶- الناشتة، ۴۷- سبوحة، ۴۸- السلام، ۴۹- نادرة، ۵۰- العرویش، ۵۱- الحُرمة، ۵۲- الحِرمة، ۵۳- قریة الحمس، ۵۴- أم راحم، ۵۵- نقرة الغراب، ۵۶- البنیة، ۵۷- ناشة، ۵۸- تاج، ۵۹- کبیرة، ۶۰- ام رحمن، ۶۱- السیل، ۶۲- البلد الحرام، ۶۳- حرم الله تعالی، ۶۴- بلد الله تعالی، ۶۵- العذراء، ۶۶- النجز، ۶۷- العُرْش، ۶۸- العُرُش، ۶۹- العروش، ۷۰- القادسیة.

إنَّ بین هذه الأسماء السبعین تتمیّز الأربعة عشر الأولی انها ذُکرت فی القرآن الکریم کما سنشیر لذلک باسهاب.

سبب تسمیة مکّة بهذه الأسماء:

یقوم منهج البحث علی ذکر کل اسم، أو مجموعة من الأسماء وبیان وجه التسمیة ومعناها وما تدل علیه، وفق ما یلی:

۱: مکة:

قال تعالی: وهُو الذی کفَّ أیدیَهم عنکم وأیدیَکم عنهم ببطن مکّةَ من بعد ان اظفرَکم علیهم وکانَ الله بما تعملون بصیراً (۲).

قبل ان ندخل فی التفاصیل نجد من الضروری ان نوفّر الإجابة علی السؤال التالی: ما هی البقعة التی یُطلق علیها مکّة علی وَجه التحدید؟

ثمة فی الإجابة خمسة آراء نستعرضها کما یلی:

۱- ۱۰ جامع اللطیف، معجم البلدان.

۲- ۱۱ الفتح: ۲۴.

ص: ۹۰

۱- أن مكة تُطلق على تمام منطقة الحرم، وجميع الحرم داخل فى العنوان، كما هو عليه نظر الروايات الوصلة عن أهل البيت (ع)، وكما ذهب لذلك غيرهم أيضاً (۱).

۲- أن مكة تشمل حدود المدينة وحسب، فما يدخل فى نطاق المدينة يُطلق عليه مكة كما تطرح ذلك روايات من الفريقين (۲).

۳- مكة هى أطراف الكعبة وحسب (۳).

۴- مكة هى اسم يشمل المسجد والمطاف (۴).

۵- مكة هى منطقة فى ذى طُوى (۵).

هذه خمس نظريات قيلت فيما يُطلق عليه عنوان مكة، أما سبب التسمية فقد ذكروا لها وجودها عشرة، هى:

أ: أنَّ الباعث على التسمية هو وقوعها فى هضبة يابسة، بحيث حُرمت المدينة من نهر جارٍ، ومن عيون ماء تتدفق المياه منها بصورة طبيعية، بحيث اضطروا الى استخراج المياه من آبار عميقة تغوص فى باطن الارض. وبتعبير ياقوت الحموى ":لانهم كانوا يمتكون الماء اى يستخرجونه "(۶). فى حين ذكر البعض انَّ السبب فى هذا الوجه هو انَّ أرضها كانت تمتك الماء؛ أو بتعبير الفخر الرازى": كأن ارضها امتكت ماءها "(۷).

ب: إنّما سميت مكة "لأنها تُمكّ الجبّارين؛ أى تذهب نخوتهم "(۸). وتستأصل عرورهم.

ج: سُميَّت كذلك "لإنها تمكّ الذنوب؛ أى تستخرجها وتذهب بها كُلّها "(۹).

د ":لانها تجذب الناس اليها؛ من قول العرب: امتك الفصيل ضرع أُمه "(۱۰) والباعث لهذا الجذب دعوة الخليل ابراهيم (عليه السلام) وتوفّرها على وجود ضروب من الآيات الإلهية البينات فيها.

ه-: قيل لها مكة "لازدحام الناس بها؛ من قولهم: امتك الفصيل ضرع امه اذا مصّه مصّاً شديداً "(۱۱). لقد ذكر هذا الوجه ياقوت الحموى، بيدَ انَّهُ ظهر وكأنه لا يرضاه، إذ لم يصح عنده التشبيه بين ازدحام الناس بمكة وبين مصّ الفصيل لضرع أُمّه مصّاً شديداً. أما ابن منظور فى لسان العرب، ومؤلف تاج العروس، فقد ذكرا هذا الوجه (۱۲).

و ":سميّت مكة لانها تمكّ مَن ظَلَم؛ أى تنقصه "(۱۳) وفى ذلك ينشد بعضهم:

يا مكةُ الفاجرَ مُكى مكّا ولا تمكّى مَذْحِجاً وعَكّا وربما استطعنا ان نتمثل قصة أصحاب الفيل مصداقاً لهذه التسمية، حيث يقول تعالى: أَلم تَرَ كيفَ فعَلَ رَبُّكَ بأَصحاب الفيل* أَلَم يجعل كيدَهم فى تضليل* وأَرسل عليهم طيراً أَبابيلَ* ترميهم بحجارة من سجِّيل* فجعلَهم كعصفٍ مأكول.

ز: وسميت مكة ":لأنّها تمكّ الفاجر عنها؛ أى تخرجه "(۱۴).

۱- ۱۲ تفسير العياشى ۱۸۷: ۱، اخبار مكة ۲۸۱: ۱، تهذيب الاسماء ۱۵۶: ۲- ۱۵۷ ق ۲.

۲- ۱۳ علل الشرائع ۳۹۷: ۲، اخبار مكة ۲۸۰: ۱.

۳- ۱۴ معجم البلدان ۱۸۲: ۵، الجامع اللطيف: ۱۵۶.

۴- ۱۵ التفسير الكبير، الفخر الرازى ۱۵۷: ۸.

۵- ۱۶ معجم ما استعجم ۲۶۹: ۱، اخبار مكة ۲۸۲: ۱.

۶- ۱۷ معجم البلدان ۱۸۲: ۵.

۷- ۱۸ التفسير الكبير ۱۵۷: ۸، مكة، محمد هادى الامينى: ۱۹.

۸- ۱۹ معجم البلدان ۱۸۱: ۵.

۹- ۲۰ الجامع اللطيف ۱۵۷، معجم ما استعجم ۲۶۹: ۱.

۱۰- ۲۱ شفاء الغرام: ۷۷.

۱۱- ۲۲ معجم البلدان ۱۸۱: ۵.

۱۲- ۲۳ تاج العروس ۱۷۹: ۷، لسان العرب ۴۹۱: ۱.

۱۳- ۲۴ موسوعة العتبات العاليات، قسم مكة ۹: معجم البلدان ۱۸۲: ۵.

۱۴- ۲۵ الجامع اللطيف: ۱۵۷.

ص: ۹۱

وقد عدَّ العبض كابن ظهيرة الوجهين الاخيرين وجهاً واحداً.

ح: قيل لها ذلك ":لانها تجهد اهلها، مأخوذ من قولهم: تمككت العظم اذا اخرجت مخه "(۱).

الّا أنَّ الراغب الاصفهانى علّل التشبيه بقوله ":سميت بذلك لانها وسط الارض، كالمُخّ الذى هو أصل ما فى العظم "(۲).

ط: ان سبب التسمية يرتبط بموقعها، وفى ذلك قالوا ":لانها بين جبلين مرتفعين عليها، وهى فى هَبْطة بمنزلة المكّوك "(۳).

ى: يرتبط سبب التسمية بما كان يقوم به عرب الجاهلية أثناء الحج، وفى ذلك قالوا ":لِإنَّ العرب فى الجاهلية كانت تقول لا يتمّ حَجّنا حتى نأتى مكان الكعبة، فنمكّ فيه؛ أى نصفرصفير المكّاء "(۴).

لقد وردَ شبيه هذا القول فى جواب للإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) كتبه الى محمد بن سنان ":إنَّ ابا الحسن الرضا- عليه السلام- كتبَ فيما كتب من جواب مسائله ":سميت مكة لأنّ الناس كانوا يمكون فيها، وكانَ يقال لمن قصدها قد مكا، وذلك قول الله- عزّ وجلّ-: وما كانصلاتهم عِندَ البيت إلّا مكاءً وتصدية (۵).

ك: انَّ مكة مشتقة من "مكّ "بمعنى "بسط؛ "ووجه التسمية انَّ الله- سبحانه- بسط الأرض وبدَأ بها من مكة (۶). وثمة ما يؤيد ذلك من روايات "دَحو الأرض "(۷).

۲: بكة:

يقول تعالى: إنَّ أولَ بيت وضِعَ للناس لَلّذى ببكةَ مباركاً وهدىً للعالمين (۸).

قبل ان ندخل فى بحث علل التسمية يحسن بنا أوّلًا أن نحدِّد المقصود من بكة وعلى ايّ الاماكن يطلق هذا الاسم.

فى معرض الإجابة أمامنا ثمانية آراء، الأَوّلان منها ينقلان عن أهل البيت (عليهم السلام)، والآراء هى:

۱- أنّ بكة هى موضع الحجر حيث يبك الناس بعضهم بعضاً؛ أى يتزاحمون (۹).

۲- أنَّ بكة هى موضع الكعبة (۱۰)، كما نقل ذلك الازرقى عن ابن انيسة (۱۱).

۳- ذكر عكرمة انَّ المقصود من بكة هى الكعبة نفسها.

۴- بكة هى اسم لتمام الحرم.

۵- المقصود منها خصوص الحجر.

۶- أنَّ المراد منها خصوص المطاف (۱۲).

۱- ۲۶ الاحكام السلطانية، الماوردى: ۱۵۷.

۲- ۲۷ مفردات الراغب: ۴۹۱.

۳- ۲۸ معجم البلدان ۱۸۲: ۵.

۴- ۲۹ معجم البلدان ۱۸۲: ۵.

۵- ۳۰ علل الشرائع ۳۹۷: ۲ الأنفال: ۳۵.

۶- ۳۱ البحار ۸۵: ۹۹.

۷- ۳۲ تفسير العياشى ۱۸۷: ۱.

۸- ۳۳ آل عمران: ۹۶.

۹- ۳۴ العياشى ۱۸۷: ۱.

۱۰- ۳۵ الميزان ۳۸۶: ۳.

۱۱- ۳۶ اخبار مكة ۲۸۱: ۱.

۱۲- ۳۷ الميزان ۳۸۶: ۳، الاحكام السلطانية، الماوردى: ۱۵۷- ۱۵۸.

ص: ۹۲

۷- أنَّ بكة هى نفسها مكة، وقد قلبت ":الميم "الى "باء "من قول العرب ":ما هذا بضربة لازب ولازم "(۱) وهو شائع فى لغة العرب (۲).

۸- ذهب البعض للقول بأن بكة هى المساحة الفاصلة بين جبلى مكة وفيها ساحة المسجد الحرام (۳).

۹- ورد فى روايات الفريقين أنَّ بكة اسم من أسماء مكة (۴).

بواعث التسمية وعللها:

فى بواعث التسمية ثمة أسباب وعلل نعرض لها كما يلى:

أ: يعود السبب الى انَّ الناس يتباكون فيها من كلّ وجه؛ أى يبك بعضهم البعض ويدفع أحدهم الآخرة بيده. وهذا الرأى ينقل مع فوارق بسيطة عن الامام محمّد الباقر (۵)

وهناك آخرون قالوا به، منهم ياقوت الحموى والماوردى (۶).

ب: أنَّ الباعث على التسمية هو ازدحام الناس فيها رجالًا ونساءً، وقد نقل ذلك عن الامام محمّد الباقر (۷)، والامام جعفر الصادق (۸) (عليهما السلام). وممن ذكر هذا الوجه ايضاً هو الازرقى عن ابن عباس (۹).

ج: ذكر البعض انَّ الباعث على التسمية هو بكاء الناس فى مكة وحول الكعبة (۱۰).

د: وقيل: إنّها سمّيت كذلك "لانها تبك أعناق الجبابرة "(۱۱) وتذهب بغرورهم. وقد ذكر الكلينى فى الكافى رواية يقترب مضمونها من هذا المعنى اذ روى ان مكة ":كانت تسمّى بكة لأنّها تبك اعناق الباغين اذا بغوا فيها "(۱۲).

ه-: ان جهة التسمية تعود لاصطدام أرجل الناس بعضها ببعض من شدّة الازدحام (۱۳).

والذى يمكن ان يقال فى هذه الآراء، اننا اذا استثنينا الوجهين (ج) و (د) فان بقية الوجوه تردّ الى معنى واحد هو: الادحام.

۳: امّ القرى:

ذكر هذا الاسم لمكة فى موردين من كتاب الله، حيث يقول تعالى:

وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدّقَ الذى بين يديه ولتنذر أُمَّ القرى ومن حولها (۱۴).

وكذلك أوحينا إليك قرءآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ومن حولها.... (۱۵).

وثمة فى روايات اهل البيت (عليهم السلام) ما يفيد ايضاً انَّ أُمَّ القرى أحد أسماء مكة (۱۶).

وفى سبب التسمية وبواعثها وجوه، وهى:

۱- ۳۸ الزمخشرى، الكشاف ۳۸۶: ۱، معجم ما استعجم ۲۶۹: ۱.

۲- ۳۹ دراسات فى فقه اللغة: ۲۱۴.

۳- ۴۰ اخبار مكة ۲۸۱: ۱.

۴- ۴۱ الخصال ۲۷۸: ۱، الفقيه ۱۶۶: ۲، اخبار مكة ۲۸۱: ۱.

۵- ۴۲ تفسير الفخر الرازى ۱۵۶: ۸.

۶- ۴۵ معجم البلدان ۱۸۱: ۵، الاحكام السلطانية، الماوردى: ۱۵۷.

۷- ۴۶ علل الشرائع ۳۹۷: ۲.

۸- ۴۷ فروع الكافى ۵۲۶: ۴.

۹- ۴۸ اخبار مكة ۲۸۰: ۱، معجم ما استعجم ۲۶۹: ۱.

۱۰- ۴۹ مجمع البحرين ۲۵۹: ۵.

۱۱- ۵۰ النهاية فى غريب الحديث ۱۵۰: ۱، تفسير الفخر الرازى ۱۵۷: ۸، الاعلام باعلام بيت الله الحرام: ۱۷، تفسير ابن كثير: ۳۸۳.

۱۲- ۵۱ فروع الكافى ۲۱۱: ۴.

۱۳- ۵۲ معجم البلدان ۱۸۲: ۵، فروع الكافى ۲۸۱: ۴.

۱۴- ۵۳ الانعام: ۹۲.

۱۵- ۵۴ الشورى: ۷.

۱۶- ۵۵ الفقيه ۱۶۶: ۲، الخصال ۲۸۷: ۱.

ص: ۹۳

أ: لكونها اصل جميع المدن من بعدها، فهى أول مدينة على سطح الأرض. وفى هذا رايات تؤكد أنَّ مكة اول بقعة من اليابسة، ثم امتدت الأرض منها. ذكر هذا الوجه الفخر الرازى فى التفسير الكبير (۱)، وقد نسبه مؤلف "جامع اللطيف "إلى ابن عباس وابن قتيبة.

ب: سميت كذلك "لانها اعظم القرى شأناً. "وقد نسب قطب الدين نهروالى هذا الرأى لابن عباس (۲).

ح: سميت ام القرى لأنها قبلة جميع الناس يؤمونها.

د: انها اصبحت ام القرى لوجود بيت الله الحرام فيها، فالبقعة التى تشرّفت بوجود البيت، يكون لها السبق على ما سواها من المدن وتقدم عليها، فهى لها أمٌّ (۳).

ه-: وذهب البعض للقول؛ إنها سميت كذلك لانها أمان لأهل باقى المدن، والماكث فيها يأمل رحمة الله- سبحانه- (۴).

۴: القرية:

يقول تعالى: وضرَبَ الله مثلًا قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رغَداً من كلّ مكانٍ (۵).

والقرية فى لغة العرب، هى المكان الذى يجتمع فيه عدد كثير من الناس؛ لذا يقال للماء حين يجتمع بكثرة فى مكانٍ واحد ":قَرِىَ الماء."

وقد ذكر الفاكهى نقلًا عن مجاهد انَّ المراد من القرية فى الآية الكريمة، هى مكة (۶).

۵: معاد:

يقول تعالى: انَّ الذى فَرَضَ عليك القرآن لرادُّكَ إلى معاد (۷).

فقد ذهب أكثر المفسرين الى أنَّ معاد هى مكة المكرمة، كما ذكر ذلك الفخر الرازى فى تفسير الآية، حيث رجح هذا الرأى على جملة من الاحتمالات التى ذكرها، واعتبره أقرب للواقع (۸).

اما الطوسى فى التبيان فقد نسب القول بهذا الرأى لابن عباس (۹).

والعلّامة الطباطبائى، ذكره فى الميزان الى جوار احتمالات أُخرى (۱۰).

اما البخارى والنسائى فقد رفعاه بأكثر من طريق لابن عباس (۱۱).

۶: الوادى:

يقول تعالى: حكاية على لسان خليله إبراهيم: ربَّنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عِندَ بيتك المحرّم (۱۲).

ليس ثمة شك فى أنَّ المراد من الوادى فى الآية الكريمة، هو المنخفض من الأرض الذى يعبّر عنه بمكة. وقد أجمع المفسّرون على هذا الرأى.

۱- ۵۶ الفخر الرازى ۱۵۷: ۸.

۲- ۵۷ الاعلام باعلام بيت الله الحرام: ۱۷.

۳- ۵۸ الجامع اللطيف: ۱۵۷.

۴- ۵۹ لسان العرب ۱۳: ۱۲، معجم البلدان ۲۵۴: ۱.

۵- ۶۰ النخل: ۱۱۲.

۶- ۶۱ شفاء الغرام ۷۸: ۱.

۷- ۶۲ القصص: ۸۵.

۸- ۶۳ تفسير الفخر الرازى: ۲۱- ۲۵.

۹- ۶۴ التبيان ۱۸۳: ۸.

۱۰- ۶۵ الميزان ۸۸: ۱۶.

۱۱- ۶۶ تفسير ابن كثير ۳۴۵: ۳.

۱۲- ۶۷ ابراهيم: ۳۷.

ص: ۹۴

أما موضع الشك فهو: هل سبق وأن سميّت مكة فى عصر من عصورها التاريخية باسم "الوادى؟"

بين يدينا رسالة من الخليفة الثانى الى عامله على مكة يذكر هذه المدينة باسم "الوادى "(۱).

۷- ۸- ۹: البلدة، البلد، البلد الأمين:

البلد فى اللغة هو المصدر والأَوّل والأرفع، وبذلك فالبلد هو:صدر القرى (۲).

عبَّر القرآن عن مكة باسم البلد فى أربع آيات (۳) وعبر عنها ب- البلدة فى آية واحدة (۴)، وب- البلد الأمين فى آية واحدة أيضاً (۵).

وقد اقترن ذلك فى المواطن كافة باسم الإِشارة، فقال: هذا البلد، هذه البلدة، وهذا البلد الأمين وبهذه القرينة شخّص تعالى مراده واوضح مقصوده.

ومع اجتماع الكلمة على أنَّ المقصود بجميع هذه المواطن المشار اليها، هو مدينة مكة المكرَّمة، إلّا أنَّ الله شاء أن لا يذكر اسمها مُباشرة لبواعث تبحث فى مضانّها، وإنما اكتفى بالإِشارة إليها دون ذكر الاسم الصريح.

على أنَّ كلمة البلد لوحدها لم تكن ولن تكون دلالة على اسم مكة، وانما غاية ما نستطيع أن نركن إليه أنّ الله- سبحانه- أشار إلى مكة بهذه الصيغة التعبيرية بقرينة الأمين فى قوله: وهذا البلد الأمين.

نعم، يمكن أن يُحمل البلد على اسم مكة دائماً، إذا ثبت لنا أنها كانت تسمى فى مقطع من المقاطع التأريخية باسم البلد و البلدة كما ذكر ذلك القاضى الفاسى نقلًا عن أبى يحيى (۶).

۱۰- ۱۱: حرم آمن، حرم:

يقول تعالى: أَولم نُمكّن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمراتُ كلّ شىء (۷).

ويول تعالى: اولم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطّفُ الناسُ من حولهم (۸).

ليس ثمة خلاف فى أنَّ مكة هى جزء من المنطقة الحرام، وقد ذهب البعض للقول انَّ "حرم آمن "هو اسم مكة، وذلك من باب اطلاق الكل والمراد منه الجزء. ثم إنَّ اشتهار مكة بكونها حرماً آمناً يمكن ان يُعدّ دليلًا على تسمية مكة ب "-حرم آمن."

أما حرماً فلا يمكن أن يفيد لوحده دون قرينة أنَّ المراد به اسم مكة. ومعَ ذلك فقد ذهب بعض اللغوين إلى أنَّ "حرم "هو اسم لمكة (۹).

۱۲- ۱۳: المسجد الحرام، البيت العتيق:

من بين الآيات التى تنطوى على ذكر المسجد الحرام ثمة ما لا يختص بالمسجد الحرام نفسه، وانما يمكن ان يكون مصداقاً للحرم أو لمكة. وبذلك اضحى تفسير المسجد الحرام بالحرم ومكة باعثاً للبعض على أن يعدّ المسجد الحرام اسماً فى عداد اسماء مكة؛ والآيات التى تعنيها:

۱- ۶۸ شفاء الغرام ۸۴: ۱.

۲- ۶۹ نفس المصدر: ۷۸.

۳- ۷۰ ابراهيم: ۳۵، البقرة: ۱۲۶، البلد: ۱- ۲.

۴- ۷۱ النمل: ۹۱.

۵- ۷۲ التين: ۳.

۶- ۷۳ شفاء الغرام ۷۹: ۱.

۷- ۷۴ القصص: ۵۷.

۸- ۷۵ العنكبوت: ۶۷.

۹- ۷۶ تاج العروس ۲۳۹: ۸.

ص: ۹۵

أ: لقدصدق الله رسولَه الرؤيا بالحق لَتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين محلّقين رُؤُسكم ومقصّرين... (۱).

ب: وَلا تُقاتلوهم عِندَ المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه (۲).

ج: ذلك لمن لم يكن أهلُه حاضرى المسجد الحرام (۳).

فقد ذهب أبرز المفسّرين الى أنَّ المقصود بالمسجد الحرام فى الآيات الثلاث لا يختص ب- المسجد الحرام وإنما جاءتصيغة التعبير من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل- خصوصاً وأنَّ ما يؤيد ذلك أنَّ المسجد الحرام هو أسمى جزء واشرفه- إذ المراد هو مكة أو الحرم.

ولكن مع ذلك لا يعدو أنَّ يكون هذا الاستعمال- على فرض التسليم بالتقرير الأنف- استعمالًا مجازياً؛ ومعنى ذلك أنَّ ذكر المسجد الحرام لا يكشف دائماً على أنَّ المراد منه اسم مكة بالخصوص، لأنَّ لازم ذلك أن نقول: إنَّ تمام أسماء الكعبة فى القرآن هى اسم لمكة أيضاً وهذا ما لم يذهب إليه أحد.

على نفس هذا المنوال يتبينُ رأينا بخصوص من يذهب الى أنَّ البيت العتيق هو اسم من أسماء مكة (۴)، لذلك لا نجد ضرورة للتكرار والإعادة.

۱۴: مخرجصدق:

يقول تعالى: وقل ربّ أَدخلنى مُدخلَصدقٍ وأخرجنى مُخرجَصدقٍ واجعل لى من لدُنكَ سلطاناً نصيراً (۵).

ذهب بعض المفسرين الى أنَّ المراد من مخرجصدق فى الآية هومكة، كما نقل ذلك الطبرسى فى مجمع البيان، عن ابن عباس والحسن، وقتادة وسعيد بن جُبير. وثمة عدد آخر من المفسرين ذكروا هذا الاحتمال الى جوار احتمالات أُخرى (۶).

۱۵- ۲۱: بساسة، الباسة:

لقد ذكر ابرز من تعرّض الى أسماء مكة انَّ "البساسة "هى أحد أسمائها.

فقد ذكر الازرقى (۷)، وابن ظهيرة (۸)، وقطب الدين النهروالى (۹)، والفيروزآبادى وغيرهم، انَّ احد اسماء مكة هى: البساسة أو الباسة.

وممن ذكر ذلك ايضاً الصدوق (رحمه الله) نقلًا عن الامام جعفر الصادق (۱۰) (عليه السلام).

وفى وجه التسمية لم يعدَّ الجميع القول أنَّ الباعث اليها أنها تخرج الظالم أو تستأصله: ومَن يُرد فيه بإلحاد بظلم نُذقه من عذاب أليم (۱۱).

ومثل هذا التعليل روى ايضاً عن الامام الصادق (۱۲) (عليه السلام).

۱۶- ۴۵- ۵۴: أمّ رحم، أمّ رحمة، أم راحم:

من أسمائها الاخرى ":أم رحم. "وقد جاء ما يشير الى ذلك فى روايات الشيعة وأهل السنة؛ وفيماصنّف حول مكة من كتب (۱۳).

۱- ۷۷ الفتح: ۲۷.

۲- ۷۸ البقرة: ۱۹۱.

۳- ۷۹ البقرة: ۱۹۶.

۴- ۸۰ اخبار مكة وآثارها ۲۸۲: ۱، معجم البلدان ۱۸۲: ۵، شفاء الغرام: ۸۲.

۵- ۸۱ الاسراء: ۸۰.

۶- ۸۲ تفسير البيضاوى ۵۸۰: ۱، مجمع البيان ۶۷۱: ۶، الكشاف ۶۸۸: ۲.

۷- ۸۳ اخبار مكة وآثارها ۲۸۲: ۱.

۸- ۸۴ الجامع اللطيف: ۱۶۱.

۹- ۸۵ الاعلام باعلام بيت الله الحرام: ۱۷.

۱۰- ۸۶ الخصال: ۲۷۸.

۱۱- ۸۷ الحج: ۲۵.

۱۲- ۸۸ الخصال: ۲۷۸، الفقيه ۱۶۶: ۲، اخبار مكة ۲۸۲: ۱، تاج العروس ۱۰۹: ۴.

۱۳- ۸۹ نفس المصادر السابقة.

ص: ۹۶

وفی وجه التسمیهٔ قد جاء عن ابی عبدالله الصادق (علیه السلام) قوله ":کانوا اذا لزموها رحموا "(۱) وفی روایهٍٔ اخری ":کانوا اذا ظلموا رحموا "(۲).

۱۷- ۴۸:صلاح، السلام:

عدَّ بعض اللغویین هذه النعوت الثلاثهٔ اسماءً لمکهٔ (۳)".صلاح "فی قولهم من"صلح "بمعنی الامن والهدوء والسلامهٔ، وسمیت مکهٔصلاحاً لانها مرکز الأمن، حیث یقول تعالی: أو لم نمکّن لهم حرماً آمناً....

وفی بعض أشعار العرب ثمهٔ ما یشیر لاسمها هذا، کما جاء فی قول أبی سفیان بن حرب بن امیهٔ فی خطابه لابن الحضرمی:

أیا مطر هلم الیصلاح فیکفیک الندامی من قریش وتنزل بلدهٔ عزّت قدیما وتأمن أن یزورک رب جیش (۴) وللوجوده ذاتها اطلق علیها "سلام "فعدّ من اسمائها (۵).

۱۸: الرأس:

من الأسماء الاخری التی أشار الیها اللغویون "الرأس "حیث ذهب لذلکصاحب تاج العروس، وقال: انّ الرأس اسم لمکهٔ ولاحد جبالها أیضاً (۶).

وممن ذهب لذلک أیضاً السهیلی فی زوض الأنف، ومؤلف "تهذیب الاسماء. "والباعث للتسمیهٔ بنظر هؤلاء أن مکهٔ أشرف بقاع الارض واکثرها رفعهٔ وسمواً، ولذا فهی بمثابهٔ "الرأس "کما سمیّت فعلًا (۷).

۱۹- ۵۰- ۶۷- ۶۸- ۶۹: العرش، العرویش، العُرْش، العُرُش، العروش:

جمیع هذه النعوت ذکرت اسماءً لمکهٔ فی کتب اللغهٔ، الی جوار بقیهٔ الاسماء. بید انَّ البعض اختار القول؛ ان عُرُشُ وعروش هما من منازل مکهٔ، حیث استدلوا ":ان ابن عمر کان یقطع التلبیهٔ اذا نظر الی عروش مکهٔ "(۸).

وما اغفله أهل اللغهٔ هو عدم ذکرهم لوجه التسمیهٔ لهذه الأسماء. ولکنّا اذا أخذنا بنظر الاعتبار معنی "العرش "واضفنا الکلمهٔ الی" البلاد "فسنصل الی تعلیل معقول، حیث تکون مکهٔ "عرش البلاد "لانها أشرفها واسماها.

۲۰- ۲۲: النساسهٔ، الناسهٔ:

دأبت أکثر کتب اللغهٔ علی ذکر الاسمین لمکهٔ فی عدَّهٔ أسمائها الاخری، ومردّ التسمیهٔ ینتهی الی وجهین:

الأول: وهو ما ذکره الماوردی من انها "تنسّ مَن أَلحدَ فیها؛ أی تطرده وتنفیه. "وقد نسبصاحب شفاء الغرام القول فی هذه التسمیهٔ الیصاحب المطالع والنووی وابن جماعهٔ.

۱- ۹۰ الخصال ۲۷۸: ۱، الفقیه ۱۶۶: ۲.

۲- ۹۱ المصدران السابقان.

۳- ۹۲ تاج العروس ۱۸۲: ۲، منتهی الارب ۶۹۶: ۲.

۴- ۹۳ تهذیب الاسماء ج ۲/ ق ۲/ ۱۵۶، شفاء الغرام ۸۰: ۱.

۵- ۹۴ تاج العروس ۳۳۹: ۸.

۶- ۹۵ تاج العروس ۳۲۲: ۴.

۷- ۹۶ الجامع اللطیف: ۱۶۰.

۸- ۹۷ تاج العروس ۳۲۲: ۴، الصحاح ۱۰۱۰: ۳، الشفاء: ۷۹.

ص: ۹۷

الثانی: عزا البعض باعثَ التسمیة إلی قلة مائها (۱).

۲۳: العروض:

ذکر بعض علماء اللغة، أنَّ العروض اسم مشترک بین مکة والمدینة، فقالوا ":العروض مکة والمدینة وما حولها."

لقد نسب ابن ظهیرة الی مجد الدین الشیرازی قوله بهذا الاسم، دون ان یذکر علة التسمیة. والعروض فی اللغة جاء علی معانٍ هی:

العروض؛ میزان الشعر، لأنه به یظهر المتزن من المختل.

العروض؛ الجزء الاخیر من الشطر الاول من البیت.

العروض؛ الطریق فی عرض الجبل الکثیر من الشیء (الناحیة) (۲).

۲۴- ۲۵: کُوثا، أمّ کُوثا:

ذکر الازرقی فی اخبار مکة ان "کُوثا "احد أسمائها، وقد نسب القول فی ذلک الی مجاهد والسهیلی. الّا انَّ مؤلف شفاء الغرام نقل عن مؤلف المطالع، انها اسم محلة من محلّاتها تقع فیها منازل بنی عبدالدار.

اما الفاکهی نفسه فقد ذکر انَّ "کُوثا "منطقة تقع فی قیقعان؛ فیما ذهب البعض إلی أنها اسم جبل یقع فی منی.

اما "أمّ کُوثا "فقد عدّه ابن ظهیرة فی عداد اسماء مکة، ناسباً القول به الی المرجانی (۳).

۲۶: فاران:

ذکر یاقوت الحموی "فاران "من بین أسماء مکة، وقد ذکره أیضاً ابن ظهیرة الذی أخذه علی الارجح من الحموی. والاثنان لم یذکرا علّة التسمیة. الّا انَّ مؤلف "تاج العروس "ذکر انَّهُ جبل فی الحجاز یُبعث منه نبیٌّ، آخر الزمان کما جاءَ فی التوراة.

وربما استطعنا ان نتلمس من خلال هذا السیاق الباعث لهذه التسمیة، اذ طالما کانت التوراة قد ذکرت ان فاران الحجاز هی مبعث خاتم النبیین (صلّی الله علیه وآله وسلّم)، فانَّهُ حین بُعث من مکة اطلقوا علیها اسم "فاران "(۴).

۲۷- ۳۳- ۳۶- ۷۰: المقدسة، القادس، القادسة، القادسیة:

لقد ذکرت کتب اللغة أنَّ الاسماء الاربعة آنفة الذکر هی من أسماء مکة. وهذه الاسماء تشیر علی الارجح الی معنی واحد. والباعث للتسمیة، هو قولهم ":القادس من التقدیس، لأنها تقدس من الذنوب؛ أی تطهّر "(۵).

۱- ۹۸ الصحاح ۹۸۳: ۳، لسان العرب ۱۲۴: ۱۴، شفاء الغرام: ۷۹.

۲- ۹۹ الصحاح ۱۰۸۹: ۳، المنجد: ۴۹۸، الجامع اللطیف: ۱۶۱.

۳- ۱۰۰ اخبار مکة....، لسان العرب ۱۸۲: ۱۲، شفاء الغرام: ۸۰.

۴- ۱۰۱ معجم البلدان...، الجامع اللطیف: ۱۶۱، تاج العروس ۳۰۰: ۹.

۵- ۱۰۲ تاج العروس ۲۱۴: ۴، شفاء الغرام: ۸۰، الجامع: ۱۵۸.

ص: ۹۸

۲۸- ۵۵: قرية النمل، نقرة الغراب:

ذكر البعض هـذين الاسـمين لمكة. اما الفاكهى فقد ذكر انهما علامتان تدلان على مكان بئر زمزم، وقد استهدى بهما عبدالمطلب فى معرفة مكان زمزم فاقبل على تجديد حفرها.

ثمـة من ذهب الى أنَّ الاسـمين هما من أسـماء زمزم المجازيـة. وفى كل الاحوال، فانَّ الـذين قالوا بانهما من اسـماء مكـة، اهملوا علة التسمية ولم يذكروها؛ وربما استطعنا ان نعزو سبب التسمية إلى ازدحام مكة (۱).

۲۹: الحاطمة:

ذكر الازرقى "الحاطمة "فى عداد اسماء مكة، والباعث للتسمية، يعود "لحطمها الملحدين."

وقد ذكر الفاكهى وابن ظهيرة هذا الاسم ووجه التسمية (۲).

۳۲: طيبة:

ذكرهُ الفاكهى وابن ظهيرة وَعدّاهُ من اسماء مكة. ووجه التسمية والباعث اليها يعود الى حسن مكة ونقائها.

وفى هذا السياق ذهبت بعض كُتب اللغة للقول: انَّ طيبة (بفتح الطاء) اسم للمدينة، وَطيبة (بكسر الطاء) اسم لزمزم (۳).

۳۴: المُذْهَب:

ذكرهُ الفاكهى فى "شـفاء الغرام "دون ان يتوفّر على ذكر الباعث اليه. اماصاحب تاج العروس فقـد قال: انَّ "المُذْهَب "هو اسم للكعبة المشرّفة (۴).

۳۷: المعطشة:

ذكره ابن ظهيرة نقلًا عن العلامـة ابن خليل، وقـد ذكر ابن ظهيرة انَّ ابن خليل اكتفى بذكر الاسم فى عداد اسـماء مكة دون أن يعرض لكيفية التسمية وبواعثها.

والمعطش فى اللغة، يقال للمكان الذى يعطش فيه الانسان؛ وربما كان هذا باعثاً على تسمية مكة به (۵).

۳۸: الرتاج:

ذكره ابن ظهيرة والفاكهى دون ان يتوفّرا على بيان وجه التسمية ومناسبتها (۶).

۳۹: امّ زحم:

نقلهصاحب "شفاء الغرام "عن كتاب "الأنساب "للرشاطى، والباعث للتسمية هو ازدحام الناس فى مكة (۷).

۴۰: امّصح:

۱- ۱۰۳ شفاء الغرام: ۷۹، اخبار مكة ۲۸۲: ۱.

۲- ۱۰۴ اخبار مكة ۲۸۲: ۱، شفاء الغرام: ۷۹، الجامع اللطيف: ۱۵۸.

۳- ۱۰۵ شفاء الغرام: ۸۰، الجامع اللطيف: ۱۶۱، الصحاح ۱۷۳: ۱.

۴- ۱۰۶ شفاء الغرام: ۸۰، تاج العروس ۲۵۸: ۱.

۵- ۱۰۷ الجامع اللطيف: ۱۵۹، لسان العرب ۲۶۷: ۹.

۶- ۱۰۸ شفاء الغرام: ۸۱، الجامع اللطيف: ۱۵۹.

۷- ۱۰۹ المصدران السابقان.

ص: ۹۹

نقله إبن ظهيرة عن إبن الاثير فى "المرصع "من دون أن يذكر علة التسمية (۱).

۴۱: أم رَوح:

ذكره ابن الاثير فى "المرصع "وردّه الى كثرة الرحمة ووفرتها فى مكة (۲).

۴۲: بساق:

ذكر ابن رشيق فى "العمدة "وياقوت الحموى فى "معجم البلدان "أن "بساق "أحد أسماء مكة، وقد ذكرا شعراً لأمية بن حرثان يؤيد دعواهما، حيث قال:

ساستعدى على الغاروق رب له عمد الحجيج الى بساق بيد انَّ البعض قال: انَّ "بساق "اسم جبل فى عرفات (۳).

۴۳: المكتان:

نقل الفاكهى عن استاذه مجد الدين الشيرازى انَّ "المكتان "من اسماء مكة. وقد احتمل ان يكون الباعث للاسم شعر ورقة بن نوفل الاسدى، الذى يقول فيه:

ببطن مكتين على رجائى حديثك أن أرى منه خروجاً ومن جهته نقل ابن ظهيرة عن السهيلى، أنَّ الباعث للتسمية هو توزع مكة إلى منطقتين، عليا وسفلى فبعض محلاتها تقع فى القسم المرتفع وبعضها فى القسم المخفض. لذلك جاء فى اشعار العرب ذكر مكة العليا ومكة السفلى؛ فيقال للقسمين: المكتان (۴).

۴۴: النابية:

ذكرهُ الفاكهى وابن ظهيرة ونسباه الى تفسير ابن كثير، بيد انا لم نعثر عليه حين مُراجعة التفسير؛ والله اعلم (۵)!

۴۶- ۵۷: الناشتة، ناشة:

ذكر هذين الاسمين الفاكهى وابن ظهيرة عن مجد الدين الشيرازى، وذكرا انّهُ كتب عن الباعث لهذه التسمية فى شرحه للبخارى، الّا اننا ام نعثر على الشرح للوقوف على العلة (۶).

۴۷: سبوحة:

ذهب مصنّف "تاج العروس "الى انَّ هذا الاسم لمكة أو لوادٍ فى عرفات. أما الفاكهى فقد نقله عن استاذه الشيرازى (۷).

۴۹: نادرة:

نقل ايضاً عن مجد الدين الشيرازى دون ان تذكر علة التسمية؛ التى ربما كانت من قولهم "نادرة البلاد "اذ لا مثيل لمكة ولا نظير لها بين المدن الاخرى.

۱- ۱۱۰ الجامع اللطيف: ۱۵۹، المرصع: ۱۸۶.

۲- ۱۱۱ المرصع: ۱۸۶.

۳- ۱۱۲ العمدة ۳۱: ۱، معجم البلدان ۴۱۳: ۲.

۴- ۱۱۳ شفاء الغرام: ۸۰، الجامع اللطيف: ۱۶۰.

۵- ۱۱۴ المصدران السابقان.

۶- ۱۱۵ المصدران السابقان.

۷- ۱۱۶ تاج العروس ۱۵۸: ۲.

ص: ۱۰۰

۵۱- ۵۲: الحُرمة، الحِرمة:

نقل هذان الاسمان عن مجد الدين الشيرازى أيضاً دون ان تذكر علّة التسمية.

۵۳: قرية الحُمس:

قرية الحُمس؛ تعنى: قرية قريش. وَسبب تسمية مكة بذلك يعود الى سكن قريش فى هذه المدينة المقدَّسة. وَربما كانَ مبعث اختيار قريش من بين سكنة مكة الآخرين كالجراهمة والعمالقة، يعود لوجود شخصيات منيفة فيها كرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والامام على (عليه السلام).

أما أهل اللغة فقد أوردوا ل "-حُمس "معنى الأرض المحكمة والناس الشجعان المتمسكين بدينهم (۱).

۵۶: البنية:

ذكره ياقوت الحموى وَعدّه فى أسماء مكة دون أن يذكر السبب؛ فى حين ذهب بعض اللغويين الى أنَّ "البنية "اسم للكعبة (۲).

۶۲- ۶۳- ۶۴: البلد الحرام، حرم الله، بلد الله:

يقال لمكة "بلد الله "كونهُ (سبحانه) اختارها محلًا لبيته. وَيقال لها "حرم الله "و "البلد الحرام "لانَّ الله (سبحانه) أوجب حرمتها، وجعلها فى أمن وَاهلها فى امان.

۳۱- ۵۸- ۵۹- ۶۱- ۶۵- ۶۶: برّة، تاج، كبيرة، السيل، العذراء، النجز:

ذكرت هذه الاسماء فى عداد اسماء مكة، دون أن يذكر شيءٌ. عن بواعث التسمية (۳).

۱- ۱۱۷ الجامع اللطيف: ۱۶۲، المنجد: ۱۵۳.

۲- ۱۱۸ معجم البلدان: ۵، لسان العرب ۵۱۱: ۱.

۳- ۱۱۹ شفاء الغرام: ۸۰.

ص: ۱۰۱

ص: ۱۰۲

ص: ۱۰۳

ص: ۱۰۴

هل يحق لغير المسلم ان يسكن جزيرة العرب؟

ص: ۱۰۵

هل يحق لغير المسلم أن يسكن جزيرة العرب؟

تأليف: يعقوب الجعفرى

ثمة أحكام خاصة لجزيرة العرب، مهبط الوحى الإلهى، ومنطق نور الاسلام بينتها المتون الفقهية، أهمها: انه لا يحق لغير المسلمين من المشركين واليهود والنصارى وأتباع الأديان الأُلاخرى السكن فى هذه الأرض، وعليهم أن يعتنقوا الاسلام أو يهاجروا عنها.

وقد وردت روايات عديدة فى ذلك من طرق الفريقين، نثبت فيما يلى بعضها، لنورد من بعد آراء العلماء الشيعة والسنة وأقوالهم، ثم نبحث فى حدود جزيرة العرب التى يخصها هذا الحكم، ونختم البحث برأينا فى ذلك:

۱- عن أُم سلمة، أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى عند وفاته ":أن تخرج اليهود والنصارى من جزيرة العرب "(۱).

۲- عن على بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر قال ":سألته عن اليهودى والنصرانى والمجوسى، هل يصلح لهم أن يسكنوا فى دار الهجرة؟ قال: أمّا أن يلبثوا بها فلا يصلح، وقال: إن نزلوا بها نهاراً وأُخرجوا منها بالليل فلا بأس "(۲).

۳- عن أبى عبدالله (عليه السلام) أنه قال ":لا يدخل أهل الذمة الحرم، ولا دار الهجرة، ويُخرجون منها "(۳).

۴- عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم "):أخرجوا المشركين من جزيرة العرب "(۴).

۵- عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال ":لأُخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلّا مسلماً "(۵).

۶- عن أبى هريرة، قال ":بينما نحن فى المسجد خرج النبىُّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال: انطلقوا إلى يَهُودَ، فخرجنا حتى جئنا بيت المدراس فقال: أسلموا تسلموا، واعلموا أنّ الأرض لله ورسوله، وإنّى أُريد أن اجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلّا فاعلموا أنّ الأرض لله ورسوله "(۶).

أ- آراء علماء الشيعة

۱- المحقّق الحلى:

۱- ۱ الوسائل ۱۰۱: ۱۱.

۲- ۲ نفس المصدر.

۳- ۳ مستدرك الوسائل ۲۶۲: ۲.

۴- ۴صحيح البخارى ۲۱۲: ۴.

۵- ۵ سنن أبى داود ۴۳: ۲؛ المنتقى: ۴۰۷.

۶- ۶ التاج الجامع للاصول ۴۰۳: ۴.* المِدراس: العالم الذى يدرس لهم أو البيت الذى يدرسون فيه.

ص: ۱۰۶

"ولا يجوز لهم استيطان الحجاز على قولٍ مشهور، وقيل: المراد به مكة ومدينة؛ وفى الاجتياز به والامتياز منه، تردد. ومَنْ أجازه، حدّه بثلاثة أيام؛ ولا جزيرة العرب "....(۱).

۲- الشيخ الطوسى:

"كلّ مشرك ممنوع من الاستيطان فى حرم الحجاز من جزيرة العرب، فانصولح على أن يقيم بها ويسكنها، كان الصلح باطلًا لما روى ابن عباس قال: أوصى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بثلاثة أشياء فقال: أَخرجوا المشركين من جزيرة العرب "...(۲).

۳- الشهيد الأول:

ما معناه ":لا يجوز للذمى السكن فى الحجاز وجزيرة العرب، وحدّها من عدن إلى عبادان طولًا، ومن تهامة إلى الشام عرضاً "(۳).

۴- العلّامة الحلى:

ما معناه ":لا يجوز للمشرك الذمى والحربى السكن فى الحجاز، والاجماع عليه قائم، لأن ابن عباس روى عن النبيِّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) أنّه أوصى بثلاثة أُمور، منها: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وقال: لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب (۴).

ويقول العلّامة الحلى أيضاً ما معناه: لا يجوز للكافر والحربى أو الذمى السكن فى الحجاز إجماعاً "(۵).

۵- الشهيد الثانى:

"قوله: ولا يجوز لهم استيطان الحجاز نسبه إلى الشهرة؛ لعدم الظفر بنصّ فيه من طرقنا، لكن ادعى فى التذكرة عليه الإِجماع، فالعمل به متعين، والقول بتحريم مطلق الحجاز أقوى عملًا بدلالة العرف واللغة فيدخل فيه البلدان مع الطائف وما بينهما "..(۶).

۶-صاحب الجواهر:

"ولا يجوز لهم استيطان الحجاز على قول مشهور، بل فى المنتهى ومحكى المبسوط والتذكرة الاجماع عليه، وهو الحجة بعد السيرة القطعية، التى يمكن استفادة الاجماع أيضاً منها، مضافاً إلى ما سمعته من خبر الدعائم (۷)، وإلى خبر ابن الجراح المروى من طرق العامة "(۸).

ب- أقوال علماء السنة

۱- ابن قدامة:

"ولا يجوز لأحد منهم سكنى الحجاز، وبهذا قال مالك والشافعى، إلا أن مالكاً قال: أرى أن يجلوا من أرض العرب كلّها لأن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال: لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب "(۹).

۱- ۷ شرايع الاسلام: ۹۴.

۲- ۸ المبسوط ۴۷: ۲.

۳- ۹ راجع الدروس: ۱۶۳.

۴- ۱۰ منتهى المطلب: ۹۷۱.

۵- ۱۱ تذكرة الفقهاء ۴۴۵: ۱.

۶- ۱۲ مسالك الافهام ۱۲۴: ۱.

۷- ۱۳ وهى رواية الامام الصادق التى نقلناها عن المستدرك برقم ۳.

۸- ۱۴ جواهر الكلام ۲۸۹: ۲۱.

۹- ۱۵ مغنى ابن قدامة ۶۰۳: ۱۰.

ص: ۱۰۷

۲- أبو الحسن الماوردى:

"ان لا يستوطنه- الحجاز- مشرك من ذمى ولا معاهد، وجوّزه أبو حنيفة، وقد روى.....: كان آخر ما عهد به رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن قال: لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان. وأجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن الحجاز، وضرب لمن قدم منهم- تاجراً أوصانعاً- مقام ثلاثة أيام، ويخرجون بعد انقضائها "(۱).

۳- ابن قيم الجوزية:

ما معناه ":قال مالك: ينبغى اجلاء الكفار من كل جزيرة العرب، وقال الشافعى: أن يمنعوا من الحجاز كلها، وهى عبارة عن مكة والمدينة واليمامة وأطرافها.

أما غير الحرم منه فحكمه أن يمنع الكافر الكتابى وغير الكتابى من السكن فيه والاقامة، ويستطيع أن يدخله بجواز من الامام لمصلحة معينة نحو إيصال رسالة أو حمل سلعة يحتاجها المسلمون "(۲).

۴- ابن الأثير:

ما معناه ":قال الطبرى بان على الامام أن يخرج غير المسلم من أية مدينة يتغلب عليها المسلمون، لو لم يكن للمسلمين بهم حاجة، كالعمل فى الأرض وغير ذلك، وبسبب هذه الحاجة القاهم عمر فى العراق والشام.

اعتقد الطبرى أن الحكم لا يختص بجزيرة العرب وحسب، بل يلحق بها كل مكان فى حكمها "(۳).

يتضح من الفقرات المقتبسة أعلاه أن معظم المسلمين يعتقدون بعدم جواز سكن غير المسلمين وإقامتهم فى الحجاز أو الجزيرةالعربية، سوى ابى حنيفة الذى جوّز ذلك.

ويبدو أن حكم المسألة واضح بين فقهاء الشيعة بلحاظ الإجماع الذى أشار إليه العامة الحلى فى المنتهى والتذكرة، ولم يُنقل عن الفقهاء شيء بخلاف ذلك. ولكن ما هى حدود الحجاز والجزيرة العربية؟

وهل يمكن قبول هذا الحكم المخالف للقواعد والعمومات بشكل عام، وفى جميع الحالات التى يُحتمل وجود شمول عام فيها، أم ينبغى الاكتفاء بالقدر المتيقن؟ وما هو القدر المتيقن؟

قيل فى تعريف جزيرة العرب والحجاز الكثير، وينقل المحقق عن بعض تلك الأقوال، فيقول: إن المراد من الحجاز مكة والمدينة، والمراد من جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وتوابعها. وينقل عن آخرين القول فى أن المراد من جزيرة العرب هى: المنطقة المحصورة بين عدن وعبادان طولًا، وبين تهامة وأطراف الشام عرضاً (۴).

ويعتقد العلّامة الحلّى: بأن المراد من جزيرة العرب الحجاز، والحجاز عبارة عن مكة والمدينة واليمامة وخيبر وينبع وفدك وأطرافها، ويقال لها الحجاز لأنها تحجز بين نجد وتهامة، ويضيف العلّامة فى سبب تخصيص جزيرة العرب بالحجاز، بأنه لو لم يكن ذلك لوجب إخراج أهل الذمة من اليمن أيضاً (۵).

يقول الشوكانى: قال الأصمعى: إنّ جزيرة العرب عبارة عمَّا بين عدن إلى العراق طولًا، ومن جدة إلى اطراف الشام عرضاً، وسبب اطلاق الجزيرة عليها؛ إحاطتها ببحر الهند وبحر فارس والحبشة.

وقالصاحب القاموس: إنّ جزيرة العرب، منطقة أحاط بها بحر الهند وبحر الشام ودجلة والفرات، أو أن نقول من عدن إلى أطراف الشام، ومن جدة إلى ريف العراق (۶).

۱- ۱۶ الاحكام السلطانية للماوردى: ۱۶۷.

۲- ۱۷ احكام أهل الذمة: ۱۸۴.

۳- ۱۸ فتح البارى ۲۷۲: ۶.

۴- ۱۹ شرايع الاسلام: ۹۴.

۵- ۲۰ المنتهى: ۹۷۱.

۶- ۲۱ نيل الأوطار ۶۵: ۸.

ص: ۱۰۸

ويقولصاحب الجواهر بعد نقل كلام الاصمعى وآخرين:

ولكن قد يقال: إنّ مرادهم مجرد تفسيرها، وإلّا فالسيرة على عدم منعهم من جميع ذلك. وعلى كل حال فقد قيل: إنّها سميت جزيرة العرب؛ لأن بحر الهند وهو بحر الحبشة وبحر فارس والفرات أحاطت بها، وإنّما نسبت إلى العرب لأنها منزلهم ومسكنهم... (۱).

ونستعرض فيما يلى أقولًا لياقوت الحموى وابن منظور، لنبادر من ثم إلى التحقيق فى هذا البحث:

يقول ياقوت عن الحجاز: جبل ممتدّ حالّ بين الغور غور تهامة ونجد..... وقال الأصمعى:.... فمكة تهامية، والمدينة حجازية، والطائف حجازية (۲).

ويقول عن الجزيرة العرب:... وإنّما سميت بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها..... فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التى نزلوا وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب:

تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن (۳).

ونقل ابن منظور أقولًا فى تحديد جزيرة العرب، منها: أنها ما بين حفر أبى موسى إلى أقصى تهامة فى الطول، وأما العرض فما بين رمل يبرين إلى منقطع السماوة. ثمّ يضيف: وقال مالك بن أنس: أراد بجزيرة العرب المدينة نفسها (۴).

التحقيق فى المسألة

يتّضح من الروايات وأقول العلماء: عدم جواز سكن الكفار وإقامتهم فى الجزيرة العربية والحجاز حسب الفقه الاسلامى، بل يمكن القول: إنّ ذلك من مسلّمات الفقه، والمهم أن نعرف المناطق التى يشملها هذا الحكم.

نقول: إن هذا الحكم حكم خلاف القاعدة وخلاف الأصل، ولهذا يجب الاكتفاء بالقدر المتيقن وحمل العام على الخاص، والقدر المتيقن هنا مكة والمدينة. وقد خصّص هذا الحكم لهاتين المدينتين؛ كونهما مهبط الوحى ومركز الحكم الإسلامى، ويتّسمان بقداسة خاصة، ولا يمكن تعميم هذا الحكم على غير الحرمين الشريفين لا سيما فى الفقه الشيعى؛ لأن الدليل على هذا الحكم (التعميم) أمران:

۱- الإجماع الذى ادعاه العلّامة الحلّى.

۲- بعض الأحاديث القاصرة من حيث السند، أو من حيث الدلالة.

الاجماع الذى ادعاه العلّامة الحلّى فى كتابيه إجماع منقول، والأهم من ذلك أنّ دليل الإجماع: هو حديث مروى عن ابن عباس بطرق العامة (ذكرنا نصه سابقاً)، ولا يمكن لمثل هذا الإجماع أن يثبت شيئاً، وبفرض قبول الاجماع وتأييده بالسيرة القطعية- التى يمكن استفادة الإجماع أيضاً منها حسبصاحب الجواهر- نقول: إنّ العلامة ادعى الاجماع حول الحجاز فقط وليس جزيرة العرب، ومن الشائع إطلاق الحجاز على مكة والمدينة، فيلزم الاكتفاء بذلك لأن الحكم خلاف الأصل.

أمّا الروايات الواردة فى المسألة فى الكتب الروائية الشيعية، فان رواية امّ سلمة، هى الوحيدة التى جاء فيها ذكر جزيرة العرب، وقد نقلهاصاحب الوسائل عن مجالس ابن الشيخ أبى أمالى الطوسى، والكثير من رواتها مجهولون، وبعضهم لم يرد اسمه فى كتب الرجال، ويعتقد أنّها نفسها المروية عن ابن عباس بطرق العامة.

تبقى الروايتان المذكورتان بطرق الخاصة واللتان ثبتناهما سابقا (رواية على بن جعفر، ورواية دعائم الاسلام)، فرغم انه يمكن القبول بهما من حيث السند وخاصة رواية على بن جعفر المذكورة فى تهذيب الشيخ، لكن دلالتيهما على إخراج الكفار من كلّ الجزيرة العربية أو حتى الحجاز ممنوعة، لأنّ رواية على بن جعفر تمنع سكن الكفّار فى دار الهجرة فقط وهى المدينة، فيما ذكرت رواية دعائم الاسلام دار الهجرة والحرم، أى المدينة ومكة.

وبالطبع يستفاد من الآية الكريمة: إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام (۵) فى حرمة دخول المشركين إلى مكة، لا كما

احتمل البعض من أن مكة كلها يمكن أن يطلق عليها المسجد الحرام (۶)، وإنما لقوله: لا يقربوا، والدخول إلى مكة يعنى الاقتراب من المسجد الحرام.

رغم أننا نحتمل بأن هذه الآية لاتتعلق بدخول المشركين إلى مكة أو سكناهم فيها، وإنما نزلت فى مقام منعهم من الاشتراك فى مناسك الحج التى نُفّذت منذ السنة التاسعة للهجرة وبعد إعلان سورة براءة، بواسطة أمير المؤمنين على (عليه السلام).

۱- ۲۲ جواهر الكلام ۲۹۱: ۲۱.

۲- ۲۳ معجم البلدان ۲۱۸: ۲.

۳- ۲۴ معجم البلدان: ۱۳۷.

۴- ۲۵ لسان العرب ۱۳۴: ۴.

۵- ۲۶ التوبة: ۲۸.

۶- ۲۷ مجمع البيان للطبرسى ۳۲: ۵.

ص: ۱۰۹

الأمر الآخر ما قاله الشـهيد الثانى بعدم الظفر بنص فيه من طرقنا (۱)، بينما لاحظنا وجود مثل هذه النصوص، إلا أن يكون مراد الشـهيد الثانى عدم ذكر لفظ الحجاز وجزيرة العرب، وعندئذ يكون محقّاً فى ذلك.

مهما يكن من أمر، إننا نعتقـد بلحاظ منطوق الراويتين المـذكورتين، وبلحاظ أن حكم المسألـة خلاف القاعدة وخلاف الأصل ويجب أن لا نتجاوز القدر المتيقن، فان حكم إخراج الكفار يشمل مكة والمدينة فقط، ويقتضى الاحتياط أن يُخرجوا أيضاً من تهامة والحجاز ونجد وكلّ جزيرة العرب.

۱- ۲۸ مسالك الأفهام ۱۲۴: ۱.

ص: ۱۱۰

اسواق مكّة والمدينة

ص: ۱۱۱

أسواق مكّة والمدينة

تأليف: عباس المهاجر

المقدمة:

لبلاد العرب موقع جغرافى متوسط بين بلاد أعظم الدول، وأقدم الحضارات، فالى شمالها الشرقى بلاد فارس وإلى شمالها الغربى بلاد الروم ومصر وإلى غربها الجنوبى وراء البحر بلاد الحبشة وفى جنوبها البحر الهندى الذى يفصلها عن بلاد الهند.

ولا نكون مغالين إذا قلنا أن معظم تجارات العالم منذ القديم حتى القرون الوسطى هى بين هذه البلاد التى عددنا. فالدولتان العظيمتان اللتان تنازعتا على السيادة فى العالم، وهما دولتا فارس والروم، كانتا على علاقات تجارية وسياسية حسنة مع بلاد العرب فى الشمال والجنوب. واقل من تلك العلاقات علاقة الحبشة والهند باليمن وعمان والبحرين.

وكان للموصلات التجارية فى جزيرة العرب طريقان احدهما شرقى يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس برّاً ثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهى به المطاف فى اسواق الشام. والطريق الثانى وهو الأهم- غربى- يصل اليمن بالشام مجتازاً بلاد الحجاز، ناقلًا أيضاً، بضائع اليمن والحبشة والهند إلى الشام، وبضائع الشام إلى اليمن حيث تصدّر إلى الحبشة وإلى لهند فى البحر. فكان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالًا ونساءً وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من أحد هذين الطريقين، ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة، فعمل فى هذه القوافل إما سائقاً وإما منتظماً فى جملة حماتها الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم ودوابهم فيها.

قد شغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبأ والمعينين، المراكز الممتازة فى تجارة الشرق حتى ذكرتهم التوراة ووصفت ثروتهم وتجارتهم. وحمل أهل تدمر فى القديم إلى مصر وجنوب أورباصادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النفائس التى يحملها التدمريون من بلاد الشرق أثمن ما يتغالى به الملوك القياصرة.

وفوق هذا كله، كان لهؤلاء العرب ذوى الملكة التجارية الراقية اهتمام بما حولهم من الأقطار التى يتاجرون فيها وإليها ومراقبة لما يجرى هناك من أحداث وقد دفعتهم إلى ذلك طبيعة التجارة وما تتطلب من درس وإلمام بالأسواق وأمنها واحوال المسيطرين على شعوبها، وأنت تعرف ذلك من الحرب، التى كانت بين الفرس والروم فى مشارف الشام، قبل الهجرة بست سنين وكيف كان مشركو مكة فرحين بانتصار الفرس إذا كانوا مثلهم غير ذوى كتاب، وقد شمتوا بهزيمة الروم اذ كانوا كالمسلمين أتباع كتاب سماوى، وقد سجّل القرآن الكريم هذه الظاهرة، ظاهرة اهتمام المكيين بما يجرى حولهم من شؤون الفرس والروم فى الآية الكريمة:

ص: ۱۱۲

آلم* غلبت الروم* فی أدنی الأرض وهم من بعد غلبهم سیغلبون* فی بعض سنین...

هـذا هو مجمل ما أردت أن أعرض له من بیان إهتمام العرب بالتجارة وإلیک- أیها القارئ- أهم الأسواق وسیاستها التجاریة فی مکة والمدینة:-

(أسواق مکة والمدینة)

أولًا:- سوق عُکاظ:

عکاظ هی المعرض العربی العام أیام الجاهلیـة، معرض بکل ما لهـذه الکلمـة من مفهوم لدینا نحن أبناء هذا العصـر: فهی مجمع أدبی لغوی رسـمی، له محکّمون تضرب علیهم القِباب، فیعرض شعراء کل قبیلة علیهم شعرهم وادبهم، فما استجادوه فهو الجید، وما بهرجوه فهو الزائف.

وحول هذه القِباب الرواة والشـعراء من الأقطار العربیة عامة، فما ینطق الحکم بحکمه حتی یتناقل أولئک الرواة القصـیدة الفائزة، فتسـیر فی أغوار الجزیرة وأنجادهـا، تلهـج بهـا الألسن فی البوادی والحواضـر. یحمل إلی هـذه السوق التهامی والحجازی والنجـدی والعراقی والیمـامی والیمنی والعمـانی، کـل ألفاظ حیّـة ولغـة قطرة، فما تزال عکاظ بهـذه اللهجات نخلا واصـطفاءً حتی یتبقی الأنسب الأرشـق ویطرح المجفّو الثقیل.

وعکاظ هی السوق التجاریة الکبری عامة، یحمل إلیها من کل بلد تجارته وصناعته کما یحمل إلیها أدبه، فالیها یجلب الخمر من هجر والعراق وغزة وبصـری، والسـمن من البوادی ویرد إلیهـا من الیمن البرود الموشاة والأدم، وفیها الغالیـة وأنواع الطیب وأدوات السـلاح، ویباع فیها الحریر والوکاء والحذاء والمسیّر والعدنی یحملها إلیها التجار من معادنها، وفیها من زیوت الشام وزبیبها وسلاحها ما اعتادت قریش أن تحمله فی قفولها إلی مکة. ویعرض فیها کثیر من الرقیق الذی ینشأ عن الغزو وسبی الذراری فیباع فیها بیع المتاع التجاری.

ویبیع فیها کلُّ غازٍ ما سلبه وکثیراً ما یکون هذا البیع سبباً فی قتلصاحبه إذا أبصر السلاح أحد من ذوی المقتول فعرفه، فإنه یضمرها فی نفسه وینتظر أن یظفر بالرجال لیثأر منه.

وتصل من تجارة فارس أشـیاء إلی عکاظ: فإن النعمان بن المنـذر ملک الحیرة کان یبعث إلی سوق عکاظ کل عام لطیحـة (وهی فی الأصل العیر المحملّة مسکاً) فی جوار رجل شریف من أشراف العرب، یجیرها له ویحمیها من کل معتدٍ حتی تصل سالمة إلی عکاظ؛ فتبـاع هنـاک ویشـری بثمنهـا ما یحتاج إلیه من أدم (جلود) الطائف وسائر المتاع إلی عکاظ: من حریر وعصب مسیّر، وبیعت فیها حلّة ذی یزن فاشتراهـا حکیم بن حزام لیهـدیها رسـول الله (۱)، بـل إن عکـاظ نفسـها مشـهورة بما یعرض فیها من جلود حتی قالوا ":أدیم عکاظی "نسبة إلیها.

حتی البضائع المجهولة الأصل المعروضة فی عکاظ تجد من شـرائع القوم واعرافهم التی التزموها ما یجعلها کاسدة لا یرغب فیها أحد، فهـذا بعض لصوص العرب "قربّ إبلًا للبیع فی سوق عکـاظ وکـان أغـار علیهـا من کـل وجه، فلما عرضـها قیل له ":ما نارک ("؟أی ماسمة إبلک؟ وکانوا یعرفون علامة کل قوم التی یسمّون إبلهم بها ویعفون کرمها من لؤمها) فلما کثر ذلک علیه أنشأ یقول:

۱- ۱ انظر تفصیل هذا الخبر فی تهذیب تاریخ ابن عساکر: ۴۱۴- ۴۱۵.

ص: ۱۱۳

يسألنى الباعة أين نارها اذ زعزعتها فسمت أبصارها

كل بخار إبل بخارها وكل نار العالمين نارها (۱) وهى معرض لكثير فى عادات العرب واحوالهم الاجتماعية:

فها هنا (قس بن ساعدة) يخطب الناس، بذكر الخالق ويعظهم بمن كان قبلهم ويأمرهم بالخير (۲). وهناك خالد بن أرطاة الكلبى تتعبه قبيلته وقد جاء لينافر جرير بن عبدالله الجبلى ومع هذا حيّه أيضاً وقد ساق كل منهما مالًا عظيماً ينافر عليه، وعرضا الحكومة على رجالات قريش فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيّين، فالرجلان فى عكاظ ينتظران الأقرع بن حابس ليقوم بهذه الحكومة وقد ساق الرهَن فوضعوها عند عتبة بن ربيعة (۳) دون جميع من شهد على ذلك المشهد، وها هنا عمر بن الخطاب فى الجاهلية يصارع (۴)، وثمة كاهن وعراف وعائف وقائف، وقرد، وغنم، وصحيفة وكاتب. وهناك أناس من غواة الشهرة: هذا يمد رجله وينشد شعراً ويقول ":من كان أعز العرب فليقطع رجلى "وآخر يأتى عكاظ ببناته ترويجاً لزواجهن، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوجون إليه..

قال المرزوقى:

"كان فى عكاظ أشياء ليست فى أسواق العرب: كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيّد، والحلّة الحسنة، والركوب الفاره، فيقف بها وينادى عليه ":ليأخذه أعز العرب "يرد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسنصلته وجائزته."

وكان كسرى يبعث فى ذلك الزمان بالسيف القاطع والفرس الرائع والحلة الفاخرة فتعرض فى تلك السوق وينادى مناديه ":إن هذا بعثه الملك إلى سيد العرب "فلا يأخذه إلا من أذعنت له العرب جميعاً بالسؤدد فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية، وكان كسرى يريد بذلك معرفة ساداتهم ليعتمد عليهم فى أمور العرب فيكونوا عوناً له على اعزاز ملكه وحمايته من العرب "....(۵).

وهى ندوة سياسية عامة، تقضى فيها أُمور كثيرة بين القبائل: فمن كانت له إتاوة على قبيلة تزل عكاظ فجاءُوه بها، ومن أراد تخليد نصر لحيه فعل فعل عمرو بن كلثوم فرحل إلى عكاظ وخلده فيها شعراً. ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك فى عكاظ؛ حتى يسمع الناس عامة ومن أراد اعلان الحرب على قوم أعلنه فى عكاظ، حتى (جميعة الأمم) أو (هيئة الأمم المتحدة) وما قامتا به من مجهود (رسمى) فى سبيل السلم الخاص، كان لهاصورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر (لا فى الحقيقة، لأن عكاظ لم تكن ترائى فتستغل الدعاية الشريفة لتسيغ للقوى أكل الضعيف)، فقد روى الأصفهانى أنه ":اجتمع ناس من العرب بعكاظ منهم قرة بن هبيرة القشيرى والمخبّل وهو فى جوار قرة، فى سنين تتابعت على الناس فتواعدوا وتوافقوا ألا يتفاوروا حتى يخصب الناس. "!(۶) ولا يخفى علينا أنه كانت تكون فى عكاظ "وقائع مرة بعد مرة "(۷).

۱- ۲ بلوغ الأرب ۱۶۳: ۲.

۲- ۳ مجلة المشرق- السنة ۸۴: ۳۵.

۳- ۴ رسائل الجاحظ: ۱۰۲- بلوغ الأرب ۳۰۱: ۱- ۳۰۵.

۴- ۵ طبقات ابن سعد ۲۳۵: ۱.

۵- ۶ مثير العزم الساكن فى فضائل البقاع والأماكن لأبن الجوزى، كراس الخامس عشر.

۶- ۷ الأغانى ۳۷: ۱۱.

۷- ۸ بلوغ الأرب ۳۶۸: ۱.

ص: ۱۱۴

وكانت هـذه السوق تقوم فى العرب يومئـذ مقام الجريدة الرسـمية فى أيامنا هذه وقد تقدم آنفاً شـىء من ذلك فى أمر الجوار وأخبار الحروب.

وخير مـا يعطينـاصورة واضـحة عن عكـاظ أن نعرض لأـهم الأحـداث التى جرت فيها، فنتمثل بوساطتها أحوال العرب فى هـذه السوق الكبرى، فى بيعهم وشرائهم وتخاصمهم وتفاخرهم وحربهم وسلمهم.

واشد ما يثير الاسـتغراب، هذا الشـبه الكبير بين عكاظ ومعارض هذا العصر، بل إن عكاظ لأوسع مدى فيما يعرض، فإنه لا يقتصر على مواد التجـارة والصـناعة بل يتعـداهما إلى الأدب والشـعر والحرب والسـلم والعادات..... فإذا أنا أفضت فى وصف عكاظ وما فيها، فان ذلك إفاضـة فى وصف سائر أسواق العرب أيضاً. فليس فيهن سوق تساميها. وما جرى فى عكاظ جرى قريب منه فى بقيـة الأسواق مع مراعاةصـغرها واقتصارها احياناً على اهل ناحيـة واحـدة، فليكن تاريخ عكاظ إذاً تاريخاً لكل اسواق العرب، وتاريخاً لكثير من عاداتهم الاجتماعية أيضاً.

الموقع الجغرافى لعكاظ:

عكـاظ نخـل فى واد بين مكـة والطائف على مرحلتين من مكـة ومرحلـة من الطائف، وموقعها جنوب مكـة إلى الشـرق. هـذا زبـدة ما يستخلص من تعاريفهم المتضاربة فى عكاظ (۱). وتقوم السوق فى مكان منه يعرف بالأثيداء فيه مياه ونخل، وهو مستوٍ لا علم فيه ولا جبل إلا مكان من الأنصاب التى كانت لأهل الجاهلية، وبها من دماء البدن كالأرحاء العظام (۲). كانوا يطوفون حولصخور فيها، وربما كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجّون إليها وبالأثيداء كانت أيام الفِجار.

والظـاهر أن ما يطلق عليه (عكاظ) فى الأرض متسع فسـيح فيه حرار وفيه أرضون مسـقية ذات نخيل. ولا شك أن أرضاً اتسـعت بعض اجزائها لمعارك عدة أرض فسيحة واسعة، وبذلك نفهم كيف كانت السوق تتنقل فى عكاظ فلا تلازم بقعة واحدة لاتحيد عنها يميناً ولا شمالًا على مدى السنين المتطاولة.

وهى وما جوارها ديار قيس عيلان وهوازن منهم خاصة.

معنى عكاظ:

أما اشـتقاق عكاظ، ولِمَ سـميت بهـذا الاسم؟ فقـد ذهب اللغويون فيه مـذاهب، قلبوا الكلمة على معانيها المختلفة: فالقهر والحبس وردّ الفخر والتجـادل والتحـاج..... كـل هـذه معـان للعكظ وكلهاصالحـة لأن يعلل بها التسـمية فيقول قوم: سـميت عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيهـا فيعكـظ بعضـهم بعضـاً فى المفاخرة أى يقهره ويعركه، وقال آخرون إنها من تعكّظ القوم إذا تحبّسوا لينظروا فى أمورهم، وذهب غيرهم إلى انها من التعاكظ بمعنى التفاخر.

۱- ۹ من حسن الحظ أن ذهب فتحرى موضعها بنفسه بـاحث عربى فوصـفه لنـا. وهو السـيد خير الـدين الزركلى الشـاعر فى كتابه ما رأيت وما سمعتص ۷۹. قال ":على مرحلتين من مكة الذاهب إلى الطائف فى طريق السـيل يميل قاصد عكاظ نحو اليمين، قيسـير نحو نصف ساعة فأذا هو أمام نهر فى باحة واسعة الجوانب يسمونها القانس- بالكاف المعقودة وهى موضع سوق عكاظ.

۲- ۱۰ معجم ما استعجم للكبرى: ۶۶۰- ومراصد الأطلاع وياقوت الحموى.

ص: ۱۱۵

مواعيد عكاظ:

تقوم هـذه السوق فى ذى القعـدة، وللعلماء بعـدُ خلاف فى تعيين أيامها من هذا الشـهر، فالمرزوقى يجعلها تبدأ من نصـفه حتى آخره، وآخرون يجعلون وقتها فى شوال (۱) إلّا أن الأكثرين على أنها تبدأ من أول ذى القعدة، وتسـتمر حتى العشرين منه إذ تبدأ سوق مجنة فيرتحـل إليهـا الناس وهى أقرب من مكـة، فإذا أهل ذو الحجـة أنقشع الناس إلى مجنـة إلى ذى المجاز قرب عرفه وبقوا فيها حتى يوم التروية فيبدأ الحج.

ويمكن جمع الأقوال المتقدمـة بأن عكاظ قـد تحفل بالناس فى شوال ويتم تقاطرهم إليها فى ذى القعدة: الزمن الرسـمى للسوق وحين تـذهب جماعاتهم إلى مجنـة فى العشـرين من ذى القعـدة يتخلف كثير ممن لم يكن أنهى بيعه وشـراءَه، فلا يخلوا السوق تماماً إلا فى غرة ذى الحجة عند اقتراب الحج (۲).

وخلال هذه الأيام فى عكاظ يتهيء العرب للحج ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاظمون.

ولم يكن هناك مجمع للعرب أحفل من عكاظ، فكانوا يضـربون بكثرة اهلها المثل، وبقيت لها هذه الشـهرة بعد الإِسـلام، فقد جاء فى الأمـالى: أن عبـد الرحمن بن ملجم قاتـل على بن أبى طـالب (عليه السـلام) لمـا سـئل عن قتله علياً قال "ضـربته ضـربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلهم "(۳). وكان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم (۴). كانت الحكومة فى الشعر للنابغة الذبيانى.

ثانياً- سوق مجنة:

مجنّـة موضع وقيل بلـد قرب مكـة على أميال منها، تقع بمر الظهران، قرب جبل يقال له الأصـفر وهو أسـفل مكـة على قـدر بريد منها، ميمها بالفتح وتكسـر (۵). والظـاهر أنهـا من المواطن التى لاـ ينسـاهـا أهـل مكـة لبعض جمال فيها ولأنها ذات مياه، فقـد جاء فى كتب السيرة: أن بلالًا لما هاجر إلى المدينة واصيب بالحمى، تشوّق إلى مكة ومواطنها وتغنّى بقوله:-

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةً بفخٍ [بواد] وحولى إذخر وجليلُ؟

وهل أردن يوماً مياه مجنّـة؟ وهلٍ يبدون لى شامةٌ وطفيل (۶)؟ هذه السوق لكنانة وأرضـها من أرض كنانة، تقوم فى الشعر الأواخر من ذى القعـدة ويقصـدها العرب بقضـهم و قضيضـهم بعـد أن تنقض سوق عكاظ، يتمّون فيها ما قصـدوا له من تجارة وفداء وتفاخر..... على شبه التفصيل المتقـدم فى عكـاظ، ويجلب إليهـا ما يجلب إلى تلك من متاع وعروض، ولم تكن الخمرة لتقل فيها شأناً عن بقية الأسواق فقد كانت تحمل إليها مِن معادنها من الشام، ومن بصرى وغزة حتيصار يشيد بذكرها الشعراء، قال أبو ذؤيب الهذلى:

سلافة راح ضمنتها إداوة مقيّرة رِدف لمؤخرة الرحل

۱- ۱۱ ذكره الياقوت.

۲- ۱۲ هناك من نقول: أن لعكاظ غير تلك السوق السـنوية التى تجتمع بها القبائل، لها أيضاً سوق أسـبوعية تقوم كل يوم أحـد للبيع والشراء.. أنظر مدينة العرب فى الجاهلية والإسلام لرشدى: ۵۹.

۳- ۱۳ الأمالى ۲۵۶: ۲.

۴- ۱۴ كتاب المحبر: ۱۸۲.

۵- ۱۵ لقد جاء فى تاج العروس المجنة كثيرة الجن، وفى الصحاح ذات الجن.

۶- ۱۶ اخبار مكة اللازرقى: ۱۳۱.

ص: ۱۱۶

تزودها من أهل بُصرى وغزةٍ على جسرةٍ مرفوعة الذيل والكفل

فوافى بها عُسفان ثم أتى بها " مجنة "تصفو فى القلال ولاتغلى ومجنة وعكاظ وذو المجاز تستوى فى نظر المحرمين من العرب وتتمتع منهم جميعاً باحترام واحد حتى إن بعظهم لا يردها إلا محرماً.

قال الأزرقى:

"كانت قريش وغيرها من العرب تقول ":لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذى المجاز إلا محرمين بالحج، وكانوا يعظّمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدو بعضهم على بعض فى الأشهر الحرم وفى الحرم "(۱).

ومجنة- وإن قرنت فى أغلب الأحيان مع عكاظ وذى المجاز- دون هاتين السوقين شأناً حتى إن المرزوقى لم يذكرها مستقلة كما ذكر غيرها بل أكفى بقوله ":وزاد بعضهم فى الأسواق المجنة وهو قريب من ذى المجاز."

ثالثاً:- سوق ذى المجاز:

لهم فى تحديدها قولان:

الأول: أنها على فرسخ من عرفة بناحية كبكب، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام إذا وقف. ذكره ياقوت وغيره وهو أحد قولين نقلهما الزبيدى.

والثانى: أنها موضع بمنى، ومنى بين مكة وعرفات فى نصف الطريق تقريباً، والذين نقلوا الأول أكثر عدداً وإن كان القول الثانى أدنى إلى القبول. وسمّى ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه، ولعل السوق أحياناً تمتد، أو ينتقل الناس فيها: يقتربون ويتعدون حتى تشتغل هذه المسافة.

وذو المجاز من ديار هذيل، هم أهلها وجيرانها الأدنون.

يكثر ورود ذى المجاز فى شعر العرب ولاسيما شعراء هذيل، لأنها من اسواقهم الكبرى، ومن المواسم أيضاً، قال أبو ذؤيب الهذلى:

وراج بها من ذى المجاز عشية يبادر أولى السابقات إلى الحبل وقال الليثى:

للغانيات بذى المجاز رسوم فى بطن مكة عهدهن قديم أما التى ذكرها الحارث بن حلّزة فى معلقته:

واذكروا حلف ذى المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء

فالغالب أنها التى فى شمال الجزيرة، لأن مقام قبيلته والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك.

۱- ۱۷ أخبار مكة: ۱۳۲.

ص: ۱۱۷

إذا انقشع الناس عن مجنّة حين يهّل ذو الحجة، ساروا بأجمعهم إلى هذه السوق، وأقاموا بها حتى اليوم الثامن من ذى الحجة، وهو يوم التروية، سمى بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ويملؤون أوعيتهم لما بعده إذ لاماء بعرفه. وإلى هذه السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد الأسواق قبلها، أو لم يشهدها وأتى للحج خاصة، إذ إنّ ذا المجاز من مواسم الحج عندهم.

تحفل ذو المجاز لوقوعها أيام الحج بجموع العرب وتجارتهم وأشرافهم، وهى تلى عكاظ فى الشأن، ويجرى فيها ما يجرى فى هذه من تبايع وتناشد وتفاخر وفداء أسرى وطلب ثأر... إلى آخره، يقصدهاصاحب الثأر ليعرف فيها واتره، فيتربص به بعد انقضاء الشهر الحرام إن كان من المحرمين وإلا عاجله فأخذ بثأره وإليك بعض أحداثها:

روى الأصفهانى ":أن قيس بن الخطيم لم يزل يلتمس غرة من قاتل أبيه وجده فى المواسم حتى ظفر بقاتل جده بذى المجاز، فلما أصابه وجده فى ركب عظيم من قومه، ولم يكن معه إلّا رهط من الأوس، فخرج حتى أتى حذيفة بن بدر الفزارى فاستنجده فلم ينجده، فأتى خداش بن زهير فنهض معه ببنى عامر حتى أتوا قاتل عدى (جد القيس) فإذا هو واقف على راحته فى السوق، فطعنه قيس بحربة فقتله ثم استمر. فأراده رهط الرجل فحالت بنو عامر دونه... إلى آخره."

ويروى الجاحظ أن حالف ابو الأزيهر الدوسى وكان عظيم الشأن فى الأزد أبا سفيان بن حرب عظيم بنى أمية، وكان بين أبى الأزيهر هذا وبنى الوليد بن المغيرة محاكمة فى مصاهرة. فإن أبا الأزيهر لقاعد فى مقعد أبى سفيان بسوق ذى المجاز إذ جاء هشام بن الوليد فضرب عنقه فى مقعده ذاك بذى المجاز وانتظر الناس أن يأخذ ابو سفيان بثأر حليفه من هشام فلم يفعل ولم يدرك به عقلًا ولا قوداً من بنى المغيرة، وتحدث بذلك أهل السوق من قبائل العرب وراجت فى الناس حتى عيروا بها أبا سفيان وحتى قال حسان بن ثابت فيها:

غدا أهل حضنى ذى المجاز بسحرة وجار ابن حرب لا يروح ولا يغدوا

كساك هشام بن الوليد ثيابه فأبل وأخلق مثلها جدداً بعدُ (۱) هذه الأسواق الثلاث: عكاظ ومجنّة وذو المجاز التى كانت تقوم فى أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حدب وصوب، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء، والمفاخرة والانشاد، مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الاسلامية محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) وابتلعت تلك الأسواق بضجيجها وما كانت تعجّ به من حوادث،صوت الدعوة الإِسلامية فيما ابتلعت من دعوات، وغابصوتصاحبها فى ذلك الرغاء والصخب والزحام، فلقد مكث الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) بمكة مستخفياً ثلاث سنين ثم اعلن فى الرابعة ودعا الناس إلى الإِسلام عشر سنين يوافى فيهن المواسم كل عام، يتبع الحاج فى منازلهم بعكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات به، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردّون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون له "،قومك أعلم بك "(۲).

۱- ۱۸ رسائل الجاحظ جمع السندوبى: ۷۶ بتصرف يسير.

۲- ۱۹ شرح المواهب ۳۰۹: ۱- تهذيب تايخ ابن عساكر ج ۴۱۵: ۴.

ص: ۱۱۸

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج، موزّع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة، ومنشد قصيدة، وخطيب، وعارض بضاعة، وحامل مال لفك أسير، وقاصد شريف لإجازة أو حمالة، وداع إلى عصيبة، وآمر بمنكر... فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصرالدنيا. لكنه بعد عام الفيل بثلاث واربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط، ولا سمع بمثله: رجلًا كهلًا وضيئاً عليه سمات الوقار والخير، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة: هذه بنو عامر بنصعصعة، وهذه محارب وتلك فزارة، والرابعة غسان، وهناك مرة وحنيفة، وسليم وعبس، وهنا بنو نصر وكندة، وكعب وعذرة، وهؤلاء الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة... إلى آخره.

يؤم منازل كل قبيلة، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى الله، وفعل الخير، فيتجهم له هذا، ويعبس ذاك، ويجبهه ذلك ويحقره آخر..... فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضهاصدر الحليم. فلا يؤيسه ما لقى، ولا يكفه ما أوذى، فيمضى متّئداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر يعرض نفسه عليهم ويقول ":هل من رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشاً قد منعونى أن أبلّغ كلام ربى "فلا يجد مجيباً، حتى تدارك الله نبيه بوفد الأنصار.

هذا ما حفظته لنا كتب السير والأدب من مشاهد مؤثرة، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى الخير، فقد تردد فى أجوائها الصوت الضعيف الخافت، يطلب حماية واجابة. ولئنصدف عنه الناس وازوروا فى اسواق الجاهلية. لقد ملأ هذا الصوت فيما بعد ما بين المشرق والمغرب، وطبّق الخافقين بآثاره التى بثها فى العالمين رحمة وعدلًا وعلماً وانسانية وسعادة ومُثلًا عليا. وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم، افواج من أمم الحضارة والعرفان، فى آسيا وأروبا وأمريكاصدّ عنه قديماً أحلاف البادين، وهرع إليه اليوم زمرُ المتحضرين من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسى، ومفكر يستضىء بعلمه وفكره الملايين من الخلائق.

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة، ولنحتفظ بهذا الدرس، فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياًصائلًا، لا بد من أنه ظافر فى النهاية عليه. ولنعلم أن اليأس لا ينبغى أن يجد سبيلًا إلى قلب المؤمن، وأنه:-

إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

رابعاً: سوق دومة الجندل:

دوُمة الجندل ويقال (دوماء الجندل) كلاهما بالضم (۱)، بلد يقع فى نقطة متوسطة بين الشام والخليج الفارسى والمدينة، أقرب إلى المدينة من الشام والخليج الفارسى.

۱- ۲۰ ونقل بالفتح فيهاصاحب النهاية، وفى الصحاح أن أصحاب اللغة يضمون وأصحاب الحديث يفتحون.

ص: ۱۱۹

وهی فی غائط من الأرض طوله خمسة فراسخ وفیها حصن "مارد "المشهور وإلی غربها عین تثج فتسقی ما به من النخیل والزرع، وکانت خربة وروی ابن سعد نقلًا عن بعض أهل الحیرة فی سبب بنائها:

"أن أکیدرصاحبها واخوته کانوا ینزلون دومة الحیرة، وکانوا یزورون اخوالهم من کلب فیتغربون عندهم، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصید إذ رفعت لهم مدینة متهدّمة لم یبق إلا بعض حیطانها وکانت مبنیة بالجندل، فأعادوا بناءها وغرسوا فیها الزیتون وغیره وسمّوها دومة الجندل تفرقةً بینها وبین دومة الحیرة "(۱).

وقال یاقوت "کان فیها قدیماً حصن مارد، وسمیت دومة الجندل لأن حصنها مبنی بالجندل وقریب منها جبلاطیء وکانت بهذا الحصن بنو کنانة من کلب."

وکان أُکَیدر یبعث بمن یتعرض قوافل التجارة الذاهبة بین المدینة والشام ویظلم من یمرّ بهم من الضافطة (الذین یجلبون المیرة والطعام) ثم قوی شرهم حتی شاع أن فی عزمهم الدنو من المدینة وکان ذلک فی السنة الخامسة للهجرة، فندب رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلم) الناس، واستخلف علی المدینة، وخرج فی ألف من المسلمین یسیر اللیل ویمکن النهار ومعه دلیل من بنی عذرة حتی بلغوا الجندل، فتفرقوا وألقی الرعب فی قلوبهم، وأخذ من نعمهم وشاتهم ورجع ولم یلق کیداً.

والظاهر أن شرهم لم ینقطع عن تجار المدینة حتی اضطر الرسول (صلّی الله علیه وآله وسلم) أن یرسل إلیهم سریة علیها عبد الرحمن بن عوف، وأوصاه حین دفع إلیه اللواء بقوله ":خذه (۲)، یابن عوف فاغزوا جمیعاً فی سبیل الله فقاتلوا من کفر بالله، لا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا ولیداً، فهذا عهد الله وسیرة نبیه فیکم "...وقال له ":إن استجابوا لک فتزوج بنت ملکهم."

سار عبد الرحمن حتی بلغ دومة الجندل فدعا أهلها إلی الإِسلام فأسلم رئیسهم الأصبغ بن عمرو الکلبی وأسلم معه ناس کثیر من قومه وتزویج عبد الرحمن ابنته (تماضر) وبقی علی الجزیة هو ومن معه.

تنزل قبائل العرب فی الجاهلیة هذه السوق فی أول یوم من ربیع الأول للبیع والشراء وکان بیعهم فیها بیع الحصاة.

ویجاور هذه السوق من قبائل العرب قبیلتا کلب وجدیلة طیء.

وکانت کلب اکثر العرب قناً فکانوا یفتحون فی هذه السوق حوانیت من شعر یجعلون فیها عبیدهم وإماءَهم. وکانوا- علی عادة بعض العرب یکرهون فیها فتیاتهم علی البغاء ویأخذون لانفسهم کسب أولئک البغایا من إمائهم.

فلما کان الإِسلام وحرّم الله هذه العادة القبیحة بقوله تعالی:

۱- ۲۱ طبقات ابن سعد: ۶۱.

۲- ۲۲ سیرة ابن هشام ۴۴۳: ۳.

ص: ۱۲۰

ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً (۱).

تنزه العرب عن هذه التجارة التى كانوا عليها فى الجاهلية وتجاوز الله عما كان منهم قبل الإِسلام.

يشرف على هذا الموسم أمراء من العرب وكان روءَساء السوق غالباً إما من كلب وإما من غسان، أى الحيين غلب خضع له الآخر، وكان مكس هذه السوق لمن يشرف عليها.

ويدور نشاط هذه السوق حتى منتصف ربيع الأول وتغص بمن يؤمها من اطراف الشام والعراق وسائر الجزيرة. وهى من الأسواق الكبرى للعرب حتى إنهم ليلقون فيها سيرهم نصباً كبيراً لوعورة الطريق والتعرض للأخطار وفقدان الأمن. ولا يحملهم على ذلك كله إلا ما تغريهم به هذه السوق من ربح وفائدة. ثم تفتر هذه السوق بحركتها وتأخذ بالاضمحلال حتى آخر الشهر، إذ يفترق أهلها وموعدهم إليها فى القابل من شهر ربيع الأول (۲).

خامساً: سوق نطاة خيبر

خيبر قرية شمالى المدينة، بينها وبين تبوك. وهى عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع. ونطاة اسم حصن بها واسم عين أيضاً، وقيل هى خيبر نفسها. وحول القرية نخيل كثير يسقى بعين فيها والبلدة وبئة معروفة فى العرب بحمّاها.

أهلها يهود استوطنوا الحجاز منذ القديم واشتغلوا بالزراعة والتجارة (۳).

ونظراً لوقوع هذه القرية على الطرق التجارية الكبرى بين اليمن والشام أسهم أهلها بتجارة الجزيرة، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية فى سفرها إلى الشام. ونجح أهلها فى متاجرهم حتى أفادوا منها غنىً واسعاً واستفاضت لهم ثروات طائلة ونشأت فيهم رؤوس الأموال الضخمة. ولا نعبد إذا قلنا: إن خيبر مصرف الجزيرة المالى. ولما فتحها الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم)صالح أهلها على الشطر من الثمر والحب. ويذكر أصحاب السيرة غنائم خيبر وما وجدوا فيها من كنوز، فيذكرون أموالًا جمة ودنيا عريضة. بنى اليهود فيها حصوناً عديدة جعلوا فيها أموالهم ومسيرتهم من طعام وحب وتمر. وهم فى الجملة أهل بأس وشكيمة قاوموا كثيراً قبل أن يفتح المسلمون حصونهم، ثم غلبوا على أمرهم فافتتح المسلمون حصن ناعم ثم القموص ثم حصن الصعب ابن معاذ وهو اعظم حصونها غناء وأكثرها طعاماً وودكاً، ثم الوطيح، ثم السلالم ثم الشق. وكان فى الغنائم ذهب كثير وفضة كثيرة، فجعل الصحابة يتبادلونها حتى نهى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) أن يبتاع الذهب بالذهب والفضة بالفضة. وبين تلك الحصون حصن الشق وحصن نطاة وحصن الكتيبة. ولكل حصن خازن يخبئ الأموال لأهله، وكان كنانة بن الربيع عنده كنز بنى النضير فلما أسر سئل عنه فانكر فاهتدى الفاتحون إليه فوجدوا أموالًا طائلة.

۱- ۲۳ النور: ۳۳.

۲- ۲۴ الأزمنة والأمكنة ۱۶۱: ۲.

۳- ۲۵ اسواق العرب- الأفغانى: ۳۵۶.

ص: ۱۲۱

اتسعت تجارات اليهود فى خيبر وغيرها حتى استطاع الرجل الواحد منهم كأبى رافع الخيبرى أن يسيّر قوافل تجارية لحسابه إلى الشام. وهم الذين نشروا فى الجزيرة التعامل بالربا وأثروا ضخماً. وكلما مرت عيرلقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق فى خيبر. وقد جعل المرزوقى زمنها بعد زمن سوق ذى المجاز، أى بعد أشهر الحج وقبل أن تبتدئ سوق حجر.

التقييم الاقتصادى لمكة والمدينة:

كان المسلمون يجهزون العير إلى الشام- كما فى الجاهلية- فتذهب بأموالهم ومتاعهم فتباع هناك ثم تحمل إلى الحجاز فتأتى المدينة، وكانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق فرحاً بها، فذكر المفسرون أن دحية بن خليفة الكلبى رجع مرة بتجارة زيت وطعام من الشام والنبى (صلّى الله عليه وآله وسلم) يخطب يوم الجمعة على منبر مسجد المدينة فاستقبلها الناس كعادتهم بالفرح والطبول والتصفيق، وخشى المصلون أن يسبقوا إلى العير فيفوتهم الربح فتركوا الرسول يخطب وبادروا إليها فى البقيع ولم يبق مع الرسول إلّا إثنا عشر رجلًا فأنزل الله تعالى فى ذلك:

وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً (۱).

وفى القرآن الكريم إشارة إلى فاصل تاريخى فى حياة مكة التجارية، وذلك حين نزل قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم (۲).

فلما حرم دخول مكة على المشركين سنة تسع للهجرة خشى الناس الفقر بسبب انقطاع تجارة المشركين عنهم فى المواسم، فوعدهم الله بغنى عن غير طريق التجارة، فكان العوض- على ما ذكر المفسرون- فى المغانم والفتوح العاجلة.

وكان لا بد من أن تدخل أحوال العرب التجارية ولاسيما فى مكة والمدينة فى طور جديد، فاهتم الاسلام بأمر تجارتها وشرع لهم فيها ما يحتاجون إليه، وطفح الحديث الشريف بأحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا.... إلى آخره... وعنى الخلفاء بعد الرسول عناية خاصة بالتجارة بعد أن هدأت مشاغل الفتوح أيام أبى بكر وعمر وعثمان، ولنلاحظ أن الفتوح نفسها لم تكن لتخلوا من الاتجار حتى عمال الخليفة أنفسهم، وهذا خير ما يفسر لنا حرص القوم على حرفتهم ومن حسن الاتفاق أن الخلفاء الثلاثة الأولين كانوا تجاراً، فأبوا بكر وعثمان كانا بزازين، وعمر تجر فى الجاهلية استغنى فى غزة، وكان مُبرطشاً (يكترى للناس الإبل والحمير ويأخذ عليه جُعلًا) (۳).

۱- ۲۶ الجمعة: ۱۱.

۲- ۲۷ التوبة: ۲۸.

۳- ۲۸ انظر مادة برطش فى تاج العروس.

ص: ۱۲۲

أما أمير المؤمنين (عليه السلام) فلم نعرف أنه تجر وقد ظهر الإِسلام وهوصبى، ومع هذا فقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) على علم من التجارة واحوالها لانها مهنة قومه، ولما ولى الخلافة لم يكن يجهل خطر التجارة وقيمتها، ومن الطريف حقاً أن ننقل بهذه المناسبة مرسوماً أصدره إلى عامله الأشتر فى التجار والصناع، فإنه يدّل على احاطته باسرار التجارة وأخلاق التجار ويعلمنا من جهة ثانية منزلة هذه الطبقة من بين بقية الطبقات وما كان يعلق عليها من مهام، قال:

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوصِ بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع واسباب المرافق وجلاـ بها من المباعد والمطارح، فى برك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤون عليها فانهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تُخشى غائلته.... إلى آخر) (۱).

ولنا أن نستأنس بشىء آخر له خطره فى الدلالة على ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال، فإنها تكشف لنا إلى حد بعيد ما كان عليه القوم من عادات واحوال: وأول ما نلاحظ فى هذا الباب غنى اللغة بالألفاظ التى تتعلق بالأسفار، وما إليها من حط وترحال ونزول على الماء، ووصف لدواب السفر وضروب سيرها، ولسنا مبالغين اذا قلنا: إن أكثر القصائد فى الجاهلية والإِسلام يفتتحهاصاحبها بذكر رحلته، وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء، والضيق والعطش والجوع، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة والخاسرة.

وأما الأمثال التى تتعلق بأمورهم التجارية وأحوالهم فيها فكثيرة وإليك طائفة منها تمثل لنا شيئاً من تجارتهم واحوالهم فى أسفارهم:

عند الصباح يحمد القوم السُرى- لا تدرك الراحة إلّا بالتعب- قتل أرضاً عالمها وقتلت أرض جاهلها- أن ترد الماء بماء أكيس- لا يرحل رحلك من ليس معك- إن يدم أظلُك (۲) فقد نقب- وإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى... إلى آخره (۳).

هذا مجمل ما أردت أن أعرض له، فى بيان اهتمام العرب فى التجارة، ولم اقصد فيه إلى شىء من التطويل، وإنما نريد التأكيد على اسواق العرب فى مكة والمدينة ولما لها من أهمية بالغة فى حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية آنذاك.

۱- ۲۹ نهج البلاغة.

۲- ۳۰ الأظل: ما تحت منسم البعير- والمعنى: أشكو من مثل ما تشكو.

۳- ۳۱ الذى يجد فى سيره حتى ينقطع أخيراً عن أصحابه فى السفر.

ص: ۱۲۳

دعوة إبراهيم و إسماعيل عند رفع القواعد من البيت

ص: ۱۲۴

دعوة إبراهيم و إسماعيل عند رفع القواعد من البيت

تأليف: سامى البدرى

۱- من القرآن الكريم:

۱. الإمامة الهادية بأمر الله بعد إبراهيم.

۲. إمامة إبراهيم فى ذرية إسماعيل و إسحاق.

۳. إسحاق والهداة من ذريته نافلة.

۴. إسماعيل والهداة من ذريته هم الأصل.

۵. الامة المسلمة والنبى المبعوث فيها من ذرية إسماعيل.

۲- من التوراة

۱. إثنا عشر رئيساً من ذرية إسماعيل.

۲. هل يخلو النص التوراتى من ذكر محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم).

۳. خطأ اليهود فى تفسير النص.

۴. حديث النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم): الأئمة من بعدى إثنا عشر.

۵. نتيجة البحث.

أ- من القرآن:

۱: شروط الإمامة الهادية بأمر الله بعد إبراهيم:

قال تعالى: ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ۲۷/ ۲۹.

إن أول ذرية إبراهيم هو إسماعيل فقد بُشرّ به قبل أن يُبشّر بإسحق ويعقوب كما فى قوله تعالى:

فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتلَّه للجبين. وناديناه ان يا ابرهيم. قدصدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين. إنّ هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الآخرين. سلامٌ على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين. إنّه من عبادنا المؤمنين. وبشّرناه بإسحق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسنٌ وظالم لنفسه مبين ۱۰۱- ۱۱۳/ ۳۷.

قوله تعالى: فبشرناه بغلام حليم هو إسماعيل.

الحلم: الاناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم، والحليم الصبور، وقد وصف الله تعالى إسماعيل بكونهصابرا بقوله: وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلٌّ من الصابرين ۸۵/ ۲۱.

ص: ۱۲۵

والصبر: الحبس وكل من حبس شيئا فقدصبره، والحبس ضد التخلية، والحبس: الوقف وفى الحديث ذلك حبيس فى سبيل الله أى موقوف على الغزاة يركبونه فى الجهاد والحبس: الحصر (۱).

أقول: وقوله تعالى: وسيدا وحصورا أى حابسا نفسه على طاعة الله وكذلك قوله تعالى: فبشرناه بغلام حليم أى بغلامصبور أى حبس نفسه على طاعة الله.

قوله تعالى: فلما بلغ معه السعى أى أدرك معه العمل أى أطاق أن يعينه على عمله (۲) ومن ثمَّ عاونه على بناء البيت كما فى قوله تعالى: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ۱۲۷/ ۲.

قوله تعالى: إن هذا لهو البلاء العظيم البلاء: الاختبار، وابتلاه الله: امتحنه (۳).

قال تعالى:

وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ۱۲۴/ ۲.

قوله: فاتمهن أى وفى بهن كما فى قوله تعالى: وإبراهيم الذى وفَّى ۳۷/ ۵۳ وفى اللغة وفى: تَمَّ، وأوفى: أتم (۴).

قوله تعالى: لا ـ ينال عهدى الظالمين أى أنى لا ـ أعهد لظالم من ذريتك بالإمامة والظالم من ذرية إبراهيم هو الفاسق كما فى قوله تعالى: ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ۲۶/ ۵۷.

الظالم: من قولهم لزموا الطريق فلم يظلموه أى لم يعدلوا عنه، وقولهم أخذ فى طريق فما ظلم يمينا ولا شمالا وعدل عن الطريق مال عنه (۵) فالظالم المنحرف عن الاستقامة المائل عن العدل والحق.

الفاسق: من الفسق أى العصيان والخروج عن طريق الحق، والعرب تقول قد فسقت الرطبة من قشرها أى خرجت من قشرها وقوله تعالى: الا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه ۵۰/ ۱۸ أى جار ومال عن طاعته (۶).

وفى قبال الظالم والفاسق، المهتد والمحسن.

المهتد: المستقيم، قال تعالى: قل ان هدى الله هو الهدى ۱۲۰/ ۲ أى أن الصراط الذى دعا إليه هو طريق الحق ويقال هَداه هُدىً وهَدياً وهداية وهِدْية والمهدى من هداه الله إلى الحق، والهدى: الطاعة ويقال ذهب على هِدِيَته أى على قصده فى الكلام، وخذ فى هديتك: أى فيما كنت فيه من الحديث والعمل ولا تعدل عنه، والقصد استقامة الطريق وقوله طريق قاصد أى سهل مستقيم (۷).

وقوله تعالى: وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعملصالحا ثم اهتدى ۸۲/ ۲۰ أى استقام.

۱- ۱. القرآن الكريم.

۲- ۲. الكتاب المقدس باللغة العربية.

۳- ۳. الكتاب المقدس باللغة العبرية.

۴- ۴. الترجمة الأرامية لأسفار التوراة المعروفة بترجوم اونقيلوس.

۵- ۵. الترجمة اليونانية لأسفار التوراة المعروفة ب- السبتوجنتا.

۶- ۶. الترجوم الفارسى.

۷- ۷. التوراة السامرية، أحمد حجازى، السقا.

ص: ۱۲۶

المحسن: من الإِحسان أى الاستقامة وقوله تعالى: والذين اتبعوهم بإحسان ۱۰۰/ ۹ أى باستقامة وسلوك الطريق الذى درج السابقون عليه (۱) وقوله تعالى: ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ۲۲/ ۳۱ أى وهو مستقيم.

إن قوله تعالى: لا ينال عهدى الظالمين ليس إشارة إلى كلّ الظالمين الفاسقين فى قبال كل المحسنين المهتدين سواء كانوا من ذرية إبراهيم أو لم يكونوا وذلك لان إمامة الهدى والاضطلاع بعبء الرسالة وحفظها ونشرها جعله الله تعالى فى ذرية إبراهيم وعقبه كما فى قوله تعالى وجعلها كلمة باقية فى عقبه ۲۸/ ۴۳. وقوله تعالى: وجعل فى ذريته النبوة والكتاب إنَّ جعل الكتاب فى ذرية إبراهيم يراد به توريثهم علومه ومسؤولية حفظه وبيانه وهذه المسؤولية على نوعين:

الأول: مسؤولية خاصة بأشخاص معينين من قبل الله تعالى وهؤلاء قد يكونون أنبياء وقد لا يكونون، ولكنهم على كل حال لا بد من أن يكونوا مطهرين وهؤلاء لا يكونون إلا من ذرية إبراهيم.

الثانى: مسؤولية عامة من دون عهد إلهى خاص للشخص. القائم بحفظ الرسالة وبيانها وهذه لا تختص بذرية إبراهيم.

والإِمامة المذكورة فى قوله تعالى: إنى جاعلك للناس إماما هى الإِمامة المذكورة فى قوله تعالى: ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لماصبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ۲۳، ۲۴/ ۳۲ ولم يكن كل هؤلاء الأئمة الهادين بأمر الله تعالى أنبياء ولكنهم كلهم معيّنون من الله تعالى بأسمائهم أورثهم العلم بكتابه واعلن عن طهارتهم وعصمتهم بواسطة من سبقهم من الأنبياء.

لقد وضع القرآن الكريم أساسا واضحا للإِمامة الهادية بأمر الله بعد إبرهيم سواء كانوا أنبياء أو لم يكونوا، وقد تمثل هذا الأساس بكون الامام الهادى بأمر الله لا بدّ من أن يكون إبراهيميا أولا أى من نسل إبراهيم.

ثم لا بدّ فيه من أن يكون متبعاً لملة إبراهيم اتباعا يجعله مع إبراهيم خطّاً واحدا لا اختلاف فيه، وحالة واحدة لا تفاوت فيها، قوامها التسليم التام لأمر الله تعالى: وان هذه امتكم أمة واحدة ذرية بعضها من بعض وهذا هو الأساس الثانى، وإليه يشير قوله تعالى على لسان إبراهيم واجنبنى وبنى ان نعبد الأصنام. رب إنهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ۳۵/ ۳۶/ ۱۴.

۱- ۸. الترجمة الفارسية الحديثة للكتاب المقدس.

ص: ۱۲۷

وقوله تعالى: فمن تبعنى فإنه منّى لا- يريد منه الإشارة إلى قاعدة عامة تتناول كل اتباع إبراهيم من ذريته وغيرهم وإن كانت هذه القاعدة فى نفسهاصحيحة، ولكن عموم الاتباع حين يقال إنهم من إبراهيم فالمراد به أنهم منه من جهة الإيمان والولاء المترتب عليه المشار إليه فى قوله تعالى: المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض بل تشير الآية إلى اتباع إبراهيم من ذريته بقرينةصدر الآية وهو دعاء إبراهيم لبنيه دون عموم اتباعه وليس لعموم بنيه، بل لخصوص ورثة إمامته منهم، فالآية ترسى الشرط الثانى لوارث إمامة إبراهيم وهو كون هذا الوارث متبعا لابراهيم اتباعا يجعل منه مع إبراهيم خطا رساليا واحدا فقوله: فإنه منّى لا يريد النسب إذ كلَّ بنيه منه نسباً. سواء المهتدى منهم أو الضال وإنما يريد جهة التسليم التام لأمر الله تعالى.

وهناك أساس ثالث يشير إليه القرآن الكريم وهو أن يكون هذا الإمام الابراهيمى الهادى بأمر الله معهودا إليه من الله تعالى بواسطة إبراهيم سواء كان نبياً أو لم يكن قال تعالى: ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بَنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ۱۳۰- ۱۳۲/ ۲.

قوله تعالى: ملة إبراهيم أى دين إبراهيم وطريقته وسيرته وسنته (۱).

قوله تعالى: الا من سفه نفسه أى حمل نفسه على السفه.

السَّفَه والسَّفاه والسفاهة: خِفة الحِلم وقيل نقيض الحلم ويقال سَفِه فلانٌ رأيه إذا جهله وكان رأيه مضطربا لا استقامة له، وهومن قولهم تسفهت الرياح أى اضطربت وتسفَّهت الريح الغصون: حركتها واستخفتها ومنه قول خلف بن إسحق البهرانى:

بعثنا النواعج تحت الرحال تسافه اشداقها فى اللجم فإنه أراد أنها تترامى بلغامها يمنة ويسرة (۲).

واللغام زبد أفواه الإبل (۳).

أقول: لما كان السفه نقيض الحلم والحلم كما مر علينا هو الصبر والثبات على الطاعة وحبس النفس عليها يكون السفيه المشار إليه فى قوله تعالى: سفه نفسه معناه الذى حمل نفسه على المعصية كما فى قوله تعالى: وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ۴/ ۷۲ وسفيه الجن هو إبليس الذى فسق عن أمر ربه.

فالسفيه من ذرية إبراهيم هو الذى ترك ملة إبراهيم (عليه السلام) وأخذ يمينا وشمالا واتبع هواه: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه اللهُ على علم...

۱- ۹. الكتاب المقدس باللغة السريانية الغربية.

۲- ۱۰. الكتاب المقدس باللغة السريانية الشرقية.

۳- ۱۱. الكتاب المقدس الترجمة الانجليزية اليهودية.

ص: ۱۲۸

والحليم من ذرية إبراهيم الذى اتبع إبراهيم وصبر عليها ولو كان بذبح النفس كاسماعيل الذى سلم لِإبراهيم فى ذبحه.

قوله تعالى: ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ. أى ووصى بها إبراهيم بنيه وكذلك وصّى بها يعقوب بنيه.

الوصية: العهد (۱).

بها أى بالملة.

بنيه هم إسماعيل وإسحق ويعقوب (۲) وكانوا أنبياء وأئمة كما فى قوله تعالى: ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلّا جعلناصالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ۷۱- ۷۳/ ۲۱.

بنو يعقوب الذين كانت إليهم وصية يعقوب هم الأسباط المذكورون فى قوله تعالى: أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى... ۱۴۰/ ۲ وقوله تعالى: قولوا آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ۱۳۶/ ۲ وهم يوسف والأئمة من ولده، وليسوا كل اخوة يوسف.

إن إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط أوصياء لابراهيم فى حفظ (الملة) والموت على التسليم لأمر الله فى شأنها، وعلى الرغم من شهادة القرآن لهم بأنهم كانوا عابدين لله، فاعلين للخيرات، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وأنهم أوحى إليهم، سواء مباشرة أو بواسطة الملائكة، على الرغم من ذلك كان لا بد من العهد الإلهى والوصية بواسطة إبراهيم لجميعهم، ومن بعضهم للبعض الآخر ليكونوا أئمة بعد إبراهيم، كما هو الحال فى إبراهيم نفسه، فقد كان نبيا رسولا ولم يكن إماما حتى عهد الله إليه بالإمامة بعد الابتلاء.

وهكذا تتلخص إمامنا ثلاثة شروط فى الإمام الهادى بأمر الله تعالى بعد إبراهيم هى:

أولا: أن يكون من ذرية إبراهيم: وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وجعلها كلمة باقية فى عقبه.

ثانياً: أن يكون مجتنبا لعبادة الأصنام ومنها عبادة الهوى أى أن يكون متبعا لملة إبراهيم اتباعا يجعله مع إبراهيم فى حالة واحدة وامتداد واحد يتصف بالإسلام الذى كان لِإبراهيم نفسه: فمن تبعنى فإنه منى وبعبارة أخرى أن يكون محسنا مهتديا طاهرا.

ثالثا: الوصية والعهد من الله تعالى لشخصه بواسطة إبراهيم حتى ولو كان ذلك الشخص المصطفى من ذرية إبراهيم نبيا كإسحق ويعقوب.

۲: إمامة إبراهيم فى ذرية إسماعيل وإسحق:

۱- ۱۲. الكتاب المقدس الترجمة الانجليزية النصرانية.

۲- ۱۳. لسان العرب، ابن منظور.

ص: ۱۲۹

قال الله تعالى حاكيا عن إبراهيم (عليه السلام): الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء ۳۹/ ۱۴.

وقال تعالى: وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ۱۱۳/ ۳۷.

والآيتان تفيدان أنَّ عقب إبراهيم من إسماعيل وإسحق.

قوله تعالى: وباركنا عليه وعلى إسحق الضمير فى كلمة (عليه) يعود إلى إسماعيل.

والبركة على إسماعيل وإسحق هى جعل كل منهما نبيا رسولا إماما يهدى بأمر الله تعالى.

قوله تعالى: ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين تفيد وجود متبع لملة إبراهيم فى ذرية كل منهما حابس نفسه عليها، اصطفاه الله واستخلصه لنفسه وجعله إماما يهدى بأمره.

۳: إسحق والهداة من ذريته نافلة:

ولد لاسحق ولدان هما يعقوب وعيسو ولقب ب- (ادوم) وكانا توأما (۱) واصطفى الله تعالى يعقوب دون أخيه وجعله نبيا وإماما وجعل فى ذريته النبوة والكتاب.

قال تعالى: ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلّا جعلناصالِحين. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ۷۱- ۷۳/ ۲۱.

قوله تعالى: ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة.

النافلة والنفل: ما كان زيادة على الأصل (۲) وصلاة النافلة فى قبالصلاة الفريضة، وكذلك كل عبادة مستحبة منصوم وحج قبال الحج الواجب والصوم الواجب.

ويفهم من قوله تعالى: وامرأته قائمة فضحكت فبشَّرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ۷۱/ ۱۱ أن البشرى كانت بهما سوية وعلى هذا فإنهما قد وهبا معا لابراهيم نافلة أى زيادة على الأصل، وكل الأنبياء وأئمة الهدى من ذرية يعقوب تشملهمصفة النافلة فى قبال الأصل.

فما هو الأصل الموهب لإبراهيم (عليه السلام)؟

۴: إسماعيل والهداة من ذريته هم الأصل:

من الثابت قرآنيا وتوراتيا أن الموهوب لابراهيم أوّلا هو إسماعيل، ثم الأمة المسلمة والنبىّ المبعوث فيها كوعد إلهى ولمن يُخلف الله وعده وقد ورد هذا الوعد فى القرآن بصيغة الدعاء من إبراهيم وإسماعيل، وفى التوراة بصيغة إجابة الدعاء، وبذلك يكون الأصل هو إسماعيل والهداة من ذريته أى أن الله تعالى جعل إمامة إبراهيم فى إسماعيل، ثم فى اْلأُمّةِ المسلمة من ذريته والنبىّ المبعوث فيهم وذلك بموجب قوله تعالى: إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين وقوله تعالى حاكيا دعاء إبراهيم وإسماعيل عند رفع القواعد من البيت:. .. ومن ذريتنا أمة مسلمة لك... ربنا وابعث فيهم رسولا منهم... وفرض على الناس الأخذ بذلك والاعتقاد به ولا بد أنها قد ذكرت فى الصحف النازلة على إبراهيم شأنها شأن كتب الله فى ذكر طرف مهمة من أخبار الأنبياء السابقين والموعود بهم ثم بُيِّنت من قبل إبراهيم نفسه ونحن نذكر أولا النص القرآنى ومن بعده النص التوراتى. كما يلى:

۱- ۱۴. قاموس قوجمان عبرى عربى.

۲- ۱۵. قاموس جزينوس عبرى انجليزى: HSIGNE DNA WERBH A DLO EHT FO NOCIXEL .TNEMASTET

SUINESEG .W

ص: ۱۳۰

۵: الأُمة المسلمة والنبيّ المبعوث من ذرية إسماعيل:

ذكر القرآن الامة المسلمة، والنبيّ المبعوث فيها، من ذرية إبراهيم وإسماعيل فى ثلاث آيات: جاءت الآية الأولى بشكل دعاء من إبراهيم وإسماعيل، وجاءت الآية الثانية بشكل خطاب مباشرة لهم فى عصر النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلم)، أما الآية الثالثة فقد جاءت فى سياق الحديث عن الحاسدين لهم فى عصر النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) أيضاً.

الآية الأولى:

قال تعالى:

وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك... ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ۱۲۷- ۱۲۹/ ۲.

قوله تعالى: وجعلنا مسلمين لك الإِسلام المدعو به هنا هو الاسلام بمعناه اللغوى، أى الانقياد والخضوع التام لا الاصطلاحى. والمعنى وادم علينا حالة الانقياد والخضوع التام لك، وتوفنا عليها كما فى دعاء يوسف بعد ان مكن الله تعالى له: توفّنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ۱۰۱/ ۱۲.

قوله تعالى: ومن ذريتنا أمة مسلمة لك أى من ذرية إسماعيل/ إذ لم يكن إسحق مولودا ولا مبشرا به كما هو واضح من سياق الآيات (۹۹- ۱۱۳) من سورة الصافات (۱) وذرية إسماعيل هى ذرية إبراهيم والإِسلام الذى وصفت به هذه الأمة هو من سنخ الاسلام الذى دعا به كل من إبراهيم وإسماعيل لنفسه، كما هو مقتضى الحال والسياق فهو غير الاسلام (۲) فى قوله تعالى: قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا. لكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإِيمان فى قلوبكم ۱۴/ ۴۹ وبغير ذلك لا تكون هذه الذرية المطلوبة قرة عين لإبراهيم ولا تكون منه، إذاً فقد دعا إبراهيم بأن يرزق إسماعيل من ذريته أُمة مسلمة، كإسلام إسماعيل وإبراهيم على ملّة إبراهيم فى البراءة من الشرك، واجتناب عبادة الأصنام، فهى إذاً مشمولة بدعائه فى قوله تعالى:

وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام. ربّ إنهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم. ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون ۳۵- ۳۷/ ۱۴.

قوله تعالى: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويُعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ۱۲۹/ ۲.

أصل الزكاة فى اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح، وأيضاً الزكاةصفوة الشىء والزكاء ما أخرجه الله من الثمر وزكاه الله: مدحه، وزكا الرجل نفسه إذا وصفها وأثنى عليها (۳).

۱- ۱۶. معجم جاسترو لألفاظ الترجوم: HSILGEN CIAMARA WERBH YRANOITCID WORTSAJ

۲- ۱۷. القاموس الآشورى بابلى واكدى انجليزى: YRANOITCID NAIRYSSA EHT ۱۱ .LOV

۳- ۱۸. القاموس اليونانى انجليزى: YRANOITCID KEERG S'TTOCS DNA LLEDDIS

ص: ۱۳۱

قوله تعالى: رسولا منهم لا يوجد خلاف على أن الرسول المشار إليه فى الآية هو خاتم الأنبياء، وبذلك تكون الآية قرينة، على أن المراد بالأمة المسلمة، التى طلبها إبراهيم وإسماعيل من الله تعالى، هى أمة ذاتصلة مباشرة بخاتم الأنبياء، حيث يبعث فيهم لتعليمهم الكتاب والحكمة ولإعلان طهارتهم.

قوله تعالى: ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

أقول: قدم التعليم على التزكية لكونهم مسلمين طاهرين طهارة الإِسلام، التى يتوقف عليها تعليم الكتاب والحكمة، أما فى قوله تعالى: هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ۲/ ۶۲، وقوله تعالى: لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ۱۶۴/ ۳ فإنه قدم التزكية على التعليم لأن هؤلاء ٱلْأُميين المذكورين فى الآية الأولى مُشركون. وكذلك المؤمنون المذكورون فى الآية الثانية كانوا من قبل فى ضلال مبين وهو الشرك أيضاً، والمشركون نجس ولا تزول نجاستهم إلا بالإِسلام الاصطلاحى.

قوله تعالى: فى الأميين نسبة إلى أم القرى وهى مكة.

وقوله تعالى: رسولا منهم أى من أهل مكة.

وأهل مكة هم ذرية إسماعيل وهم قسمان:

الأول: ٱلْأُمة المسلمة التى اجتنبت عبادة الأصنام، ومن هؤلاء آباء النبىّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) الذين أشار إليهم قوله تعالى: الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ۲۱۸- ۲۱۹/ ۲۶ (۱)

الثانى: ذرية إبراهيم التى سفهت نفسها وانحرفت.

إنّ العلاقة التى ترسمها الآية بين الأمة المسلمة والنبىّ المبعوث فيها، هى علاقة تلاوة آيات الله عليهم، أى إنذارهم، ثم تعليمهم الكتاب والحكمة ثم إعلان طهارتهم، ومدحهم والثناء عليهم، وإخراجهم للناس ليكونوا شهداءه وقد أثنى الله تعالى على هذه الأمة بقوله: كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله... ۱۱۰/ ۳.

الآية الثانية:

قال تعالى:

يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا فى الله حقّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدّين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبلُ وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة واتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ۷۷- ۷۸/ ۲۲.

۱- ۱۹. قاموس السريانية الغربية.

ص: ۱۳۲

قوله تعالى: هو اجتباكم أى هو اصطفاكم كما فى قوله تعالى: وكذلك يجتبيك ربك أى وكذلك يصطفيك ويختارك. وفى الحديث أنه اجتباه لنفسه أى اختاره واصطفاه وهو مشتق من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك (۱).

قوله تعالى: وما جعل عليكم فى الدين من حرج أقول: الدين هنا بمعنى الطاعة.

والحرج: قال ابن الأثير: الحرج فى الأصل الضيق و يقع على الاثم والحرام (۲) أى ما جعل فى طاعتكم له ضيقا مهما كان أمره، حتى لو أمركم بذبح أنفسكم، أى شرحصدركم للطاعة التامة، كما فى قوله تعالى: فمن يُرد الله أن يهديه يشرحصدره للإسلام ومن يُرد أن يُضله يجعلصدره ضيقا حرجا كأنما يصّعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ۱۲۵/ ۶.

قوله تعالى: ملة أبيكم إبراهيم أى دين أبيكم وطاعته حيث لم يكن منه ضيق وحرج حتى عندما أمرناه بذبح ولده اسماعيل اختباراً، والآية تشير إلى تسمية هذه الأُمة المسلمة والنبيّ والمبعوث فيها من ذرية إسماعيل ب- (بنى إبراهيم) و (آل إبراهيم).

قوله تعالى: هو سماكم المسلمين من قبل.

ذكر المفسرون فى مرجع الضمير (هو) إحتمالين: الأول الله تعالى، الثانى إبراهيم.

وقد رجع أغلبهم الاحتمال الأول، وذلك لأنهم حملوا المخاطب فى قوله: يا أيها الذين آمنوا فيصدر الآية على عموم المؤمنين، سواء كانوا من ذرية إبراهيم أو لم يكونوا، ومعه اضطروا إلى أن يقدموا تعليلاً لوصف إبراهيم بأنه (أبّ للمسلمين) أى لكل المسلمين بالمعنى الاصطلاحى للإسلام.

قال العلّامة الطباطبائى (ره): وإنما سمى إبراهيم أبا للمسلمين لأنه أوّل أسلم (۳).

قلت: ويرد على هذا التعليل، أن نوحاً أمره الله تعالى بالإسلام قبل إبراهيم قال تعالى حاكيا عنه: وأُمرت أن أكون من المسلمين ۷۲/ ۱۰. وأخبر عن إبراهيم أنه من شيعة نوح كما فى قوله: وإنّ من شيعته لإبراهيم ۸۳/ الصافات، أى أن إبراهيم كان من ذرية نوح التى سارت على ملته وطريقته وهى الإِسلام، وقال عن إبراهيم (عليه السلام): ومن يرغب عن ملّة إبراهيم الا من سفه نفسه... إذ قال له ربُّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ۱۳۰- ۱۳۱/ ۲.

ونحن نرجح الاحتمال الثانى، وهو أن يكون مرجع الضمير إبراهيم فتكون الآية إشارة إلى دعاء إبراهيم المشار إليه فى قوله تعالى: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل... ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمّة مسلمة لك... ربَّنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم... ۱۲۷ - ۱۲۹ / ۲. والإِسلام فى كلا الموردين هو الإِسلام بمعناه اللغوى دون الاصطلاحى، ويحمل المخاطب فى قوله: يا أيها الذين آمنوا على إرادة خصوص الذين جعلهم الله شهداء على الناس من ذرية إبراهيم بعد خاتم الأنبياء، دون كلّ المؤمنين به من ذرية إبراهيم، ولا عموم من أسلم بالمعنى الاصطلاحى.

۱- ۲۰. قاموس السريانية الشرقية.

۲- ۲۱. معجم اللغة الفارسية.

۳- ۲۲. القاموس الهيروغليفى هيروغليفى انجليزى. CIHPY LGOREIH NAITPYGE EHT EGDUB .YRANOITCID

ص: ۱۳۳

قوله تعالى: وفى هذا.

قال اغلب المفسرين: المراد به وفى القرآن، وذلك إنسجاماً مع إرجاعهم الضمير (هو) إلى الله تعالى. وقد تبين لنا أن الصحيح هو رجوع الضمير إلى إبراهيم، وحينئذ لا وجه للمعنى الذى ذكروه.

ونحن نرى أن المراد ب- (هذا) هنا معنى (ذلك) أى وفى ذلك الدعاء الإبراهيمى الذى سماكم به مسلمين.

قال الفراء: [(هذا) و (ذلك) يصلحان فى كل كلام إذا ذكر، ثم اتبعته بأحدهما بالاخبار عنه ألا ترى أنك تقول: قد قدم فلان فيقول السامع: قد بلغنا ذلك، وقد بلغنا هذا الخبر، فصلحت فيه (هذا)؛ لأنه قد قرب من جوابه فصار كالحاضر الذى نشير إليه، وصلحت فيه (ذلك) لانقضائه، والمنقضى كالغائب. وقد قال الله عزّ وجلّ: وعندهم قاصرات الطرف أتراب ثم قال: هذا ما توعدون ليوم الحساب ۵۲- ۵۳/ ۳۸ وقال جلّ ذكره: وجاءت سكرة الموت بالحق ثم قال: ذلك ما كنت منه تحيد ۱۹/ ۵۰ فلو قيل فى مثله من الكلام: فى موضع (ذلك) (هذا) أو فى موضع (هذا) (ذلك) لكانصوابا] (۱).

قلت والنكتة واضحة فى عدول القرآن عن استعمال (ذلك) فى هذا المورد ومجيئه ب- (هذا) بدلا عنه وهى الاشارة إلى تحقق دعاء إبراهيم. وإذاً قوله: هو سماكم المسلمين من قبل إشارة إلى دعاء إبراهيم عند رفع القواعد من البيت، لذرية إسماعيل فى مكة فى المستقبل البعيد جدا، (إذ بين إبراهيم حين دعا وبعثة محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ما يقرب من ۲۵۰۰ سنة) وقوله: وفى هذا إشاره إلى تحقق الدعاء وظهور النبىّ وأول الأمة المسلمة. وقوله: لتكونوا شهداءَ على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً... ۱۴۳/ ۲ قرينة على إرادة هذا المعنى من المجىء بلفظ (هذا) بدلا من لفظ (ذلك). فقد انتقل الحديث من ذكر دعاء إبراهيم- بأن يرزق الله إسماعيل أمة مسلمة، يبعث فيها نبيّاً يتلو عليهم آياته- إلى خطابٍ لهذه الأمة التى أخرجها الله إلى الوجود.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا. أُنظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا. ألم تر إلى الذين أُتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً. أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يُؤتون الناس نقيراً. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما. فمنهم مَن آمن به ومنهم مَنصدَّ عنه وكفى بجهنم سعيراً. إنّ الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كلما نضِجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذقوا العذاب إنّ الله كان عزيزاً حكيماً. والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا. إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إنّ الله نعما يعظكم به إنّ الله كان سميعاً بصيراً. يا أَيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلًا. أَلم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالا بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنكصدوداً ۴۹- ۶۱/ ۴.

قوله تعالى: يزكون أنفسهم أى يثنون عليها ويصفونها بالفضل على الناس وهم اليهود والنصارى كما فى قوله تعالى: وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء... ۱۸/ ۵ وقريش أيضاً وقد كانت تسمى نفسها (آل الله) و (أهل الله) (۲).

۱- ۲۳. معجم العلامات الآشورية- البابلية: EHCSINILYBAB HCSIRYSSA REGROB ELKYR ,TSILNEHCIEZ

۲- ۲۴. دروس فی اللغة العبرية، ربحی کمال.

ص: ۱۳۴

قوله تعالى: بل الله يزكى من يشاء بإجراء آياته الخارقة على يديه أو بالثناء عليه وتفضيله مباشرة فى كتابه أو بواسطة نبيه.

قوله تعالى: أم يحسدون الناس الحسد أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك، وحَسَدَه يحسِدَه ويحسُدُه حَسَداً إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته (۱).

قوله تعالى: آل إبراهيم هم الأمة المسلمة والنبيّ المبعوث فيهم.

قوله تعالى: من فضله الفضل فى الآية هو إيتاء الله تعالى آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم، أى بعثة الرسول إليهم وتعليمهم الكتاب والحكمة؛ ليؤدوا عنه ويكونوا شهداء على الناس، وفرض ولايتهم وطاعتهم على الناس، أى جعلهم أئمة عليهم.

قوله تعالى: فمنهم من آمن به ومنهم منصدّ عنه أى من الناس المكيين وأهل الكتاب، وغيرهم من آمن بهذا الفضل لآل إبراهيم واتخذهم أئمة هداة، ومنهم من اعرض عنه.

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم أولوا الأمر المقرونة طاعتهم بطاعة الله ورسوله، هم أصحاب الملك العظيم، المذكورون فى الآية السابقة، وهم آل إبراهيم الشهداء على الناس بواسطة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم). فآل إبراهيمصنفان:

الأول: النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

الثانى: شهداؤه على الناس، وهم أولوا الأمر الذين قرنت طاعتهم بطاعة الله تعالى ورسوله.

ب: من التوراة:

۱. اثنا عشر رئيسا من ذرية إسماعيل:

جاء فى سفر التكوين ۹: ۱۷- ۱۰ (وقال الله لابراهيم... يختن منكم كل ذكر) وفى ۲۳: ۱۷- ۲۵ (فاخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته... وختن لحم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن).

وفى ۱: ۲۲- ۲ (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال: خذ ابنك وحيدك الذى تحبه (إسحق)، واذهب إلى أرض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال التى أقول لك).

وفى ۱۰: ۲۲- ۱۳ (... ثم مدّ إبراهيم يده وأخذ السكين لذبح ابنه فناداه ملاك الرب من السماء وقال... لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل شيئاً؛ لانى الان علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى، فرفع إبراهيم يمينه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه).

۱- ۲۵. المورد قاموس انجليزى عربى.

ص: ۱۳۵

وفی ۱: ۱۷- ۷ (ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب (ملاك الرب) لابرام وقال له: أنا الله القدير سر امامی وكن كاملا، فاجعل عهدی، بينی وبينك وبين نسلك من بعدك فی أجيالهم، عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك).

وفی ۱۸: ۱۷- ۲۱ (وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله... وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه (فی نسخة الترجوم) سمعت دعاءك له) ها أنا أباركه وأثمره وأكثره جداً جداً (۱) اثنی عشر رئيساً يلد واجعله أمةً كبيرة ولكن عهدی أقيمة مع إسحق الذی تلده لك سارة فی هذا الوقت فی السنة الآتية).

قوله: (وجميع المبتاعين بفضته) أی المبتاعين بسكَّته وهم القبائل الذين آمنوا به، ومنهم قبائل جرهم الذين استأذنوا إبراهيم أن يسكنوا بجوار الحرم عندما نبعت زمزم.

قوله: (خذ ابنك وحيدك الذی تحبه إسحق) ابنه الوحيد هو إسماعيل حيث إن ولادة إسحق تمت فی السنة الثانية من حادثة الابتلاء كما ذكر فی الاصحاح ۱۷ نفسه: الفقرة ۲۱ فذكر اسم إسحق هنا بوصفه الذبيح من التحريفات المفضوحة للتوراة وقد تسربت إلی بعض الروايات الإسلاميّة التی تذكر أن الذبيح إسحق وليس إسماعيل.

قوله: (ارض المريا) المريا هو جبل المروة.

قوله: (سر أمامی وكن كاملا فاجعل عهدی بينی وبينك وبين نسلك من بعدك) يقابل قوله تعالی: إنی جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتی قال لا ينال عهدی الظالمين ولكن النص التوراتی جعل العهد فی كل نسل إبراهيم وفی نص آخر جعله فی كلِّ ذرية إسحق وكلاهما تحريف.

قوله: (أنا أباركه واثمره جدا جدا اثنی عشر رئيسا يلد):

قوله: (جداً جداً) وفی بعض الترجمات (كثيراً جداً) أصله العبری (بماد ماد) وهو تحريف لاسم محمد (صلّی الله عليه وآله وسلّم) وسيأتی الكلام علی ذلك.

(الرئيس): سيد القوم والجمع رؤساء يقال رئيس مثل قيم بمعنی رئيس، ورأس القومصار رئيسهم ومقدَّمتهم، ورأس عليهم فضلهم، ورأس كل شیء أعلاه، ورأس النهر والوادی أعلاه، وسحابة مرائس ورائس متقدمة السحاب، وفی التهذيب سحابة رائسة وهی التی تقدَّم السحاب وهی الروائس (۲).

وجملة (اثنی عشر رئيسا يلد) ترجمة للأصل العبری ولفظه (شنيم عسر نسئيم يولد) وعبارة (شنيم عسر) تعنی (اثنی عشر).

۱- ۲۶. تاريخ اللغات السامية، أ. ولفنسون.

۲- ۲۷. نبوة محمد فی الكتاب المقدس، عبد الأحد داود ترجمة فهمی شمّا.

ص: ۱۳۶

ولفظة (نسئيم) جمع ومفردها (ناسى) وهى بمعنى رئيس دولة. ورئيس الجمع الدينى، وقائد، وزعيم، وأيضا تأتى بمعنى سام، عال، محترم، موقر، عظيم، وأصلها من (ناسى) () بمعنى: رفع ومنها (نسّى) بمعنى: مرتفع، محترم، موقر.

وفى النسخة الأرامية التى تسمى ب- (ترجوم اونقيلونس) ترجم الأحبار لفظة (نسئيم) إلى (ربربين) وهى جمع ومفردها (ربربا) بمعنى رجل عظيم، رئيس، زعيم، من الفعل (ربرب) بمعنى رفع، عظم.

ويرادفها أيضاً (ربان) بمعنى رئيس، معلم الشريعة (ولقب للعالم) وجمعها (ربانيم) (وتلفظ فى العربية ربانيين) والأصل لكليهما معا هو لفظة (راب) ومعناها واحد فى العبرية والأرامية وتعنى رئيس، عظيم، كبير (۱).

وفى النسخة السريانية الغربية (روربنين) بمعنى أمراء، اشراف، رؤساء، عظماء (۲).

وفى النسخة السريانية الشرقية (ميرا) بمعنى أمراء وسادة (۳).

وفى الترجوم الفارسى المكتوب بالخط العبرى (مهتران) أى رؤساء وقادة (۴).

وفى النسخة الفارسية الحديثة بالخط العربى (رئيس) ولكنهم لما ترجموا الفقرة ۶: ۲۳ وفيها وصف إبراهيم بأنه (نسئ) جاءوا بلفظة (سرور) أى رئيس، قائد، زعيم، إمام (۵).

وفى النسخ العربية التى نقل عنها علماء المسلمين كالشيخ المفيد (ت- ۴۱۳) وابن كثير (۶) (ت- ۷۷۴) (اثنى عشر عظيما) و (العظيم) فى العربية الذى له حرمة عند الناس يعظم لها و (عظمات القوم) سادتهم وذو شرفهم (۷).

وفى النسخة السبعينية المعروفة ب- (السبتوجنتا) (اثنى عشر امة) واللفظ اليونانى (دوديكا اثنى) ولفظة اثنى جمع ومفردها (ايثنوس) وتعنى بالأغريقية (۸):

۱. جماعة من الناس تعودوا على الحياة معاً.

۲. حشد من الناس، أو الحيوانات، ثم اكتسب اللفظ بعد هو ميروس معنى الأمة، الناس، وفى العهد الجديد أراد ب- (الأمم) كل الناس ما عدا اليهود والنصارى.

۳.صنف خاص متميز من الناس أو الرجال (طبقة)، (قبيلة، عمارة).

أقول: والترجمة تحريف لمعنى النص الأصلى، إذا كان المراد من (الأمة) القبيلة والعمارة حيث أراد المترجمون منه الاحبار والرهبان تفسير الفقرة موضع البحث (۱۷: ۲۰) بما ورد فى سفر التكوين الاصحاح ۱۳: ۲۵ من ذكر أسماء أولاد إسماعيل الاثنى عشر وإن كل واحد منهمصار قبيلة تمشيا مع أولاد يعقوب الاثنى عشر حيثصار كل واحد منهم عشيرة سميت باسمه.

۱- ۲۸. المسائل السرويه، الشيخ المفيد.

۲- ۲۹. البداية والنهاية، ابن كثير.

۳- ۳۰. نبوءة محمد فى الكتاب المقدس، السقا.

۴- ۳۱. أنيس الأعلام فى نصرة الاسلام.

۵- ۳۲. منقول الرضائى.

۶- ۳۳. شرح نهج البلاغة، ابن أبى الحديد.

۷- ۳۴. الاستيعاب، ابن عبد البر القرطبى.

۸- ۳۵. سيرة ابن إسحق تحقيق سهيل زكار.

ص: ۱۳۷

والـذى نحتمله جـدا أن لفظـة (اثينوس) الإِغريقيـة أصـلها (ادون) العبرية (۱) وتعنى: السـيد، القيـم، المـولى، الأمر، الزوج والرب (۲)، ولذلك تطلق على الله تعالى وعلى النبيّ والملك وشيخ القبيلة والزوج والأستاذ.

وفى ضوء ذلك يكون معنى العبارة (اثنى عشـر اثينوس) أى اثنى عشـر سـيدا، قيما، آمرا، فتكون الترجمـة عندئذصـحيحة ودقيقـة جدا ومتطابقة مع الاستعمال القرآنى للفظة (امة) بمعنى الإِمام، القيم، فى قوله تعالى: إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً لله... ۱۲۰/ ۱۶ أى كان اماماً، قيماً، رئيساً، قانتا لله تعالى كما مرّ بحثه فى الفصل الأول تحت لفظة إمام.

وفى النسـخ الانجليزيـة المعاصـرة ترجمت عبـارة (اثنى عشـر نسـئيم) فى بعضـها إلى ((SRELUR EVLEWT وتعنى (اثنى عشـر حاكمـا) ولفظـة (رولر) ((RELUR اسـم فاعـل وأصـلها (رول) ((ELUR وتعنى القـانون والدسـتور، الحكـم والسـلطة، المسـطرة والمقياس، يوجه، يهدى، يحكم، يأمر (۳).

وفى بعضها الآخر ترجمت إلى ((SECNIRP EVLEWT أى (اثنى عشر ملكا، أميرا) (۴).

ولنعد إلى اللفظ العبرى (ناسـى) فإنها قد وردت فى التوراة العبرية وصـفا لإِبراهيم كما فى سـفر التكوين ۵: ۲۳- ۶ قال له بنوحث لما أراد أن يشترى مقبرة منهم لـدفن سـارة زوجته قالوا له (اسـمعنا يا سـيدى أنت رئيس من الله بيننا) فى أفضل قبورنا أدفن ميتك واللفظ العبرى لما بين القوسين (شماعينو ادونى نسئ ايلوهيم اتا).

ومن الواضـح أن مقام الرئاسـة والإِمامـة لابراهيم لم يكن له فى بداية حياته الرسالية ولا حينما كان فى المنفى، بل كان له فى أخريات أيامه، والـذى يـذكره القرآن الكريم لإِبراهيم فى أخريات أيامه هو (إمامـة الناس) التى جعلها الله له، إذن الفقرة التوراتيـة (أنت رئيس من الله بيننا) يقابلها فى التعبير القرآنى إنى جاعلك للناس إماما.

وفى ضوء ذلك تكون بركة الله لإِسماعيل ب- (اثنى عشر رئيسا) يراد بها (اثنى عشر رئيسا من الله) أى (اثنى عشر إماما هاديا بأمر الله) وذلـك لأنصـاحب الوعـد بهم هو الله تعـالى وصاحب الطلب من الله تعالى هو إبراهيم، وإبراهيم لا يرى فى ولـده قرة عين إلا إذا كان مستحقا للإِمامة الهادية التى تتقوم بصـفة الاسـلام بمعناه اللغوى أى التسـليم التام لله تعالى كما لا يرى لاسماعيل قرة عين من ولده إلّا إذا كانوا كذلك: ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ۷۴/ ۲۵.

۱- ۳۶. سيرة ابن هشام تحقيق الابيارى والسقا.

۲- ۳۷. كشف الحق للشيخ رحمة الله الكيرانوى.

۳- ۳۸. الميزان فى تفسير القرآن.

۴- ۳۹. الدر المنثور للسيوطى.

ص: ۱۳۸

فالرئاسة لهؤلاء الاثنى عشر من ذرية إسماعيل الموعود بهم هى (رئاسة الهية)، أى بعهد منه تعالى لأشخاصهم كما عهد لابراهيم وتعبير (العهد) ورد فى القرآن فى قوله تعالى: قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين وفى التوراة أيضا فى قوله (واجعل عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك) ولكن النص القرآنى أكثر دقة حيث نصّ على أن عهد الله تعالى بالإمامة لا ينال ظالما من ذرية إبراهيم، بينما التعبير التوراتى لم يورد هذا القيد، وجعل العبارة مطلقة، ولكنه فى مورد آخر خصصها بذرية إسحق دون إسماعيل حسدا وبغضا للنبى وآله كما أشار قوله تعالى: أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مُلكاً عظيماً ۵۴/ ۴ والملك العظيم هو الإمامة كما فى قوله تعالى: أَلم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبىّ لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله.... وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا... ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء... ۲۴۶- ۲۴۷/ ۲.

۲. هل يخلو النصُّ التوراتى من ذكر محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حقّاً؟

النصّ التوراتى موضوع الدراسة يذكر أنّ الله تعالى بارك إسماعيل وثمّره وكثّره (جدّاً جدّاً اثنى عشر رئيساً يلد)، إجابةً لدعاء إبراهيم. ولكنه لم يذكر ما هو دعاء إبراهيم، وقد ذكره القرآن الكريم على لسان إبراهيم وإسماعيل وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك.... ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم وفى ضوء ذلك يكون النص التوراتى محرفا باسقاط ذكر النبى (صلّى الله عليه وآله) منه.

وقد ذكر علماء اليهود الذين أسلموا (۱)أن لفظة (جداً جداً) وأصلها العبرى (بمادماد) تدل على اسم النبىّ الآتى من إسماعيل بحساب الجمل، وكلمة (محمد) (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بحساب الجمل عددها (۹۲) وكلمة (بمادماد) بحساب الجمل تساوى (۹۲).

وحساب الجمل هو حساب الاعداد للحروف الهجائية فى اللغة العبرانية فى هذه الكلمات: (ابجد- هوز- حطى- كلمن- سعفص- قرشت)، والألف بواحد والباء باثنين والجيم بثلاثة والدال بأربعة والهاء بخمسة والواو بستة والزاى بسبعة والحاء بثمانية والطاء بتسعة والياء بعشرة والكاف بعشرين واللام بثلاثين والميم بأربعين والنون بخمسين والسين بستين والعين بسبعين والفاء بثمانين والصاد بتسعين والقاف بمائة والراء بمائتين والشين بثلاثمائة والتاء بأربعمائة والحروف تنتهى عند التاء (۲).

ونقل على بن عيسى الأربلى (۳) أنه حكى له بعض اليهود أن (بمادماد) معناه ب- (محمد).

أقول وفى العبرية يوجد (ماحماد) و (ماحمود) (۴) كصيغتين لاسم الفاعل واسم المفعول للفعل (حمد) ومعناهما (المرغوب فيه جدا، المحبوب، الحبيب،...) (۵).

وفى ضوئه تكون الكلمة الأصلية فى النص هى (بماحماد) أو (بماحمود) ولا تحتاج لتحريفها إلى (بمادماد) أكثر من إسقاط الجناح الأيسر لحرف الحاء العبرى () ليكون حرف الدال العبرى ().

۱- ۴۰.صحيح البخارى.

۲- ۴۱. أعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسى.

۳- ۴۲.صحيح مسلم.

۴- ۴۳. معالم المدرستين للعسكرى.

۵- ۴۴. معانى القرآن للفراء.

ص: ۱۳۹

وفی ضوئه أیضاً یکون النص الأصلی هو:

(أما إسماعیل فقد (أجبت دعاءک له) (۴۵) ها أنا أبارکه وأثمره وأکثره ب- (محمد واثنی عشر إماما سیولدون له).

۳. خطأ الیهود فی تفسیر النص:

فسرّ علماء الیهود (۴۶) وتابعهم علماء النصاری علی ذلک/ الفقرة ۱۷: ۲۰ بالفقرات ۱۲- ۲۵: ۱۶ وهی سفر التکوین وهی (وهذه هی أسماء بنی إسماعیل حسب مواالیدهم نبایوت بکر إسماعیل وقیدار وأدبیل ومبسام ومشماع أسماؤهم بدیارهم وحصونهم، اثنا عشر رئیسا حسب قبائلهم) (۴۷).

ولکن واقع حال القبائل الإسماعیلیة قبل بعثة النبیّ لا یوجد فیه ما یشعر بأنهم کانوا برکة إسماعیل، وهی برکة عظیمة جدا کما ذکرها النصّ (أما إسماعیل... فها أنا أبارکه وأثمره وأکثره کثیرا جدا اثنی عشر رئیسا یلد واجعله أمة کبیرة) ولم یرد هذا الوصف لاسحق، نعم ورد لإبراهیم (علیه السلام) وأکثرک کثیراً جداً) ۲: ۱۷ (وأکثرک کثیراً جداً واجعلک أمما. وملوکٌ منک یخرجون) ۶: ۱۷ ثم حرفوا النص بقولهم: ان هذا العهد والبرکة جعلها الله فی إسحق، وکانت برکة إسحق أن جعل الله فی ذریته أنبیاء وأئمة هدی، فلا بد من أن تکون برکة إسماعیل العظیمة کذلک، مضافاً إلی کونها الأصل المرهوب لإبراهیم وبرکة وإسحق ویعقوب نافلة.

۴. حدیث النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلّم): الأئمة من بعدی اثنا عشر:

رأینا فیما مضی أن نسخ التوراة کلها العبریة والسامریة والأرامیة، والسریانیة الغربیة، والسریانیة الشرقیة والیونانیة، والأرامیة الفارسیة والفارسیة الحدیثة، والعربیة والانجلیزیة، ذکرت العدد (اثنی عشر رئیساً) فی برکة الله لإسماعیل. ولکن القرآن لم یذکر العدد نعم ذکره النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلّم) فی حدیثه الذی روته کتب الحدیث لدی السنة والشیعة.

جاء فیصحیح البخاری (۴۸) عن جابر بن سمرة أن النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلّم) قال لا یزال الدین قائما حتی تقوم الساعة أو یکون علیکم (إثنا عشر أمیراً کلهم من قریش) وفی روایة مسلم فیصحیحة (۴۹) (اثنا عشر خلیفة).

ص: ۱۴۰

وفی روایة فتح الباری (لا تضرهم عداوة من عاداهم).

وفی روایة کنز العمال (یکون لهذه الأمة اثنا عشر قیماً لا یضرهم من خذلهم کلّهم من قریش).

وقد اتّفقت الروایات علی ذکر عبارة (کلهم من قریش) و (قریش) هو لقب لأحد أجداد النبیّ (صلّی الله علیه وآله وسلّم) وهو فهر بن مالک بن النضر بن کنانة بن خزیمة بن مدرکة بن الیاس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من ذریة إسماعیل بن إبراهیم، وقد اتفقت علی هذا النسب لفهر کل کتب الانساب ولم یخالف أحد فی ذلک (۵۰).

وقد حار علماء السنة فی بیان المقصود من الاثنی عشر فی الروایات التی رووها وسلموا بها، فذکروا الخلفاء الأربعة وعدداً من خلفاء بنی أمیة وعدداً من خلفاء بنی العباس (۵۱).

أما الإمام علی (علیه السلام) فقد بین أن الائمة من قریش قد غرسوا فی (هاشم) وهاشم هو ابن عبد مناف بن قصی بن کلاب بن مرة بن کعب بن لؤی بن غالب بن فهر وهو قریش قال (علیه السلام):

(إن الائمة من قریش غرسوا فی هذا البطن من هاشم) (۵۲).

وسیأتی البحث لاثبات ذلک من القرآن الکریم أیضا إن شاء الله.

۵. نتیجة البحث:

والذی نخلص إلیه من البحث هو أن قوله تعالی: وإذ یرفع إبراهیم القواعد من البیت وإسماعیل ربنا تقبل منا إنک أنت السمیع العلیم ربنا واجعلنا مسلمین لک ومن ذریتنا أمة مسلمة لک... ربنا وابعث فیهم رسولا منهم یتلو علیهم آیاتک ویعلمهم الکتاب والحکمة ویزکیهم إنک أنت العزیز الحکیم یقابله فی التوراة الفقرة (۱) من الاصحاح (۲) من سفر التکوین وهی بعد تصحیح النص (أما إسماعیل فقد أجبت دعاءک له ها أنا أُبارکه وأکثره ب- محمد واثنی عشر إماما، سیولدون له).

وان هذه الأمة المسلمة من ذریة إسماعیل والنبی المبعوث فیها ومنها قد أورثهم الله إمامة إبرهیم فیصلب أبیهم إسماعیل وذلک قبل أن یولد إسحق. یعقوب ویبشر بهما وبالأئمة والأنبیاء من ذریة یعقوب.

وإن هؤلاء الاثنی عشر إماما من ذریة إسماعیل هم من قریش (فهر) ثم من هاشم.

وإنهم یکونون بعد النبی (صلّی الله علیه وآله وسلّم) کما ثبتت الروایة عنه (صلّی الله علیه وآله وسلّم) ان الائمة من بعده اثنا عشر لا تضرهم عداوة من عاداهم.

وان هؤلاء الاثنی عشر شهداؤه علی الناس یؤدون عنه ما حملهم إیاه من علوم الکتاب والسنة بعهد الهی خاص وسیأتی تفصیل ذلک من القرآن الکریم إن شاء الله.

۱- ۲۰. قاموس السریانیة الشرقیة.

۲- ۱۷. القاموس الآشوری بابلی واکدی انجلیزی: LOV. ۱۱ YRANOITCID NAIRYSSA EHT

ص: ۱۴۱

ص: ۱۴۲

الاهداف الاجتماعيّة للحجّ الابراهيمى

ص: ۱۴۳

الأهداف الاجتماعيّة للحجّ الإبراهيمى

تأليف: عبدالجبار شرارة

إنّ الحجّ الذى جعله الله فريضةً من أعظم الفرائض بقوله تعالى: ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلًا آل عمران/ ۹۷.

وأوجبها فى أيام معدودات معلومات. ترمى فى حقيقتها وواقعها إلى أهدافٍ كبيرة، تتصل فى جانبٍ أساسيٍ منها بالْأُمة المسلمة كياناً وقياماً وحضارةً. وإذا كان الجانب العبادى الصِرف فى هـذه الفريضة متجليّاً فى المناسك المعروفة، فإنّ هذه المناسك التى تُؤدى فى الحج تنبىء أيضاً بالجانب الإجتماعى وبالأهداف العظيمة المتوخاة منها. ونستطيع أن نتبين هذه الأهداف ونحددها فى ضوء ماورد فى شأن الحجّ من الآيات المباركة والروايات المتضافرة، وما حُفّ به الحجّ، كما فى لسان بعض الروايات، من تأكيدات وصلت إلى الحدّ الذى يقول فيه الإمام (عليه السلام "):لو عطل الناسُ الحجَّ لوجب على الإمام أن يجبرهم على الحج "...(۱).

ولعل من أهم تلك الأهداف والوظائف التى يمكن أن يؤديها الحجُّ بالنسبة إلى المسلمين هى:

أولًا: إدخال الأمة المسلمة فى تجربة التوحيد والوحدة، أى بصورة فعلية وليس من خلال مجرد الدعوة والحثّ على ذلك.

وفلسفة هذا الأمر؛ أنّ الشرك الخفى يمكن أن يتسرب إلى النفوس (۲)، وأنّ دواعى الفرقة والاختلاف متوافرة دائماً، ولذا فلا بدّ من زرق الأفراد بالمضاد الحيوى، ولا بدّ من نفيٍ لتلك الدواعى. ومناسك الحج من أقوى عناصر الضد والنفى. فالإحرام حيث الكلُّ بلباسٍ واحد، والتلبية حيث الكلُّ بنداءٍ سماوى واحدٍ "لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمدَ والنعمةَ لك والملك لا شريك لك "...ثم السعى والطواف والأفاضة. كلّ تلك الشعائر والمناسك، تجعل الجميع فى حالة عبودية واخلاص، فتلغى بصورة عملية فوارق اللون والجنس والمذهب والانتماء والمنصب، فلا خصوصية ولا شأنية ولا إمتياز إذ الكلُ عليصعيدٍ واحدٍ عبيدٌ لله الواحد.

وقد نبّه الإمام على (عليه السلام) إلى هذا المعنى قائلًا ":ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم (ع) إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تُبصر ولاتَسمع، فجعلها بيته الحرام "الذى جعله للناس قياماً. "إلى أن قال (عليه السلام): ثم أمَر آدم (ع) وَولدهَ أن يثنوا أعطافهم نحوه فصار ذُللًا يُهلِّلون لله حولَه، ويرملون على أقدامهم شُعثاً غُبراً له قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم "...(۳).

۱- ۱ الوسائل ۲۴: ۱۱ الفقيه المحدّث الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملى ت ۱۱۰۴ ه- تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام/ قم المشرفة/ ۱۴۱۱ ه-.

۲- ۲ إشارة إلى قوله تعالى: وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون.. يوسف: ۱۰۶ وراجع التنبيه على هذا المعنى، خمس رسائل/ الشيخ عبدالله جوادى آملى/ وجيزة فى أسرار الحج: ۱۲۹.

۳- ۴ نهج البلاغة/ ضبط الدكتورصبحى الصالح: ۲۹۳، الخطبة رقم ۱۹۲.

ص: ۱۴۴

وقال (عليه السلام) فى خطبة أخرى ":وفرضَ عليكم حجّ بيته الحرام الذى جعله قبلةً للأنام... وجعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته، واذعانهم لعزته "...(۱).

وفى مقطعٍ من خطبةِ الزهراء (عليها السلام) قالت ":وجعلَ الحجّ تشييداً للدين "...(۲).

وقال العلامة الطباطبائى فى بيانه المنافع الدنيوية والاخروية للحج ":وعمل الحجّ بماله من المناسك يتضمن أنواع العبادات من التوجه إلى الله وترك لذائذ الحياة وشواغل العيش والسعى إليه بتحمل المشاق والطواف حول بيته والصلاة والتضحية والإنفاق والصيام وغير ذلك.. ثم قال: إن عمل الحجّ بماله من الأركان والأجزاء يمثل دورة كاملة مما جرى على إبراهيم (عليه السلام) فى مسيرة فى مراحل التوحيد ونفى الشريك وإخلاص العبودية لله سبحانه "(۳).

ولعل من المناسب أن نذكر أيضاً ما استظهره الشيخ جوادى آملى من أسرار الحج قائلًا ":إنّ العبادة، أية عبادة كانت يُعتبر فيها الخلوص، قال تعالى ":ألا لله الدين الخالص، "إلا أنّ تجلى ذلك الخلوص فى بعضها أظهر، وطرد الشرك فى بعضها أقوى وأجلى، ومن ذلك الحجّ حيث إنّ التوحيد قد تمثّل به، وصارَ هو بأسره من البدوِ إلى الختمِ مثالًا للتوحيد وطرداً للشرك "..(۴).

ثم لا ريب بعد ذلك أن تكون كلمة التوحيد، والإخلاص للحق تعالى يقودهم إلى وحدة الكلمة، ووحدة الموقف، ووحدة الهدف.

ثانياً: التقريب بين المسلمين والتآلف بينهم:

إنّ الشريعة الاسلامية شريعة واقعية، بمعنى انها وإن كانت تهدف إلى غايات سامية ومرامى بعيدة، وتضع الوسائل العملية لبلوغها، إلا أنها فى عين الوقت تنظر إلى الواقع الحياتى بما هو عليه من تعقيد وبما ينطوى عليه من إشكالات، وبما يموج به من حقائق. ولذلك ونظراً لطبيعة الظروف الموضوعية التى تمرُّ بها الامة. فإنّ هدف الوحدة وإن كان مطلوباً فعلًا، إلا أنه تكتنف تحقيقهصعوبات جدية، وإذا كان موسم الحج (الأيام المعلومة والمعدودة) يمكن أن تخلق شعوراً عالياً بالوحدة والتوحّد إلا أنّ الناس عندما يتحللون من الاحرام، ويعودون إلى أوطانهم تبدأ العوامل الموضوعية تفعل فعلها ومن هنا كان الحجّ ناظراً إلى تحقيق هدف أقرب واقعية، وأيسر منالًا، ثم هو لا يقلُّ أهميةً وخطراً عن هدف الوحدة، وذلك هو هدف (التقريب بين المسلمين) من خلال تحقيق فهم مشترك، وتفهم واطلاع كلّ فريق بما عليه الفريق الآخر من أداءً لنفس المناسك وقيام بنفس الأعمال، وانكشافٍ لما يدين به الجميع من توحيد الربّ تعالى، ونفى الشرك عنه، والشهادة للنبى الأكرم محمد بن عبدالله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالنبوة والرسالة وتعظيمه وتبجيله، وحينئذٍ سيرى كلّ فريقٍ الفريق الآخر على حقيقته، وسيجد الجميع أنفسهم أنهم يؤدون مناسك واحدة، ويقومون بتلبيةٍ واحدة، ويتوجهون إلى قبلةٍ واحدةٍ ويفيضون إفاضةً واحدة. وسيجد المسلمون

۱- ۵ نفس المصدر: ۴۵ الخطبة ۱.

۲- ۶ راجع كتاب بلاغات النساء لأحمد بن طيفور: ۲۸ نشر انتشارات الشريف الرضى/ قم.

۳- ۷ الميزان/ العلامة الطباطبائى ۳۷۰: ۱۴، منشورات حوزة علمية/ قم.

۴- ۸ وجيزة فى أسرار الحج، ضمن خمس رسائل: ۱۵۶- ۱۵۷، منشورات حوزة علمية/ قم.

ص: ۱۴۵

أنفسهم أيضاً فيصلواتهم وقيامهم وسعيهم وطوافهم أنهم ينطقون بالشهادتين ويهتفون بنداء واحدٍ. وسيكتشف الجميع أنهم أبناء ملة واحدةٍ، وأنهم أمة من دون الناس. وأنّ دماءهم عليهم حرام وأموالهم عليهم حرام وأعراضهم عليهم حرام، كحرمة يومهم وكعبتهم (۱) "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه "(۲) كماصرّح بذلك أمين الله على وحيه خاتم المرسلين نبينا محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وعند ذاك سينكشف أمامهم زيفُ دعاوى الخصوم ودعاة التفرقة، والمروجين للأراجيف التى يطلقها الأعداء ضدَ مذاهبهم ومدارسهم الكلامية أو الفقهية.

وليس هناك أعظم من الحج مؤتمراً تُعلن فيه الحقائق، وتتبين فيه العقائد، وتتضح فيه أسباب التآلف والتقارب.

وقد أشارَ العلامة الطباطبائى إلى هذا المعنى قائلًا "فإذا اجتمعت أقوامُ وأممٌ من مختلف مناطق الأرض وأصقاعها، على مالهم من اختلاف الأنساب والألوان والسنن والآداب، ثم تعارفوا بينهم وكلمتهم واحدة هى كلمة الحق، وإلههم واحد وهو الله عزّ اسمهُ، ووجهتهم واحدة هى الكعبة- البيت الحرام- حملهم اتحاد الأرواح على تقارب الأشباح، ووحدة القول على تشابه الفعل "...(۳).

ثالثاً: التبادل التجارى والتعاون الاقتصادى:

لا ريب أنّ التبادل فى التجارات مدعاة لنمو الثروات وزيادة الدخل ورفاه المجتمع، وأنّ تبادل الخبرات والتعاون الاقتصادى له أثره الكبير على تقوية الأواصر، والإسهام فى سدّ احتياجات الأمة المعاشية، وربما يقود استمرار التبادل التجارى والعاون الاقتصادى إلى تحقيق التكامل الاقتصادى فى الأمة والاكتفاء الذاتى، وبذلك يتحقق ما يهدف إليه الشرع الشريف من أن تكون الأمة المسلمة (أمة من دون الناس)، يسود بينها التعاضد والتعاون، وتنفتح على الأمم وفق عهود والتزامات متقابلة.

ولقد وردت فى كتب التفسير وفى الروايات ما ينبىء بكون الحجّ يؤدى مثل هذه الوظيفة المهمة، ويحقق تلك الأهداف الكبرة.

فقد ذكر الزمخشرى فى الكشاف لمناسبة تفسير قوله تعالى: وأذّن فى الناس بالحجّ يأتوك رِجالًا وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كل فجّ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسمَ الله فى أيامٍ معلومات "..الحج ۲۷- ۲۸.

قال: نكّر المنافع- أى فى الآية- لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة، دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادات "...(۴). وإليه ذهب أبو السعود (۵). ونقل ابن كثير روايةً عن ابن عباس فسرّ فيها منافع الدنيا بما يصيبون من التجارات (۶) ونقل الطبرسى (۷) عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنّ المنافع فى الآية التجارات. وأورد هذا المعنى الرازى فى تفسيره قال فى المسألة الأولى "أنه تعالى لما أمرَ بالحج فى قوله: وأذّن فى الناس بالحج ذكر. حكمة ذلك الأمر فى قوله تعالى: ليشهدوا منافع لهم قال: واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا، وهى أن يتّجروا فى أيام الحج "...(۸).

۱- ۹ إشارة إلى ما ورد عن النبيصلّى الله عليه وآله وسلّم فى حجة الوداع الشهيرة، راجع نيل الأوطار/ الشوكانى ۳۵۵: ۵، وعقب على قولهصلّى الله عليه وآله وسلّم "ألا إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا "قال: مجمع عليه. وراجع مستدرك الوسائل/ النورى ۱۴۹: ۳.

۲- ۱۰ سنن البيهقى ۹۲: ۶، ووفى مجمع الزوائد/ الهيثمى ۱۷۲: ۴.

۳- ۱۱ الميزان ۳۶۹: ۱۴.

۴- ۱۲ الكشاف/ جار الله الزمخشرى ۱۵۲: ۳- ۱۵۳، طبعة دار الكتاب العربى.

۵- ۱۳ تفسير أبى السعود ۱۰۴: ۶، نشر دار أحياء التراث العربى.

۶- ۱۴ تفسير ابن كثير ۲۱۶: ۳/ نشر المكتبة التجارية بمصر.

۷- ۱۵ مجمع البيان/ الطبرسى ۸۱: ۱۴ نشر المكتبة العلمية- طهران.

۸- ۱۶ مفاتيح الغيب/ الفخر الرازى ۲۶: ۱۲، طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت ۱۴۱۱ ه-.

ص: ۱۴۶

وأوضحُ منهم ماصرّح به العلامة الطباطبائى فى الميزان قائلًا ":وقد اطلقت المنافع ولم تتقيد بالدنيوية أو الاخروية، والمنافع نوعان: منافع دنيوية، وهى التى تتقدم بها حياة الأنسان الاجتماعية ويصفو بها العيش، وترفع بها الحوائج المتنوعة وتكمل بها النواقص المختلفة من أنواع التجارة والسياسة والولاية والتدبير وأقسام الرسوم والآداب والسنن والعادات ومختلف التعاونات والتعاضدات الاجتماعية وغيرها "(۱).

وقد جاءت بعض الروايات عن أئمة اهل البيت (عليهم السلام) ولسانها يصرّح بذلك. فعن هشام بن الحكم قال ":سألت أبا عبدالله (عليه السلام) فقلت له: ما العلة التى من أجلها كلّف الله العباد الحجّ والطواف بالبيت؟ فقال: إنّ الله خلق الخلقَ... إلى أن قال: وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة فى الدين ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ولينزع كل قومٍ من التجارات من بلدٍ إلى بلدٍ "...(۲).

ونقل فى الوسائل عن العلل وعيون الأخبار بأسانيد عن الفضل بن شاذان، عن الرضا (عليه السلام)، فى حديث طويل قال ":إنما امروا بالحج لعلة الوفادة إلى الله عزّوجل وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترب العبد تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس عن اللذات، شاخصاً فى الحر والبرد، ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلل. ثم قال (عليه السلام): مع ما فى ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من فى شرق الأرض وغربها، ومن فى البرّ والبحر، ممن يحجّ، من بين تاجرٍ وجالبٍ وبائعٍ ومشترٍ "...(۳).

رابعاً: جعل حركة الفرد المسلم لا تنفصل عن الأمة:

إنّ الفرد المسلم فى الحج يشعر شعوراً قويّاً، ويدرك إدراكاً واضحاً أنه (فردٌ فى أمة)، عليه أن يتصرف ويتخذ المواقف انطلاقاً من هذه الصفة.

وإذا كان الاسلام قد ربّى الفرد المسلم على مثل هذا الشعور كما هو الأمر فيصلاة الجماعة، أو فى الجمعة أو فى العيدين، وغيرها من العبادات ذات الصفة الجماعية، فلأنه ربما لا يتأتى له مثل هذا الأمر بلحاظ أنّ بعض هذه العبادات ليست إلزامية، وبالتالى فهو يستطيع التحلل منها. ولكنّ الأمر فى الحج مختلف تماماً فهو يجب أن يؤدى المناسك ضمن (الأمة) كفردٍ فيها يتحرك بحركتها، ويقف المواقف معها، ويشهد المشاعر معها، يطوف بطوافها، ويسعى معها، ويفيض معها وينحر معها، ويفعل كل أفعال الحج مع الأمة مجتمعةً.

وبذلك سيدرك الفرد المسلم أنه لا كيانَ له إلا بكيان الأمة ولا هوية لا إلا هوية الأمة المسلمة، وأنّ المسلمين ذمتهم واحدة يسعى بها أدناهم.

۱- ۱۷ الميزان/ السابق.

۲- ۱۸ الوسائل ۱۴: ۱۱، كتاب الحج [۱۸] [۱۴ ۱۲۴.

۳- ۱۹ الوسائل ۱۲: ۱۱- ۱۳، الحديث رقم [۱۵] [۱۴۱۲۱.

ص: ۱۴۷

ومن هنا أيضاً يتحرك المسلمون- بعد وعى تلك الحقيقة- ليعلنوا الموقف الموحد إزاء الشرك والكفر (۱) وهذا ما كان يهدف إليه الحج الأكبر كما نطقت به الآية المباركة: وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر أنّ اللَه بريءٌ من المشركين ورسولُهُ.... التوبة/ ۳.

وفى روايةٍ عن الامام (عليه السلام) قال ":عليكم بحج البيت فأدمنوه، فإنّ فى إدمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم وأهوال يوم القيامة "(۲).

ولعل من المناسب أخيراً أن نذكَر فذلكةً فى المقام تقوى ما استظهرناه وبيّناه من أهداف الحجّ ووظائفه، بعد أن استندنا فى ذلك إلى ظاهر الآيات والروايات وما ذهب إليه العلماء والمفسرون العظام، فنقول:

۱- لقد فرض- الله تعالى- الحج فى أيامٍ معدودات معلومات، وفيها يلزم أن يكون جميع الحجيج حاضرى المسجد الحرام، بدءاً من عرفة بلحاظ أن (الحج عرفة) كما ورد، إلى أيام التشريق وهى يوم الأضحى، عاشر ذى الحجة وثلاثة أيام بعده كما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام) (۳) وهذا ينبئ بأنّ هذه الفريضة المباركة تؤدى مناسكها بحضور الجميع. ولو كانت هذه الفريضة ليس فيها غايات اجتماعية عظيمة لترك تأديتها إلى كلّ فردٍ فى أى وقتٍ يشاء. ولكن لما كان الأمرُ فى (الأيام المعلومة) (۴) فلذلك ليكون الحضور عاماً، ويشهدوا المنافع المطلوبة.

۲- أنّ المناسك جميعاً يجب أن تؤدى بطريقةٍ واحدةٍ، وبأسلوب واحدٍ وبأوقات واحدة، وهى كلها تصبُّ فى هدفصهر الفرد واخضاعه لحركة الأجتماع البشرى المتوجه إلى الله تعالى، طوافاً وسعيّاً، وهتافاً (التبية)، وحركةً ومواقف فى المشاعر الحرام وهى بهذه المثابة والصورة تتحقق بها المرامى والغايات المقصودة.

عن محمد بن يعقوب عن على بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن عمر بن اذينة قال: كتبت إلى أبى عبدالله (عليه السلام) بمسائل بعضها مع ابن بكير وبعضها مع أبى العباس فجاء الجواب بإملائه: سألت عن قول الله عزّوجلّ: ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلًا... آل عمران/ ۹۷. يعنى: به الحجّ والعمرة جميعاً لأنهما مفروضان..، وسألته عن قول الله عزّوجلّ: وأتموا الحجَّ والعمرة لله البقرة/ ۱۹۶، قال يعنى بتمامهما أداءهما،، وإتقاء ما يتقى المحرم فيهما، وسألته عن قوله تعالى: الحجّ الأكبر التوبة/ ۳ ما يعنى بالحج الأكبر؟ قال: الحج الأكبر الوقوف بعرفة ورمى الجمار، والحج الأصغر العُمرة (۵).

وجاء فى الوسائل باب أنه يجب الحج على الناس فى كل عام وجوباً كفائياً: أورد محمد ين يعقوب أيضاً رواية ينتهى سندها إلى الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) أنه قال ":إن الله عزّوجلّ فرضَ الحج على أهل الجدة فى كل عام "...(۶).

۱- ۲۰ وجيزة فى أسرار الحج/ الشيخ جوادى آملى ۱۷۳- ۱۷۴، ضمن خمس رسائل.

۲- ۲۱ ميزان الحكمة/ الرى شهرى/ نقله عن البحار ۱۶۷: ۷۴.

۳- ۲۲ الميزان/ الطباطبائى ۳۷۱: ۱۴.

۴- ۲۳ اختلف المفسرون فى الأيام المعلومة على أقوال، ولكنها لا تخرج عمّا ذكرهصاحب الميزان فى الراجح منها، راجع: التفسير الكبير/ الرازى ۲۶: ۱۲ طبعة دار الكتب العلمية، بيروت. وراجع تفسير ابن كثير ۲۱۶: ۳. وراجع الكشاف/ الزمخشرى ۱۵۲: ۳- ۱۵۳.

۵- ۲۴ وسائل الشيعة ۷: ۱۱- ۸.

۶- ۲۵ نفس المصدر ۱۶: ۱۱.

ص: ۱۴۸

وقد وردت عدّة روايات فى الوسائل، تحت باب عدم جواز تعطيل الكعبة عن الحج وفى وجوب إجبار الناس عليه (۱) ومن ذلك يظهر أن الحجّ فريضة مستمرة دائمة تهدف إلى تلك الأهداف العظيمة وتحقيق المنافع الدنيوية والأخروية جميعاً.

اللهم ارزقنا حجّ بيتك الحرام فى عامنا هذا وفى كلّ عام.

والحمد لله ربّ العالمين

۱- ۲۶ نفس المصدر ۲۰: ۱۱.

ص: ۱۴۹

دور الحجّ فی ترسیخ السّلام فی العلاقات الاجتماعیّة

ص: ۱۵۰

دور الحجّ فی ترسیخ السّلام فی العلاقات الاجتماعیّة

تألیف: محمّد مهدی الآصفی

أو لَم یَروا أنا جعلنا حرماً آمناً (۱)

من مهام الحج تحقیق السلام فی العلاقات الاجتماعیة، وتوفیر فرصة نموذجیة للسلام فی العلاقات فیما بین الناس، فی فترة الإحرام فی الحج، وتوفیر رقعة نموذجیة من الأرض؛ لتمکین السلام فی العلاقات الاجتماعیة هی رقعة الحرم.

ولکی نعرف موقع السلام فی هذه الرحلة، لا بد من أن نستعرض المراحل الأساسیة فیها بإیجاز شدید، بالقدر الذی نستطیع أن نتعرف فیه علی مواقع السلام فی هذه الرحلة الإلهیة.

الحج رحلة الأنا والذات إلی الله علی الطریقة الإبراهیمیة أو اختزال لهذه الرحلة الشاقة التی قطعها من قبل أبونا إبراهیم (علیه السلام)، علی الطریقة الرمزیة التی تعتمدها فریضة الحج بصورة واضحة.

هذه الرحلة تبدأ مهمتها من المیقات، وتنتهی بطواف النساء وطواف الوداع والآن نشیر بإجمال إلی الأشواط الرئیسة التی یقطعها الحاج فی هذه المرحلة من الأنا إلی الله تعالی.

۱- التحرر من الأنا:

تبدأ هذه الرحلة فی المیقات بتجاوز الذات والأنا، ومحاولةصهر الذات والأنا فی المسیرة الإیمانیة إلی الله تعالی، وهذه هی المرحلة الأولی فی هذه الرحلة الإلهیة.

وتصبّ هذه الذوات- بعد انسلاخها عن الأنا، ومختصات هذا الأنا- فی الحشد البشری الکبیر، فی الطواف حول البیت، کما تصب السواقی والأنهر الصغیرة فی البحر الکبیر، فلا تستطیع أن تمیز- بعد ذلک- أین هی میاه هذه السواقی من البحر الکبیر، وهی رحلة شاقة وذات معانی کبیرة فی حیاة الإنسان، تستحق منا الکثیر من التأمل والتفکیر.

تبدأ هذه الرحلة من المیقات، حیث یتجرّد الإنسان فیه من ذاته وأهوائه، وخصائصه التی تفرزه عن الآخرین وتفرده.. وتحجزه عن الانصهار فی المسیرة الإلهیة الحاشدة، التی لا یتمایز فیها الأفراد، ولا یحجز بعضهم عن البعض شیءٌ من هذه النوازع، والفوارز التی تفصل الناس بعضهم عن بعض..

إنّ المیقات حدّ فاصل، بین الأنا وبین الجماعة المؤمنة. فقبل أن یدخل الحاج المیقات یعیش کما یعیش سائرُ الناس الأنا تمییزاً وتشخیصاً. وللأنا تظاهر وبروز فی حیاتهم، وللأنا سماته معالمه الواضحة. فإذا دخل المیقات تضاءل الأنا وخفصراخه وصوته وفقد معالمه ومیزاته، وفقد لونه وصبغته الصارخة، وهذا الانقلاب فی الشخصیة والموقع یتمّ فی المیقات. ویرمز إلی هذا الانقلاب (لباس الإحرام).

۱- ۱ العنکبوت: ۶۷.

ص: ۱۵۱

وقد قلنا: إن الحج یعبّر عن المعانی والمفاهیم التی تنطوی علیها بلغة الرمز. فعند المیقات یتجرد الحاج عن کل ملابسه وما تحمله من سمات شخصیة وطبقیة وقومیة وإقلیمیة. إن لباس الإنسان یحمل هویته ویحمل الإشارة إلی شخصیة الانسان وانتمائه القومی والاقلیمی والعقدی وطبقته مهنته ودرجته فی الثراء والفقر والمستوی الاجتماعی. فإذا بلغ المیقات تجرد عن ملابسه، ولبس ثیاب الإحرام إزاراً ورداءً... وکانا قطعتین من القماش، لم یستعمل فیهما الخیط، کالآخرین علی نحو سواء فی غیر بذبح ولا شرف ولا تمییز، وخلع عن نفسه ملابسه التی کانت تحمل هویته وتعبر عن شخصیته. إن هذه الخطوة الأولی فی المیقات تعبّر عن انسلاخ الانسان عن هویته وشخصیته وأنانیته وتعبر أیضاً عن العبور علی الذات وتجاوز الأنا. وکما یجرد المیت عن ملابسه، لأن دور الأنا فی حیاته قد انتهی، ولم یعد للأنا حجم ولا دور ولا شکل فی المرحلة الجدیدة من حیاته، کذلک المیقات مرحلة أخری من الحیات ضمن هذه الحیاة الدنیا، یتجرد فیها الحاج عن هویته وأنانیته، وینسلخ عن ذاته لیدخل المیقات، وکان المیقات مصفاة، وأول شیء تأخذه هذه المرحلة من الإنسان هو ذاته، فإذا تجرد عن الأنا وانسلخ عن ذاته حق له أن یتجاوز المیقات إلی الحج، وما لم یتخلص الإنسان عن ذاته فلا یحق له أن یتجاوز المیقات إلی لقاء الله. فإذا خلص فی هذه المصفاة من ذاته اجتاز المیقات وتوجه إلی الحج.

وإن أکثر ما یثیر المتاعب فی حیاة الناس ویعکّر العلاقة فیما بینهم هو التصادم الذی یحدث بین الذوات والأنانیات، وعندما تذوب الذات عند الانسان وتنصهر، ویخلص الانسان من طغیان الأنا، ینتهی شطر کبیر من مشاکل الإنسان، ولقاءاته السبیلة مع الآخرین، وما یستتبعه منصدام وتردی العلاقة، وحالة الأثرة والأنانیة، وحب الذات، فإذا خلصت حیاته من الذاتیة والأنانیة تمکن أن یسلم من هذه المشاکل والمتاعب التی تعجّ بها حیاة الناس فی المجتمع، واستطاع أن یضع حیاته وعلاقاته الاجتماعیة علی أسس سلیمة وأن یحکم السلام فی علاقاته مع الآخرین.

التجمل والترف:

وفی المیقات یختص الإنسان مع خصلة أخری من خصال الأنا، وهی خصلة ممدوحة لو کانت فی الحدود المعقولة، التی لا تستأثر باهتمام الانسان کله ولا تملک إرادته ولا تحکمها، فإذا تحولت هذه الخصلة إلی خصلة حاکمة علی إرادته کانتصفة ذمیمة منصفات الإنسان، وتلک هی خصلة التجمل، فهی خصلة ممدوحة فی الحدود التی تظهر علی الانسان نعم الله تعالی وفضله، فإذا تحولت إلی خاصیة من خواص الذات، مهمتها إبراز الذات وإظهارها، لا إبراز نعم الله تعالی وفضله، تحولت إلیصفة ذمیمة منصفات الذات، وسلبته القدرة علی تحمل الشظف والسیر علی طریق ذات الشوکة.

ص: ۱۵۲

وفی المیقات یدخل الأنا فی هذه التصفیة الإلهیة، ویلزم الإحرام التخلی- فی فترة الإحرام- عن هذه الخصلة، ویحرم علیه الطیب والتجمل، حتی بالنسبة للنساء، فیما یتجاوز الحد المألوف للمرأة فی التجمل، وذلک لتمکین الإنسان من هذه الخصلة التی تشکل حالة تظاهر للأنا، وحالة ترف تؤثر تأثیراً سلبیاً علی إرادة الإنسان، وقدرته فی مواجهة متاعب الطریق، إذا لم یعمل علی تعدیل وتهذیب هذه الخصلة، وإرجاعها إلی نصابها الممدوح، الذی یقره الإسلام ویأمر به.

سلطان الهوی والشهوات:

وفی المیقات یمر الأنا بتصفیة ثالثة، وهی تخلیص الإنسان من سلطان الهوی والشهوات والغرائز، وهی مسألة فی غایة الدقة فی الإسلام فقد قلنا إنّ تخلیص الإنسان من سلطان الهوی والشهوات، ولم نقل من الهوی والشهوات ذلک لأن الإسلام لا یکافح الأهواء والشهوات فی نفس الإنسان، وإنما یعتبرها ضرورة من ضرورات الحیاة ومن دونها تختل الحیاة، وإنما الذی یکافحه الإسلام هو سلطان الهوی، والشهوات علی الإنسان وإرادته، ولیست الأهواء والشهوات فی حدّ ذاتها مصدراً للانحراف والسقوط فی حیاة الانسان، وإنما الانحراف والسقوط یأتی من ناحیة سلطان الهوی علی إرادته، فإذا تمکنت الأهواء منه، وتحکمت الشهوات علیه وخضع واستسلم لها، عند ذلک فقط یتمکن الشیطان منه، ویتعرض الانسان للسقوط والانحراف. ولذلک فإن النهج الإسلامیّ فی التربیة یعمل علی ترویض الأهواء والشهوات وتطویعها لارادة الإنسان، وتمکین الإرادة منها، دون أن یکافحها ویحاربها ویستأصلها ویصادرها.

والصوم نموذج واضح لهذا المنهج التربوی. والمیقات هو الآخر یقع فی هذا الخط التربوی. ففی المیقات یتعرض الانسان لتصفیة واسعة فی (الأنا) و (الهوی)، ویمتص المیقات من نفس الانسان سلطان هاتین الخصلتین، ویسمح له بالدخول فی رحاب ضیافة الله- تعالی- بعد أن یجرده من هذه النزعة الحیوانیة التی تطغی علی تصرفاته وتحکم إرادته وفعله.

والهوی عندما یحکم الإنسان یتحول إلی مصدر للشرّ فی علاقاته وحیاته الاجتماعیة، ویسلب الأمن والسلام فی حیاة الناس، فلیس ما بین الناس من خلاف وصراع وصدام مصدره الاختلاف فی الرأی غالباً وإنما یعود السبب فی نسبة کبیرة وواسعة فی هذه الخلافات إلی عامل الهوی فی العلاقات الاجتماعیة وللإمام الخمینی (قدس سره) کلمة ذات دلالة عمیقة فیما یقول قدس سره: (لو أن مئة وأربعة وعشرین ألف نبیّ عاشورا فی مکان واحد لما اختلفوا فیما بینهم، لأنه لا سلطان للهوی فی نفوسهم).

ص: ۱۵۳

فالمیقات نقطة تحول وانقلاب فی حیاة الإنسان، وأهم ما فی هذا الانقلاب هو إضعاف الأنا والذات، وخصال وخصائص فی حیاة الإنسان. فإذا تجرد عن ذلک کان موءَهلًا للدخول فی رحاب ضیافة الله فی الحج.

ومن عجب أن المذاهب الفکریة المادیة تؤکد عکس ذلک تعزیز الأنا وتثبیت واعتماد عنصر الاعتداد بالنفس، وتنمیة حالة الغرور والعجب. بخلاف الإسلام الذی یبنی منهجه التربوی علی أصل مکافحة الأنا وإضعافها وتحجیمها، وتحویل الإنسان من محور الأنا، إلی محور حاکمیة الله تعالی وسلطانه فی حیاته، ویدعو الإنسان إلی التحلل من هذا المحور والارتباط بالمحور الربانی والانصهار فیه قل إنصلاتی ونسکی ومحیای ومماتی لله رب العالمین (۱).

۲- الانصهار فی الجماعة:

فإذا تجرد الإنسان عن الأنا وانسلخ عن ذاته وجد نفسه فجأة فی وسط حشد بشری کبیر، لا یمتاز بعضهم عن بعض، ولا یکاد یفرق بینهم شیء، یتحرک ضمن موج بشری کبیر هادر، ینطلق من المیقات إلی الکعبة، کما تصب الأنهر فی البحر من کل میقات من هذه المواقیت المعروفة، التی وقّتها رسول الله (صلّی الله علیه وآله وسلّم)، تجری أنهر کثیرة من الناس تصب فی الحرم حول الکعبة، فتتجمع هذه الأنهر حول البیت الذی رفع قواعده إبراهیم ومعه ابنه اسماعیل (علیهما السلام) وفی هذا التیار البشری العظیم یتضاءل عنده الإحساس بالأنا، حتی لا تکاد تشعر به حواسه ومشاعره، فلا تری فی المطاف أفراداً یتحرکون، وإنما تری کتلة بشریة واحدة من الناس تطوف حول البیت العتیق.

ولو أن الحاج الذی تجرد فی المیقات عن الأنا، لم یکن یصب فی المطاف فی الجماعة المؤمنة، لکان یضیع ویفقد مقومات وجوده وشخصیته، ولکنه لا یکاد یتجرد عن الأنا ومعالمه وحدوده حتی یصب فی الجماعة الکبیرة، کما تصب قطرات الماء فی النهر الکبیر، ویعود فی المطاف إلی لون جدید من الحیاة، وإلی حیاة جدیدة لم یألفها من قبل بهذه القوة والفاعلیة، ولم ینذوقها بهذه الصورة تموت فیه الأنا، ویبعث الله فی نفسه الإحساس بالجماعة، وینتقل إلی طور جدید من الحیاة أهم خصائصه غیاب الفردیة، وحضور الجماعة؛ ویتکرس هذا الإحساس لدی الانسان فی المطاف وفی السعی، وفی الموقف فی عرفات، وفی الافاضة إلی المزدلفة، وفی المزدلفة، وفی منی، وفی العودة إلی الطواف والسعی یتضاءل لدی الانسان المسلم الإحساس بالأنا، ویتأکد لدیه الاحساس بالجماعة المسلمة، وبأنه عضو من جسم واحد، ولیس فرداً من مجموعة انسانیة، وبأن هذه الأمة کیان واحد ومصیر واحد وما یصیبها من خیر وشر یصیب الجمیع، وبأنه وحده لا یستطیع أن یتحرک إلی الله علی خطی إبراهیم (علیه السلام)، إلا أن یذوب فی هذا الحشد البشری الکبیر المتجه إلی الله.

۱- ۲ الانعام: ۱۶۲.

ص: ۱۵۴

إن النـاس قبل أن يتجاوزوا الميقات إلى الحرم مجموعـة من الأفراد، يتمايزون فيما بينهم، ويتزايـدون، ويتفاخرون، ويتجادلون، ويضـر بعضـهم بعضـا، ويعتـدى بعضـهم على بعض، وتجمعهـم المجـامع من المـدن والضـواحى والقرى فتتجمع فى هـذه المجـامع النزعـات المتضاربـة والأهواء المتخالفـة والرغبات المتضادة، فتكون الجامع البشـرية ساحـة للصـراع والخلاف. أمّا عندما يتجاوزون الميقات إلى الحرم، ويصـبون- من خلال قنـوات المـواقيت الـتى وقّتهـا رسول اللهصـلّى الله عليه وآله وسـلّم- إلى الحرم، فـإنهم يتحولون إلى أمة واحـدة، ويتحركـون باتجـاه واحـد ويلبّون دعوة واحـدة ويلبسون زيّاً واحـداً، ويطوفون حول كعبـة واحـدة، ويسـعون فى مسـار واحد ويوءدون مناسك واحدة، لا يختلفون ولا يتجادلون، ولا يتفاخرون، ولا يتضاربون، ولا يؤذى بعضـهم بعضاً، وكأنّ الحرم يصهرهم فى بوتقة واحدة، ويجعل منهم كياناً جديداً يختلف عما كانوا عليه.

الحرم الآمن:

وأبرز خصـائص هـذا التركيب الجديـد للمجتمع البشـرى الـذى يسـتحدثه الحرم فى حياة الناس هو الأمن، والاحساس بالأمن. إن هـذا الأمن من خصائص ونتائـج هذا التركيب البشـرى الجديد الذى يجده الناس فى الحرم، وهو فى نفس الوقت من أسـبابه وموجباته. فإن الناس إذا شـعروا بالأمن بعضهم من بعض، التقى بعضهم بعضاً دون حذر، وتعامل بعضهم من بعض، وتلاقوا، وتآلفوا، وتعاونوا. فالأمن يعد الناس ليكونوا أمة واحدة، والأمن يعطى للناس هذه الفرصة، التى تتطلبها عملية الانتقال من الحياة الفردية، التى يعيشها الناس عامة إلى هـذا النمط الجديـد، الـذى يريـده الله تعالى لعباده، والذى يرسم الحرم نموذجاً له، كما يصح العكس أيضاً، فان الأمن والإحساس بالأمن هو النتيجة الطبيعية لهذا اللون الجديد من الحياة الاجتماعية. فإن الناس عندما يحشـرون فى الحرم لا يختلفون ولا يتشاجرون ولا يتفاخرون ولا يتزايدون ولا يتضاربون.

الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة:

والله تعـالى يريـد أن يكون وجه الأرض كله آمنـا للناس، يعيش الناس بعضـهم مع بعض فى أمن ودعـة وسـلام لا يحنق بعضـهم على بعض، ولا ينوى أحد لأحد شرا، يُؤثِر بعضهم بعضاً على نفسه، ويحب بعضهم بعضا.

يقول تعالى فيصـفة المهاجرين والأنصار فى الصـدر الأول من هـذا الـدين... والـذين تبوّءُوا الـدار والايمان من قبلهم يُحبون مَن هاجر إليهم، ولا يجـدون فيصـدورهم حاجـة ممـا أوتوا، ويؤثرون على أنفسـهم، ولو كـان بهم خصاصـة، ومن يوق شـحَّ نفسه، فأولئك هم المفلحون. والـذين جاءُوا من بعـدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الـذين سـبقونا بالايمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلّا للـذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم (۱). ولكن الناس يرفضون أن يعيشوا كما يريد الله تعالى لهم.

۱- ۳ الحشر: ۹- ۱۰.

ص: ۱۵۵

فجعل الله لهم من الحرم (رقعة نموذجية) للحياة الآمنة التی يريدها للناس. بدعاء عبده وخليله إبراهيم (عليه السلام): وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر (۱).

هذا هو دعاء العبد الصالح إبراهيم (عليه السلام): وقد استجاب الله تعالى لدعاء عبده وخليله إبراهيم (عليه السلام) فقال: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا (۲).

والمثابة: المحل الذی يرجع إليه الناس. وقد جعل الله- تعالى- البيت مثابة للناس يجمع الناس ويرجعون إليه، ويقصدونه من كل فج عميق، ثم جعله آمنا يأمن فيه الناس بعضهم من بعض، ولا يحذر فيه أحد الآخرين على نفسه؛ يقول تعالى: أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً (۳)، وجعل رقعة الحرم رقعة نموذجية لساحة الحياة كلها، كما جعل الشهر الذی يتم فيه الحج (ذوالحجة) من الأشهر الحرم. يقول الله تعالى: ومن دخله كان آمن ا (۴).

وحتى الجدال الذی ينطوی على نوع من العدوان على الآخرين يحرمه الله تعالى على الحجاج. فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فی الحج (۵).

فإن الجدال منفذ للعدوان بين الناس. وكثير من العدوان يبدأ بين الناس من الجدال الذی يسعى فيه كل من الطرفين المتجادلين إلى إثبات الذات وتجاوز الطرف الآخر.

والأمن فی الحرم أمن شامل، يشمل حتى الحيوان والنبات، فلا يجوز الصيد فی الحرم، ولا يجوز قطع النباتات والأشجار فی منطقة الحرم إلا فی حالات خاصة يذكرها الفقهاء.. وحرمة الصيد وقطع النباتات لا تخص حالة الاحرام، فإنهما تحرمان على المحرم والمحل معاً فی منطقة الاحرام. والحرم فی الاسلام عينةصغيرة لساحة الحياة كلها، والذی يجب أن يعرف رأی الاسلام فی الحياة؛ فإن هذه العينة الصغيرة والرقعة المحدودة من الأرض تجسد تخطيط الاسلام لساحة الحياة الواسعة، فإن العلاقة فيما بين الناس والارتباط والتلاقی هو الافراز الطبيعی للحياة الاجتماعية. فمن أجل هذه العلاقة واللقاء والتلاقی خلق الله- تعالى- الانسان اجتماعياً وأعدّه للحياة الاجتماعية. ولا يبلغ الانسان الكمال والنضج الذی أعده الله تعالى له إلا فی وسط هذه العلاقات واللقاءات والتلاقی فی الحياة الاجتماعية. فلو أن انساناً اعتزل الحياة وعاش وحده فی جزيرة قاصية لم يبلغ بالتأكيد النضج والكمال الذی أعدّه الله- تعالى- له. وهذه اللقاءات والعلاقات إنما تثمر وتعطی وتنتج فی حياة الانسان، فيما إذا توفر له الجو السليم، الأمن والسلام. أما عندما تكون هذه العلاقة فی جو من الريبة والحذر، والخوف والقلق والعدوان والكيد والمكر، فإن هذه العلاقة والارتباط فيما بين الناس لا تكاد تثمر هذه الثمرة، ولا تكاد تبلغ بالانسان النضج والكمال، الذی يطلبه الانسان فی الحياة الاجتماعية، من خلال هذه العلاقات واللقاءات والارتباطات، بل قد تعود العلاقة فی مثل هذا الجو إلى نتائج سلبية فی حياة الانسان.

فالاسلام يخطط بناءً على هذا الفهم لضرورة العلاقة وحدودها فی حياة الانسان، ليجعل العلاقة فيما بين الناس فی الحياة الاجتماعية فی جو آمن وسليم، فيأمن الانسان الآخرين على نفسه فی حضوره وغيبته، وفی نفسه، وعرضه، وماله، ويأمن على نفسه من ألسنة الآخرين وأيديهم، ومن مكرهم وكيدهم وعدوانهم، فيعيش فی جو من الأمن الشامل، ويبنی علاقاته كلها مع الآخرين فی هذا الجو الآمن، فی السراء والضراء، وفی التجارة والبيع، وفی الزواج والعلاقات الاجتماعية، وفی علاقاته مع أصدقائه وزملائه، وفی علاقاته مع أعضاء أسرته، وفی ارتباطه بمن هو فوقه ومن هو دونه، وحينما يأخذ وحينما يعطی، وحينما يحتاج إلى الآخرين وحينما يحتاج إليه الآخرون...

۱- ۴ البقرة: ۱۲۶.

۲- ۵ البقرة: ۱۲۵.

۳- ۶ العنکبوت: ۶۷.

۴- ۷ آل عمران: ۹۷.

۵- ۸ البقرة: ۱۹۷.

ص: ۱۵۶

الاسلام یخطّط ویعمل؛ لیجعل العلاقة فیما بین الناس فی الحیاة الاجتماعیة علی کل الأصعدة فی جو من الأمن والسلام، لتعطی هذه العلاقة الثمرات المطلوبة منها فی الحیاة الاجتماعیة، ویخطط الاسلام ویعمل لیجعل الحیاة الاجتماعیة حیاة آمنة مطمئنة لیتعایش الناس فیها بسلام.

والحرم عینةصغیرة نموذجیة فی الحیاة الآمنة والمطمئنة التی یطلبها الاسلام.. والاحرام عینة أخری نموذجیة للحالة التی یطلبها الاسلام للناس فی الحیاة الاجتماعیة، فی علاقة الناس بعضهم ببعض. ویعود الحجاج من الاحرام والحرم إلی واقع حیاتهم لیأخذوا معهم النموذج الإلهی للحیاة وللعلاقات الاجتماعیة، ویعیشوا حیاتهم بها.

۳- الانتقال إلی المحور الإلهی:

وهذه هی المرحلة الثالثة، من رحلة الحج الابراهیمی.

فی المرحلة الأولی یتخلص الانسان من فردیته وأنانیته وأعراض هذه الأنانیة.

وفی المرحلة الثانیة یصب فی الحرم فی الجماعة المسلمة، وینصهر فی هذه الجماعة (الأمة).

وفی المرحلة الثالثة وهی الغایة الأخیرة فی هذه الرحلة تصب هذه الجماعة فی المطاف حول الکعبة.

والکعبة فی لغة الحج الرمزیة رمز للمحوریة الالهیة فی حیاة الانسان. وإذا استطاع الانسان فی المرحلة الأولی من هذه الرحلة، أن یتخلص من جاذبیة محور الأنانیة فی حیاته، فإن المحور الالهی یجذبه جذباً قویاً بطبیعة الحال.

وانجذاب الانسان إلی هذا المحور، أمر طبیعی کامن فی عمق فطرة الإنسان، والأنا هو الذی یحجز الإنسان عن هذه الجاذبیة، فإذا تحرر عن حاجز الانا فان الجاذبیة الإلهیة تجذبه. والطواف بعد الإحرام رمز لذلک. فإن الاحرام من المیقات یرمز للتحرر من الأنا. والطواف حول البیت یرمز إلی الانجذاب إلی الله تعالی، والحرکة حول المحور الالهی فی الحیاة.

وعلیه فإن حرکة الطواف نقلة فی حیاة الانسان من الأنا إلی الله تعالی. إنه تعبیر رمزی عن التوحید فی حیاة الانسان المسلم، إلا أن هذا التوحید لیس هو التوحید النظری، الذی یعرفه الناس، وإنما هو توحید العبودیة لله، وتوحید الحب والولاء والاهتمام، کما ترسمه الآیة المبارکة من سورة الأنعام: قل إنصلاتی ونسکی ومحیای ومماتی لله رب العالمین. لا شریک له وبذلک أمرت وأنا أول المسلمین (۱).

إن الطواف یرمز إلی الحرکة الانسانیة الدائمة والمستمرة حول هذا المحور الالهی فی التاریخ، وإننا لننظر من بعید إلی حرکة التاریخ، فنری أن حرکة التاریخ تجسد (التوحید) فی حیاة الانسان، وأن الأنبیاء (علیهم السلام) وأممهم- إلا فی فترات قصیرة جدّاً- یجسدون هذه الحرکة البشریة الدائمة حول محور الألوهیة. ولکن عندما ندخل نحن ضمن هذه الحرکة فسوف نواجه ألواناً من المضایقات والأذی والمشاکسات من الهوی فی داخل أنفسنا، ومن الطاغوت فی المجتمع، ومن شیاطین الجن والإنس الذین یضایقون الناس فی حرکتهم إلی الله.

۱- ۹ الأنعام: ۱۶۲- ۱۶۳.

ص: ۱۵۷

وحرکة الطواف حول الکعبة تجسد هذا الواقع بالدقة؛ فإذا نظرت من الأعلی إلی المطاف تری حرکة دائرة الجماهیر الطائفین بصورة مستمرة، وکأنّ أرض المسجد الحرام تطوف بهم حول البیت فی حرکة منظمة وهادئة، أما إذا دخلت بنفسک فی المطاف التقیت بالوجه الآخر لهذه الحرکة الانسانیة حول المحور الالهی، من المعاناة ومواجهة العقبات والمضایقات، وهو یختلف اختلافاً کبیراً عن الوجه الأول الهادئ والمریح.

لماذا عبر الانصهار فی الجماعة؟

فی هذه المرحلة نحن نفهم المنطلق والغایة فی حرکة الانسان بصورة دقیقة، فالمنطلق الذی ینطلق منه الانسان هو تجاوز الأنا والذات ویعبر الاحرام فی المیقات عن هذا المنطلق. والغایة هی الحرکة إلی الله وتوحیده- تعالی-، ویرمز الطواف إلی هذه الغایة. ولکن الانسان فی الحج یصل إلی هذه الغایة عبر الانصهار فی الجماعة المسلمة، ومن دون الانصار فی الأمة المسلمة لا یمکن الوصول إلی هذه الغایة..

إن التخطیط الاسلامی للحج یؤکد علی حضور الأمة المسلمة وتواجدها فی موسم الحج من کل فج عمیق. وأذن فی الناس بالحج یأتوک رجالًا وعلی کل ضامر یأتین من کل فج عمیق (۱).

إن هذا الأذان والإعلان والدعوة الإلهیة العامة للحج، من قبل الله ورسوله، والاستجابة من قبل الناس من کل فج عمیق، یشکل بالتأکید بعداً هاماً من أبعاد الحج.

وعندما نستعرض آیات الحج، والکعبة والبیت، فی القرآن منذ أن رفع إبراهیم وإسماعیل القواعد من البیت، نجد اهتماماً کبیراً بحضور الناس فی هذا البیت، وفی هذا الموسم، وابلغ ما فی ذلک تعبیر القرآن عن بیت الله بأنه بیت الناس إن أولَ بیت وضع للناس للذی ببکة مبارکاً وهدی للعالمین. فیه آیات بینات مقام إبراهیم ومن دخله کان آمناً ولله علی الناس حج البیت من استطاع إلیه سبیلًا... (۲).

ومن عجب أن الله تعالی یخص الناس- عباده- بأول بیت وأشرف بیت ویعلن عن أنه بیت للناس ثم یدعو الناس إلیه ولله علی الناس حج البیت.

وفی دعاء إبراهیم (علیه السلام) نجد أن إبراهیم خلیل الرحمن، عندما أودع أهله وذریته بهذا الوادی القاحل غیر ذی زرع، دعا الله تعالی أن یجعل أفئدة من الناس تهوی إلیهم فاجعل أفئدة من الناس تهوی إلیهم وارزقهم من الثمرات لعلهم یشکرون (۳).

وأیضاً نجد فی سورة البقرة وإذ جعلنا البیت مثابة للناس وأمنا (۴).

فالبیت مثابة للناس یجتمع الناس حوله، ویثوب إلیه الناس، ویجتمع الناس من کل حدب وصوب، ثم إننا فی سورة المائدة نقرأ جعل الله الکعبة البیت الحرام قیاماً للناس (۵).

۱- ۱۰ الحج: ۲۷.

۲- ۱۱ آل عمران: ۹۶- ۹۷.

۳- ۱۲ إبراهیم: ۳۷.

۴- ۱۳ البقرة: ۱۲۵.

۵- ۱۴ المائدة: ۹۷.

ص: ۱۵۸

فالکعبة تقوم حیاة الناس، وتقوم حیاة الناس بها، وعند الإفاضة یأمر الله- تعالی- عباده أن لا ینفرد بعضهم عن بعض فی الإفاضة، وإنما یفیض کلٌّ منهم حیث أفاض الناس ثم أفیضوا من حیث أفاض الناس واستغفروا الله (۱).

إذاً حضور الناس حول البیت وتواجدهم فی الموسم، وانصهار الفرد داخل البیت والحرم فی الناس شیء أساس فی الحج، فی طریق حرکة الانسان إلی الله تعالی.

ونتساءل بعد ذلک، لماذا؟

وهوسؤال مهم یرتبط بسر من أسرار هذا الدین، فإن هذا الدین یحرک الانسان إلی الله- تعالی- ولکن من خلال الحضور فی وسط الناس. فالحج حرکة إلی الله، ولکن من خلال الانصهار فی الناس، والصلاة معراج کل مؤمن، ولکن من خلال الجماعة، وحتی الاعتکاف الذی هو نحو من الاعتزال عن الناس یتم فی المسجد الحرام ومسجد النبی (صلّی الله علیه وآله وسلّم) والمسجد الجامع فی الکوفة، والمسجد الجامع فی أی بلد، ولیس فی أی مسجد معزول متروک، فنتساءل مرة أخری لماذا لا تتم حرکة الانسان إلی الله فی الحج إلا من خلال الانصهار فی الناس ومن خلال الحضور فی وسط الناس؟.

والجواب:

إن من غیر الممکن أن یتجاوز الإنسان الأنا فی عزلة من الناس، وهو شرط أساس فی الحرکة إلی الله تعالی.

والانسان قد یتصور إذا اعتزل الناس، وابتعد عن الحیاة الاجتماعیة، یتحرر من الأنا والهوی والشهوات والرغبات، ولکنه یخطیء کثیراً، فإن نزعات الأنانیة تبقی مطویة فی خبایا نفسه، وهو غیر شاعر بها، فإذا دخل الحیاة الاجتماعیة واحتکَّ بالناس، برزت هذه النزعات المخبوءة، علی السطح الظاهر من شخصیته، ولکن یمکن اجتثاث هذه النزعات والقضاء علیها إلا فی وسط الحیاة الاجتماعیة.

إن هذه النزعات لا یمکن استئصالها إلا من خلالصراع مریر مع النفس فی وسط الحیاة الاجتماعیة، ولا شک أن هذه النزعات، تختفی فی حیاة العزلة والرهبانیة، إلا أنها تبقی کامنة ومختفیة فی النفس، فإذاصادفت فرصة مناسبة وجواً مناسباً تبرز مرة واحدة.

ولذلک لا بدّ من هذا الوسط الاجتماعی و الحیاة الاجتماعیة، والحضور فی وسط المغریات والمثیرات لیستطیع الإنسان أن یتجاوز الأنا بصورة کاملة.

وحقیقة أخری لا تقل أهمیة عن الأولی: أنّ حرکة الانسان إلی الله- تعالی- حرکة شاقة عسیرة وصعبة، ولا یستطیع الإنسان أن یطوی هذا الطریق وحده، فإذا حضر نفسه فی الجماعة المؤمنة، وانصهر فی وسط الأمة هان علیه السیر، واستطاع أن یطوی معهم هذا الطریق بکفاءة وجدارة ویسر.

۱- ۱۵ البقرة: ۱۹۹.

ص: ۱۵۹

لذلك نقول فى الصلاة، ونكرر فى كل يوم عشر مرات إياك نعبد وإياك نستعين بصيغة الجمع، وليس بصيغة المتكلم الوحده، فإن الطريق إلى الله طريقصعب. وليس من شك أن سلوك هذا الطريق، وطى هذه المسافة مع الجماعة المؤمنة آمن وأسلم وأيسر.

ولذلك نجد أن الطريق إلى الله- تعالى- يتمّ فى الاسلام، عبر الحضور فى الجماعة المسلمة والانصهار فيها، وليس بمعزل عنها.

الأبعاد الثلاثة للحج:

تلك هى المراحل الثلاث التى يرسمها الحج بلغته الرمزية الخاصة:

۱- مرحلة تجاوز الذات.

۲- مرحلة الانصهار فى الجماعة.

۳- مرحلة الحركة إلى الله.

وهذه المراحل الثلاث هى الأطراف الثلاثة فى علاقات الانسان؛ فإن للانسان علاقة بالله تعالى، وعلاقة بالمجتمع والكون، وعلاقة بنفسه.

وهذه العلاقات منظورة جميعا فى الحج. ومن عجب أن تكون علاقة الانسان بالجماعة وانصهاره فيها، هو الجسر الذى يربط الانسان بالله تعالى، وليس هو الحاجز والحاجب والعقبة كما فى التصورات الرهبانية.

نبذة تاريخيّة عن القبلة فى المسجد النّبوىّ الشّريف

ص: ۱۶۰

نبذة تاريخيّة عن القبلة فی المسجد النّبوی الشّريف

تأليف: محمّد هادی اليوسفی

من وظائف المسلمين معرفة القبلة، وهی الكعبة المعظمة فی مكة المكرمة، فی الحجاز، من شبه الجزيرة العربية.. فالتوجه إليها شرط فيصحةصلواتهم، والتوجيه إليها شرط فی حلّية ذبائحهم.

وحسب اختلاف المناطق طولًا وعرضاً وشمالًا وجنوباً تختلف القبلة اختلافاً كبيراً، وتتوقف معرفته على علم الهيئة والفلك والجغرافية.

قبلة المسجد النبوی الشريف:

ومن المعلوم فی تاريخ الاسلام أن رسول الله (صلّی الله عليه وآله) إذ هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة الطيبة كان يصلی إلى المسجد الأقصى فی مدينة ايليا/ القدس الشريف فی فلسطين من أراضی الشام، واستمر على ذلك حتى منتصف السنة الثانية بعد هجرته، حيث نزل أمين الوحی جبرئيل (عليه السلام) فحوّل الرسول فی منتصف الصلاة الوسطى (الزوال) من المسجد الأقصى إلى الكعبة المعظمة فی المسجد الحرام، فحوّل الرسول قبلة مسجده كذلك إلى نقطة الجنوب تماماً، من دون أی انحراف عنها.

فساد الهيئة البطلميوسية:

وفی أوائل عهد الخلافة العباسية، حيث تُرجمت كتب العلوم اليونانية إلى العربية ومنها كتب الهيئة البطلميوسية، فسادت هذه الهيئة بين الأمة الاسلامية. وكانت نقطة البدء فی تعيين خطوط طول البلاد فی تلك الهيئة "جزيرة فرو "من "الجُزر الخالدات."

وعليها كانوا يرون طول مكة المكرمة ۷۷ درجة و ۱۰ دقائق، وعرضها ۲۱ درجة و ۴۰ دقيقة. وطول المدينة ۷۵ درجة و ۲۰ دقيقة وعرضها ۲۵ درجة فقط. وعليه فطول المدينة أقل من طول مكة المكرمة بدرجتين و ۱۰ دقائق، بينما يزيد عرض المدينة على عرض مكة المكرمة بثلاث درجات و ۴۰ دقيقة. وحيث أن قانون الهيئة يقتضی أن أی مدينة كان طولها أقل من مكة وعرضها أكثر منها مثل المدينة المنورة، فلا تحصل مواجهة القبلة من تلك المدينة إلّا إذا انحرفنا فيها عن نقطة الجنوب إلى جهة المشرق بازاء كل درجة من الطول ۱۰ إلى ۱۲ درجة بحسب اختلاف الأفق فی المناطق، لهذا كانوا يحكمون بأن قبلة المدينة المنورة تنحرف عن نقطة الجنوب إلى جهة المشرق ۲۷ درجة. هذا فی حين أن المحراب المبارك فی المسجد النبوّی الشريف كان ولا يزال مواجهاً لنقطة الجنوب تماماً من دون أی انحراف.

ص: ۱۶۱

فالمحراب الـذى عينه الرسول المعصوم وشـيد تحت اشـرافه، كان أمارة شـرعية، وعلامـة معتبرة لتعيين القبلـة، دون أن يتصور فيها أى شبهة أو إشكال.

وعلى هذا فكيف يمكن لأصـحاب الهيئة (البطلميوسية) من المسلمين أن يذعنوا بانحراف قبلة المسجد النبوى؟ اللهم إلّا أن يتخلوا عن عقيدتهم بعصمة الرسول الكريم!

تحقيق المحدث المجلسى فى ذلك:

كانت هذه المشكلة عويصة كبرى فى العصور السالفة بين علماء المسلمين، حتى إن المحدث المحقق المجلسى "رحمه الله "كان مما فرض على نفسه التحقيق فى هذه المسألة: أى انحراف قبلة المدينة المنورة ومسـجدها؟ وبعد تشرّفه بها عمل كل ما بوسعه من التحقيق والدراسة حول الموضوع، ولكنه لم يصل إلى أى نتيجة، فلم يتمكن من أن يوفق أو يلائم فيما بين قبلة المسـجد النبوى الشـريف وبين قواعـد الهيئـة القديمـة، التى كانوا يظنونها طِلّسـماً لا ينكسـر! وبالتالى فإنه احتمل قوياً- ومضـطراً- أن تكون يـد متعمـدة أو مخطئة قد عملت فى العمارات المتعاقبة على المسـجد فى زمن الخلفاء العباسـيين، فحرفت القبلة عن الموضع الأصـلى على عهد النبى إلى ما هى عليه اليوم ويومئذٍ. من دون أن يتصور أو يحتمل الخطأ فى قواعد الهيئة والجغرافية القديمة!.

الخطأ المكتشف:

فى حين أن هـذا- أى خطأ الهيئـة القديمـة- هو الواقع والحقيقـة، وقـد نشأ خطأ القـدماء فى هذا الحكم من حيث إنهم زعموا أن طول المدينـة أقل من طول مكـة المكرمـة، وقـد أخطأوا فى زعمهم هـذا لأنهم لم تكن لـديهم مقاييس وأدوات دقيقـة لتعيين طول البلـدان وعرضـها، بينما علماء الهيئـة والجغرافيا اليوم قـد حددوا أطوال البلدان وعرضـها بمقايس دقيقة حتى المتر ونصـفه بل السانتيم والملّيم، فعشروا ضمن ذلك على حقيقة تساوى البلدين مكة والمدينة تقريباً فى خط الطول، وكان مبدأ الطول لدى القدماء "جزيرة فرو "من" الجزر الخالـدات "كمـا مرّ؛ بينمـا هو لـدى المتأخرين مرصـد "غرينويش "فى لنـدن، وقـد حاسـبوا ذلك على التقـديرين، فكان طول البلدين متساوياً تقريباً كما يلى:

طولهما على مبدإ جزيرة فرو: ۵۷ درجة و ۵۷ دقيقة و ۵ ثوانى.

وطولهما على مرصد غرينويش: ۳۹ درجة و ۵۰ دقيقة فقط.

فعلى أىّ تقـدير يكـون طول البلـدين متساويـاً تقريبـاً، وحسب قواعـد الهيئـة تكون القبلـة كمـا هى عليه فى المسـجد النبوى الشـريف ومحرابه (صلّى الله عليه وآله) فيه.

وبهذا عُلم أن رأى القدماء بانحراف قبلة المسـجد ومحرابه كان خطأً ووهماً! بل إن وجود هذا المسجد والمحراب أثر قيّم وشاهد كبير لاثبات علم المعصوم بالهيئة والفلك والجغرافيا والنجوم (۱).

خواطر من الحجّ عند بيت المولى

۱- * أفـدنا فى هـذه النبـذة التاريخية من كتاب: حاجة الأنام إلى النبى والامام بقلم المرحوم آية الله الموسوى اللارى، وتعريب كاتب البحث.

ص: ۱۶۲

خواطر من الحجِّ عند بيت المولى

تأليف: على الكورانى

... كانت ليلة فى السيارة إلى مكّة أين منها النهار...

فيها نقاط التفتيش. وفيها طعام المحرمين. وفيها بعض الأحاديث والأسئلة عن أحكام الإِحرام، ولكنها جميعا اكتست بجلال الخشوع ونور السكينة.. حتى ذكرهم للحسين عليه السلامصار من جو التلبية والإِحرام. فقد عاشوا معه محرما فى طريقه إلى مكة. ثم محرما فى كربلاء يلبى فيقول:

تركت الخلق طراً فى هواكا وأيتمت العيال لكى أراكا

فلو قطعتنى فى الحب إربا لما مال الفؤاد إلى سواكا وحتى إغفاءات الحجاج فى آخر الليل كانت هادئة ناعمة، تقول الروح للجسد فيها:

خذ راحتك، نم فى هذه الطمأنينة الإِلهية فأنا وملائكتك يقظى.. فيغفو الجسد مطمئنا حتى إذا سمع التلبية أفاق، ولبى مع روحه ورفقائه والملائكة..

هنا أول مكة.. ونظر الحجاج فرأوا شارعا ممتدّاً وأمامه جبال ينبعث من ورائها بهاء نور.. فرفعوا أصواتهم بالصلاة على النبىِّ وآله...

هدَأتِ الأصوات حتى عن التلبية. فقد وصلوا إلى حرم المولى. وتطّلعت إليه الأنظار والقلوب.. تريد أن ترى كلَّ شىء فى مكة وتتحسسه. حتى المبانى والشوارع والجبال والهواء...

بسم الله وبالله. ومن الله وإلى الله.. ما شاء الله، وعلى ملّة رسول الله،صلّى الله عليه وآله. وخير الأسماء لله. والحمدلله..

السلام على رسول الله محمد بن عبد الله..

السلام عليك أَيها النبىُّ ورحمة الله وبركاته..

السلام على أنبياء الله ورسله..

السلام على إبراهيم خليل الرحمان..

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين..

اللهم افتح لى أبواب رحمتك. واستعملنى فى طاعتك ومرضاتك. واحفظنى بحفظ الايمان أبداً ما أبقيتنى، جل ثناء وجهك..

الحمدُ لله الذى جعلنى من وفده وزواره، وجعلنى ممن يعمر مساجده، وجعلنى ممن يناجيه.

اللهم إنى عبدك وزائرك فى بيتك، وعلى كلّ مأتى حقّ لمن أتاه وزاره، وأنت خير مأتى وأكرم مزور. فأسألك يا الله يا رحمان بأنك أنت الله لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك وبأنك واحد أحد

ص: ۱۶۳

صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن له كفؤا أحد.. وأن محمداً عبدك ورسولكصلواتك عليه وعلى أهل بيته..

يا جواد يا كريم أسألك أن تجعل تحفتك إياى بزيارتى إياك أول شيء تعطينى فكاك رقبتى من النار..

وتقدم الحجاج فى القسم المسقوف من الحرم، فنظر أكثرهم لأول مرة إلى الكعبة الشريفة تقوم فى وسط ساحة المسجد، ويموج من حولها نهر الطائفين المقدس.. فقرأ لهم القارئ دعاء النظر إلى الكعبة وترجمه لهم.

"الحمدُ لله الذى عظمك وشرفك وكرمك وجعلك مثابةً للناس وأمناً مباركاً وهدىً للعالمين."

وقال لهم اجلسوا، فجلسوا.. ثم قال ارفعوا أيديكم، وقرأ لهم:

اللهم إنى أسألك فى مقامى هذا فى أول مناسكى أن تقبل توبتى، وأن تتجاوز عن خطيئتى وأن تضع عنى وزرى. الحمدلله الذى بلَّغنى بيته الحرام..

اللهم إنى أشهد أن هذا بيتك الحرام الذى جعلته مثابة للناس وأمنا مباركا وهدى للعالمين..

اللهم العبد عبدك، والبلد بلدك، والبيت بيتك.. جئت أطلب رحمتك وأؤم طاعتك، مطيعا لامرك، راضيا بقدرك.. أسألك مسألة الفقير إليك الخائف من عقوبتك..

اللهم افتح لى أبواب رحمتك، واستعملنى بطاعتك ومرضاتك..

بكى الحجاج لهذا الدعاء بنسب من البكاء، ثم قاموا الصلاة ركعتى تحية المسجد..

أما الدكتور فقد اتصل بكاؤه وهو جاث على ركبتيه وقد نكس رأسه. وبقى أحمد إلى جانبه ينتظره فطال بكاؤه.. قام أحمد يصلى، وبقى الدكتور جالساً مطرقا، ينظر حينا إلى الكعبة والطائفين والمسجد، ثم يأوى إليصمته الطويل.. ودموعه..

أكمل أحمدصلاته ودعاءه. والدكتور ما زال على حاله.. فذهب وجاء بأربعة أكواب ماء قدم إلى الدكتور واحدا منها وقال:

هذا من ماء زمزم يادكتور.

شكراً لك يا أحمد، وهل يصح أن نشرب هنا؟

نعم، يا دكتور يستحب، ولكن اسمح لى قبل أن تشرب أن أقرأ لك الدعاء المستحب. وقرأ له "اللهم اجعله علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كلّ داءٍ وسُقْم."

فقرأ الدكتور الدعاء وشرب وحمد الله، فقال له أحمد.

ونحن فى بيت الله، أحبّ أن أهدى لك هدية يا دكتور.

شكراً، يا أحمد ما هى؟

ص: ۱۶۴

وأخرج أحمد من محفظته ورقة وقال:

خطبة أمير المؤمنين عليه السلام حول الكعبة التى استشهد عالم القافلة بجزء منها.. رأيت الكعبة الشريفة فهل تحبّ أن أقرأ لك بعضها ريثما يأتى الرفقاء...؟.

شكراً، تفضل إقرأ.

وقرأ أحمد:

"ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن أدمصلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا وأقل نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قُطراً. بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون شلة، وقرىً منقطعة، لا يزكو بها خفّ ولا حافر ولا ظلف.

ثمّ أمر آدم عليه السلام وولَدَه أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجعِ أسفارهِم، وغايةً لملقى رحالهم. تهوى إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوى فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللًا يُهلِّلُون لله حوله، ويرمُلون على أقدامهم شعثاً غبراً له، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم.. ابتلاء عظيما، وامتحانا شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته ووصلةً إلى جنته.

ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأنهارٍ، وسهل وقرارٍ، جمّ الأشجار، دانى الثمار، ملتفّ البُنى، متصل القرى. بين بُرة سمراء وروضة خضراء، وأريافٍ محدقةٍ، وعِراصٍ مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة، لكان قدصغُر قدرُ الجزاءِ على حسب ضعف البلاء.

ولو كان الاساسُ المحمولُ عليها، والأحجارُ المرفوعُ بها، بين زمرّدةٍ خضراءَ، وياقوته حمراء، ونورٍ وضياء، لخفَّف ذلك مصارعة الشكّ فى الصدور، ولَوضعَ، مجاهدةَ إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس..

ولكنَّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل فى نفوسهم.. وليجعل ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله، وأسباباً ذلُلًا لعفوه."

أكمل أحمد قراءة النص والدكتور يستمع بإصغاء، فقال بصوت منخفض وهو يهز رأسه:

- أين كنا عن هذا الفكر، حقاً إن الثقافة الإسلاميّة مظلومة، كما يقول الشيخ الطبرى.. يا أحمد لقد تأكّد لى أن أحدنا لا يكون إنساناً حتى يكون عبداً ذليلًا لله تعالى، متواضعاً للطيبين من عباده، وأن أكبر الأدوات التى يستعملها إبليس لمنعه من ذلك هى ثقافة الغربيين المادية.. ساعدنى يا أحمد لكى أخرج التكبر من قلبى وأكون عبداً لله ذليلا، نعم ذليلًا.. برغم إبليس، فقد حاول

ص: ۱۶۵

بوساوسه عندما دخلنا إلى مكة والحرم أن يشغلنى عن ربى سبحانه بجغرافية مكة وشوارعها وبنائها، وجدران الحرم وبنائه.. فقلت له: هذه الغرفة المربعة هى بيت الله فى الأرض، وسواء كانت فى أقصى الشرق أوالغرب أو فى مضيق جبلى يتسع لنفر واحد، أو جعلوها فى سرداب تحت الأرض.. فالأمر لا يتغير منه شىء.. إنها بيت الله ومركز هذه الأرض، وأريد أن أطوف حولها وأتبرك بها، وأصنع كل ما أمرنى به رسول اللهصلّى الله عليه وآله. أشكرك يا أحمد، فكأنك عرفت أنى بحاجة إلى هذه الكلمات العظيمة.. لقد قررت أن لا أشغل نفسى بشىء إلا بالأعمال المحددة الواجبة على.. أريد يا أحمد أن أكون واحداً منكم أتوجه إلى الله تعالى وأطوف حول بيته وأصلى، كما تفعلون..

– نعم القرار يا عم، وأسأل الله أن يتقبل منك، فالوقت الآن لاداء المناسك، وعندنا عدة أيام لزيارة المسجد ومعالم مكة والتفكير والأحاديث..

والتزم الدكتور بقراره، ودخل مع الموكب الخراسانى فى سيل الطائفين من شعوب العالم، ولم يسمح للأفكار الطارئة أن تشغله. كان يقول فى نفسه أنا الآن أطوف حول بيت الله.. إنها حقيقة عظيمة، يجب أن أعيشها.. كل شىء هنا غنى بالمعانى والافكار، ولكنى أنا فقير لأن أطوف حول بيت ربى وأناجيه..

هل يمكن لانسان أن يمشى فى سوق مزدحم بالناس وهو يرتجل قصيدة وجدانية..؟

أما إذا كان عاشقاً فنعم..

دخلوا فى خضم الطائفين حول البيت، وكانوا قسموهم إلى مجموعات مع كل واحدة منها مطوف.. ولكن الفراشة العاشقة تعرف كيف تحوم حول السراج، والخراسانى يعرف متى يتابع دعاء المطوف، ومتى يدعو من ظهر قلبه بل من قلب قلبه، بكلمات بالعربية الفصحى، ودموع فوق اللغات..

المسلم فى بلدنا يزور قبر الشهيد فيلقى له القصيدة.. وللإمام المعصوم يرتجل الشعر وينثر الدموع وللنبى يحمل المعلقة فى يد والقلب فى يد..

أما وقد وصل إلى بيت المولى العظيم وبدأ طوافه، فهنا وقت كل القصائد ونثار الروح.. حتى لو قصروا فى واجبهم فلم ينظموا المطاف، وحتى لو ازدحم الناس بمئات الالوف.. أو ليسوا يسمحون له بأن يضع خطواته معهم، فشكراً لهم.. وإذا دفعه الافريقى واليمانى والبدوى، فغفر الله لهم.. كلهم ضيوف المولى يطوفون حول بيته..

كل الامور الأخرى ثانوية أمام قضية هذا المسلم القادم من بلاد نائية عند الكعبة..

القضية أنه الآن حيث كلّ شىء..

حيث أدم وحواء يطوفان ويتوبان..

ص: ۱۶۶

وحيث نوح يطوف بسفينته..

وحيث إبراهيم وإسماعيل يجدّدان البناء..

وحيث موسى وعيسى يحجّان..

وحيث محمدصلّى الله عليه وآله يولد وينشأ، ويبعث، ويُظلم، ويهاجر، ثم يعود فاتحاً.. وحيث خديجة والزهراء.. وعلى يكسر الأصنام.. والحسين يشد الرحال إلى كربلاء.. وكلّ الأئمة والصحابة والعلماء.

وحيث المهدى يحجُّ كلَّ عام، وينتظر ذلك العام ليطلق ثورته من هنا، من عند هذا الركن، من عند باب الكعبة..

هنا يوجد الجميع، لأنه بيت رب الجميع..

وهنا كل شيءٍ من الماضى والحاضر والآتى.. لانه بيت رب الكل..

الخطوة هنا بوزنها ذهبا.. والهواء بالمثاقيل، لأنه أصلًا للروح قبل الرئتين.. والكلمة لا تقدر بثمن، لأنها تولد فى الضوء ويتلقاها ملائكة الكعبة حارة طازجة، فيصعدون بها إلى أعلى..

ألا ترى عروجهم ونزولهم من عند أركان الكعبة الأربعة، بمحاذاة أعمدة النور الصاعدة إلى السماء السابعة، تصعد أفواجهم بكلماتنا وطلباتنا، وتعود محملة بالهدايا والبشائر..

أما تراهم يجمعون دموع الطائفين فى قوارير ليسقوا بها ورودا فى حدائق عند العرش... وعلى نَعَم وحبيب قلوبنا ينظمون هيمنتهم.. وعلى نمط خفق أرواحنا يخفقون أجنحتهم..

وانتظمت قافلتنا فى نهر الطائفين.. تغتسل بالنور، وتستمطر النور، وتفجر قلوبها بالنور والدموع.. كل منهم قرأ مع المطوف، وقرأ من قصائده هو..

وماذا أجمل فى أدب الشعوب من شعر المحرمين الطائفين حول بيت ربهم، ومن إلقائهم.. وحدهم ملائكة الله جمعوا ديوانهم فى مجلدات، ولم توزع نسخه على أهل الأرض، ولم يصلنا منه إلا القليل من كلمات آدم، ودعاء إبراهيم، وتلبية موسى وعيسى، ومناجاة النبيّ وأهل بيتهصلّى الله عليه وآله وكبار الصحابة والفقهاء والعارفين..

فى كل يوم للمسلمين مناجاة وأدعية هند الكعبة، ولكن موسم الحج هو موسم القصائد الحارة، تحمل ذوب الروح وعبيرها..

بدأ أحدهم بمناجاة زين العابدين عليه السلام.

إلهى عبيدك ببابك، سائلك ببابك فقيرك ببابك، مسكينك ببابك.. اللهم البيت بيتك، والحرم حرمك، والعبد عبدك "..فلم يستطع أن يواصل قراءتها لأن لغة البكاء منعته من الاسترسال فى التحدث بلغة الدعاء، لجلال الموقف وهيبة المشهد.

وتتابعت الأشواط السبعة وانتهت، وتواصلت فيها من الحجاج المناجاة والدعوات..

ولكنّ أحداً منهم لم يشعر برىٍّ ظمئه، فالقضية مع الله عند الكعبة لا يفى لها طواف يذهب نصفه فى الزحام، وبعضه فى الإنبهار بجلال المشهد لأول مرة.. فلابد من العودة، ولابد من ساعات طوال للطواف والدعاء والصلاة.

انغام الرحيل

ص: ۱۶۷

أنغام الرحيل

تأليف: الشهيدة بنت الهدى

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى اكتوبر

**

ايها الراحل عن اوطانه لاهيا عنها وعن اخوانه

لا يبالى بجوى تحنانه قاده الشوق الى ايمانه

سائرا نحو النعيم المرتجى فى رحاب الله او قبر النبى ***

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب ***

ايها الراحل سر نحو النعيم نحو وادى زمزم نحو الحطيم

نحو بيت الله والركن العظيم فى رحاب الله ذى العفو الكريم

نحو سعى الحلق أو نحو الصفا واذكر الله بقلب وجب ***

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب ***

ايها الراحل قف جنب المقام حيث ابراهيم قدصلى وصام

ثمصل فى خشوع واحترام واتجه فيها الى رب الانام

واطلب العفو من الرب الذى جعل التوبة عتق المذنب ***

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب ***

ايها الراحل ان جئت الصفا فاسع للمروة تبغى شرفا

وابتهل فيها بقلب قد هفا نحو عفو الله اسمى من عفا

ثم قصر بعد سبع وانثنى شاكراً لله نيل الطلب ***

فرصة العمر واغلى مطلب تهب الانسان احلى الارب ***

ايها الراحل يهنيك المسير نحو وادى خيبر نحو الغدير

نحو بدر احد نحو البشير نحو غار فى حراء مستنير

بضياء المرسل الهادى الذى شع نوراً فى بلاد العرب

ص: ۱۶۸

***

رصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب ***

ایها الراحل خذها فرصة لک واغنم فی ذراها عبرة

ودع الروح لتمضی حرة فی سماء الحق تبغی جنة

عرضها طولًا کأرض وسما وهی تحیا بشعور عذب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان أحلی الارب ***

ایها الراحل هذی عرفات فاغتنمها فرصة قبل الفوات

واشغلن ساعتها بالدعوات واغسل الذنب بسیل العبرات

جبل الرحمة فیها فأته رحمة الله بقلب وجب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب ***

ثم عند الظهر قفها وقفة تائباً لله فیها توبة

واسکب الروح علیها عبرة تغسل الذنب وتعطی جنة

لا یلقاها سوی قلب نقی واستقم فیها لوقت المغرب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب ***

ایها الراحل ذی مزدلفه نحوها فاطر الدجی فی عرفه

یذکر الله بها من عرفه تائباً عن کل ما اقترفه

لیس فیها غیر ارض وسما وظلام وخشوع مرهب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب ***

انها لیلة سعد وخشوع وابتهال ودعاء ودموع

ومناجاة الی وقت الطلوع ما احیلاها اراض وربوع

یستمیل القلب فیها راحة تزدهی من کل زهر طیب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب ***

ص: ۱۶۹

ایها الراحل قد نلت المنی اذ توجهت الی ارض منی

مسجد للخیف یعطیک الهنا فیه تنسی کل جهد وعنا

ایها الراحل وارم الجمرات فی حصیً معدودة للطلب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب ***

وتوجه بعدها للکعبة طف وصل ابتهل للتوبة

ثم فأت للصفا والمروة واشکر الله لهذی النعمة

ثم طف فیها طوافاً ثانیاً لیس من جهد بها أو نصب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب ***

ایها الراحل یهنیک الوصول فی رحاب القدس فی قبر الرسول

فیه تسمو نحو باریها العقول تنمحی الآلام والهم یزول

یهب الارواح امناً ورضا وهو یروی کل قلب مجدب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب ***

ایها الراحل زر تلک الرحاب وبقیعاً ما به غیر التراب

فغدت جدرانه تحکی الخراب وانمحت آثاره فهی یباب

وبه اربعة یرجی بهم نیل عفو الله یوم التعب ***

فرصة العمر واغلی مطلب تهب الانسان احلی الارب

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹